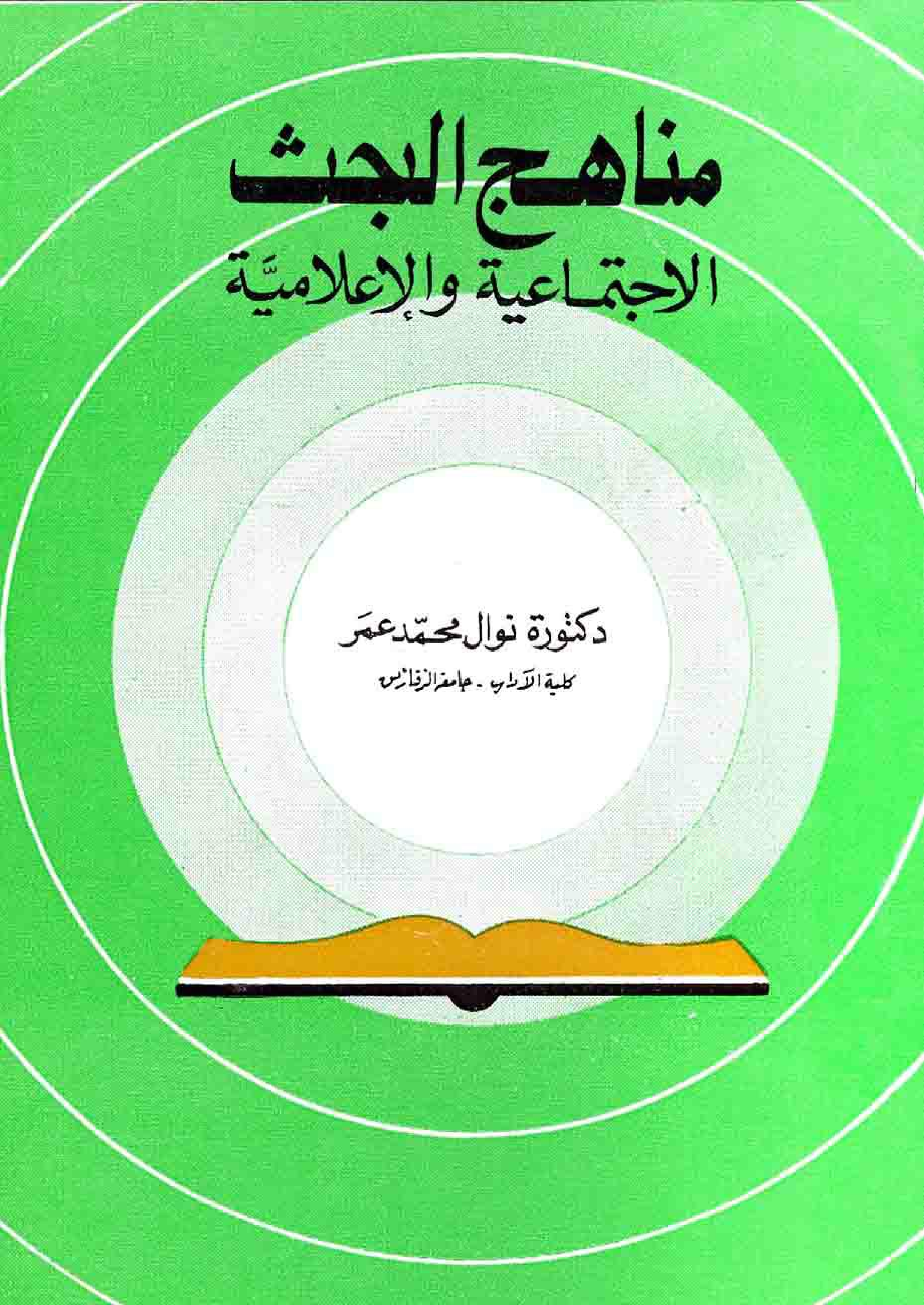

مناهج البحث
الاجتماعية والإعلاميّة
دكتورة نوال محمّد عمر
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مناهج البحث

الإعلانى والاجتماعى

تأليف

دكتورة / نوال محمد عمر
قسم الإعلام بجامعة الزقازيق

١٩٨٦

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مقـدمة

لقد قفزت تطلعات الانسان فى العالم للحصول على المعارف والمعلومات التقنية والفنية وهذه الانطلاقة أى انطلاقة الفكر الانسانى منذ عصر الاستنارة هو المنهـج العلمى الذى يقـوم على الاسـلوب البسـيط للتفـكير السليم بالنسبة للانسان العادى ولقد طوره علماء ومفكرو الغرب بتنظيم التراث العلمى التاريخى وبتحسين وتطوير أدوات الملاحظة والقياس وذلك نتيجة التقدم الذى أحرزته بلادهم فى العصر الحديث .

ولقد تواجه الكتابة فى موضوع مناهج البحث أحجام من قبل الباحثين نظرا للصعوبات التى تحيط بهذا اللون من الموضوعات .

ومرجع ذلك يعود الى أن البحث فى المجتمع والانسان عملية متشـعبة ومتداخلة تحوى الكثير من الابعاد والمكونات الامر الذى يجعل كل محاولة للكتابة فى هذا المجال ناقصة بصورة من الصور سواء كان هذا النقص بوعى من الكاتب أو بلا وعى منه وتمثل دراسة مناهج البحث نوع الدراسة الاساسية اللازمـة لتكوين الاساس العلمى للطالب وخلق الادراك لديه بأهمية النظرة العلميـة وتكوين الاسس المنطقية والموضوعية التى يجب أن تحكم تفكيره سواء فى المجال العلمى أو التطبيقى ومسلمات أى بحث تشتق من الخبرات السـابقة أو من البحوث السابقة ولكن خلف جميع المسلمات توجد فلسفة عامة وشاملة للـكون قد يكون الباحث واعيا أو غير واع بها . ولعل اهم المسلمات معى انتظام ظاهرة الكون بمعنى أن تكرار نفس الظروف المحيطة والمصاحبة لظاهرة ما يرتبـط بحدوث نفس الظاهرة . وهذه نقطة أساسية فى البحث العلمى وبدونها لا يكون هناك معنى للبحث عن أسباب الظواهر أو التنبؤ بها .

وغنى عن البيان أن هناك دعاوى ومشكلات لم تحسم بعد فى العـلوم الانسانية فلا يزال هناك خلاف حول بعض المفهومات والمصطلحات ، ولا يزال هناك حوار دائر حول الموضوعية والذاتية فى البحث العلمى ، كما لا يزال هناك اقتراب بين لغة النظرية العلمية ولغة البحث العلمى ، ولا يزال هناك تعـدد منهجى وتطور فى المناص فى البحث العلمى ولا تزال هناك أخطاء فى تحديد عمليات البحث ذاتها . . . الخ . . .

والكتاب الذى تقدمه للقارىء محاولة للتعريف بالاسس العـامة للبحث العلمى والقواعد الاولية للتفكير السليم وأهم الطرق والاساليب الفنية المستخدمة فى اجراء البحوث الاجتماعية والاعلامية بأنواعها المختلفة واغراضها المتباينـة

كما شرحنـــا فيه أسلوب العينة فى البحث وهو أسلوب حديث أخذت به الكثير من الامم المتقدمة لتوفير نفقات البحث والجهود اللازمة له ولضمان الدقة فى جمع البيانات .

كلمة أخيرة أود أن أنوه اليها وهى أن مشكلتنا ليست فى أننا نطبق المنهج العلمى فى بحث مشاكلنا سواء كانت اجتماعية أو اعلامية . ان مشكلتنا تكمن فى أننا لا نطبق ولم نحدد أهدافنا بصورة واضحة وعلى أهليتها للبحث العلمى ، لم نحدد الاولويات ومن ثم لم نحدد مشاكلنا التحديد العلمى الذى يجعلها قابلة للبحث العلمى ٦

ولقد حرصنا أن نضفى على هذه الدراسة طابعا يساعد المشتغلين بالبحث الميدانى ويسد حاجة المهتمين بالتخطيط الاجتماعى بمبادىء البحث الاجتماعى والاعلامى ومناهجه بوجه خاص .

والله نسأل أن يوفقنا الى ما فيه الخير .

نوال محمد عمـــر

الفهرس

رقم الصفحة

ملحوظــة :

المنهج الاحصائى رقم (٣) بدلا من (٤)

المبحث التجريبى رقم (٤) بدلا من (٥)

الفصل الأول

المدخل العلمي

تمهيد :

ما هو الشيء الذى يوفره المدخل العلمى لاولئك الذين يهتمون بمشاكل المجتمع ؟ كيف يتأتى لنا أن نحصل على معرفة يعتد بها عن تلك الجوانب من التجربة البشرية التى تؤخذ على أنها جوانب « اجتماعية » ، و « سياسية » و « اقتصادية » و « سيكلوجية » ؟ وبمزيد من التحديد ، كيف يمكن للمدخل العلمى أن يكون شيئا له قيمته فى فهم ظواهر معينة كالتضخم ، البطالة ، الادارة الديموقراطية ، البيروقراطية ، الانحراف ، تحقيق الواقع الذاتى ؟

أن اجدى السبل للاجابة على هذه التساؤلات هو أن نقوم أولا بتعريف ما هو « العلم » ثم بعد ذلك نلقى نظرة فاحصة على المدخل العلمى ، وما هى فرضياته ، وأهدافه ، وخواصه ونقارن كل هذا بالمداخل الاخرى للمعرفة . وفى هذا الفصل سنقوم أولا بتعريف العلم ثم نعقد المقارنة بين المدخل العلمى وثلاثة مداخل أخرى للمعرفة . وفى المدخل العلمى سوف نناقش فرضيات العلم ، وأهدافه ودور المنهجية فى هذا المدخل . بعدئذ سوف ننتقل الى عرض الافكار الكامنة وراء الثورات العلمية ، والاكتشافات والتقدم العلمى . أما القسم الاخير من هذا الفصل فيعرض لنموذج من نماذج عملية البحث .

ما هو العلم ؟

أن « العلم » هو ، لسوء الحظ ، شيء لا يمكن تعريفه بسهولة . فنحن نجد أن الافراد من غير المتخصصين ، والصحفيين ، وصناع القرار ، والدارسين ، بل والعلماء أنفسهم يقومون بتعريف كلمة « العلم » بطرق مختلفة ، ويستخدمونها فى سياقات ومضامين مختلفة . فالعلم ، بالنسبة للبعض ، يفيد مباشرة عمل ذو منزلة ومهابة ، وبالنسبة لبعض آخر ، فان العلم يعنى عندهم كيان من المعرفة الصادقة الصحيحة ، وبالنسبة للبعض الثالث ، فهو يعنى الفحص الموضوعى للظواهر الامبريقية .

والصعوبة الناجمة عن محاولة تعريف العلم تنشأ من الميل نحو الخلط بين مضمون العلم ومنهجيته . وعلى الرغم من أن العلم ليس له موضوع خاص بذاته يهتم به ، الا أننا لا ننظر الى كل دراسة عن الظواهر على أنها بمثابة علم . فعلم التنجيم ، مثلا ، يقوم بدراسة مواقع النجوم والاحداث المختلفة فى الحياة البشرية ثم يحاول تأسيس العلاقات بينها والتنبؤ بالظواهر المستقبلية . هذه الاهداف والانشطة لا تؤهل علم التنجيم لكى يدخل فى عداد أسرة العلوم المختلفة . بل حتى لو قامت احدى الجامعات التى لها مكانتها بانشاء قسم بها لعلم التنجيم ، وجندت له الكفاءات اللازمة ووضعت المقررات ومنحت أعلى الدرجات العلمية ، فلن يكفى كل ذلك لتأهيل التنجيم لكى يصبح نظاما علميا . والداعى لرفضنا أن يكون التنجيم علما ليس بسبب موضوعه فى حد ذاته ، بل لان الاسلوب المنهجى الذى يستخدمه المنجمون لا يعتبر اسلوبا علميا . لذلك فعندما يقوم العلم برفض فرع ما من فروع المعرفة ذات الحقائق المفترضة ، فان ذلك يكون دائما على أساس منهجيته ، والاكثر من ذلك أن قدرا كبيرا من مضمون العلم يتغير بصفة مستمرة ، فالذى يمكن اعتباره اليوم شيئا علميا ، قد يصبح غير علمى فى المستقبل . والعلم ليس بالشىء الذى يؤخذ على أنه أى كيان عام او خاص من المعرفة ، فالعلم ، لا يرتبط بالموضوع الذى يهتم به ، بل يرتبط بمنهجيته . لذلك ، ولكل هذه الاسباب ، فاننا سنستخدم كلمة العلم خلال هذا الكتاب وهى تعنى كافة أنواع المعرفة التى يتم جمعها عن طريق المنهج العلمى .

مداخل الى المعرفة :

ان كلمة علم Science مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Scientia ، والتى بدورها عن كلمة Scirs اللاتينية وهى اسم الفاعل لكلمة Siens « أن تعرف » . وعبر التاريخ . كان اكتساب المعرفة يتم عن طريق أساليب عديدة . والمدخل العلمى هو الاسلوب الوحيد على الاطلاق الذى حاول الناس عن طريقه أن يتفهموا بيئتهم وأنفسهم . ومع ذلك ، فان هناك ثلاثة أساليب عامة أخرى أدت دورها فى خدمة غرض اكتساب المعرفة : الاسلوب السلطوى ، الاسلوب الغيبى ، والاسلوب العقلانى . الفارق الرئيسى بين هذه الاساليب ، هو الطريقة التى يضفى بها كل منهم الثقة على مصدر المعرفة (أى « من » الذى يقول هذا ؟) ، وعلى « الاجراء » الذى يتم به الحصول على المعرفة (« كيف » عرفت هذا ؟) ، ثم على « التأثير » الناجم عن الحصول على المعرفة (أى « ما هو »

الفرق فيما حدث ؟) . وهنا قد يكون من المفيد أن نعرض وصفا مختصرا لهذه الاساليب لانه سيمدنا بمنظور للمقارنة عند تقديم المدخل العلمى .

الاسلوب السلطوى :

فى الاسلوب السلطوى ، يتم السعى الى المعرفة استشعارا بأولئك الذين يمكن تحديدهم من الناحية الاجتماعية أو السياسية على أنهم بمثابة مصادر مؤهلة للمعرفة . هذه المصادر قد تكون الوحى الالهى فى المجتمعات القبلية ، والمطارنة فى المجتمعات الكهنوتية ، والملوك فى المجتمعات الملكية ، والاشخاص الذين يقومون بأدوار علمية فى المجتمعات التكنوقراطية . وفى أى مجتمع ، قد تكون السلطات المختلفة هى المسعى الذى يتم اللجوء اليه كمصدر لمعرفة الظواهر المختلفة . فمثلا ، بالنسبة للكاثوليك المتدينين ، يعتبر البابا هو صاحب السلطة التى لا تناقش فى كل الامور الدينية . ومن أصحاب هذه السلطة التى لا تناقش كذلك أكاديمية العلوم السوفيتية ، التى أصدرت حكمها عام ١٩٥٠ وقررت فيه أن النظريات الاحصائية القائمة على قانون الاحتمالات هى نظريات غير علمية ، وكان هذا القرار محاولة عقيمة لحل التعارض بين حتمية المادية الجدلية ونظرية الاحتمالات . اذن ففى الاسلوب السلطوى ، يقوم الباحث عن المعرفة باضفاء خاصية القدرة على تحقيق المعرفة على السلطة الاجتماعية أو السياسية لمصدر المعرفة . أما الوسيلة التى يتوصل بها الساعى لمعرفة هذه السلطة فهى تمس طبيعة استجابة السلطة ، وليس ثقة الساعى فى الاستجابة . أكثر من هذا ، أنه على الرغم من أن التأثيرات الناجمة عن أحد بنود المعرفة التى يتم الحصول عليها بهذا الاسلوب يمكن أن تؤدى الى استبدال السلطة فى النهاية ، الا أن عددا كبيرا من نواحى التفنيد يكون مطلوبا قبل أن يحدث هذا .

الاسلوب الغيبى :

وفى الاسلوب الغيبى ، ترجى المعرفة بالتوسل الى الانبياء ، والمقدسات ، والآلهة ، والوسائط وغيرهم من أصحاب السطوة فوق الطبيعية القادرين على اعطاء المعرفة . وبهذا المفهوم ، يكون الاسلوب الغيبى شبيه بالاسلوب السلطوى ، وان اختلف عن هذا الاخير فى أنه يعتمد على المظاهر التى تفصح عنها الاشارات فوق الطبيعية وعلى الحالة النفسية والبدنية لمستهلك المعرفة .

فعلى سبيل المثال ، الطقوس التى تحيط بعملية التنبؤ عن طريق التنجيم ما هى الا طقوس تستهدف اقناع المستهلك بالقوى فوق الطبيعية للمنجم . فالاسلوب الغيبى يعتمد ، الى حد بعيد ، على القيام بتصرفات طقوسية واحتفالية حيال المستهلك ، أكثر من ذلك ، أنه تحت ظروف من الهبوط المعنوى ، والعجز ، والحذر ، يكون المستهلك للمعرفة فى أكثر حالاته رغبة فى تقبل بنود المعرفة التى تقدم عن طريق الاسلوب الغيبى . وفى هذا الاسلوب ، فان الثقة فى المعرفة التى تتحقق عن هذا الطريق تتناقص كلما ازداد عدد الحالات التى لم تثبت أو كلما تقدم المستوى التعليمى للمجتمع .

الاسلوب العقلانى :

العقلانية هى احدى المدارس الفلسفية التى ترى أن شمولية المعرفة هى شىء يمكن اكتسابه بالتمسك الشديد بأشكال وقواعد المنطق . والفرضيات التى تدخل تحت نطاق المذهب العقلانى هى أن :

١ ــ العقل البشرى يستطيع أن يدرك العالم بشكل مستقل عن الظواهر التى يمكن مشاهدتها .

٢ ــ أن أشكال المعرفة الموجودة تعتبر سابقة على وجودنا . وبتعبير آخر ، فان ما يعنى به الاسلوب العقلانى هو بما « يجب أن يكون صادقا من ناحية المبدأ » ، وبما هو ممكن وسائغ من الناحية المنطقية .

وبالنسبة للشخص العقلانى ، المنطق المجرد هو علم أساسى معيارى ، يتيح امكانية الفصل بين الافتراضات العلمية والتفكير المختل ، وطبقا للعقلانيين الكلاسيكيين ، فان أرسطو استطاع أن يكشف بشكل نهائى عن محور ارتكاز المنطق كله وبالتالى عن بناء المعرفة والحق . ولقد صرح الفيلسوف الالمانى ايمانويل كانت Immanuel Kant (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) فى حديثه عن المنطق بقوله :

« منذ ارسطو لم يعد هناك مجال لكى نخطو خطوة واحدة ، الا اذا اخترنا أن نعتبرها بمثابة تحسينات ازالة بعض جوانب التحذلق غير الضرورية أو اضافة المزيد من الوضوح فى تعريف أموره ، وكلاهما أمران يدلان على الرقة أكثر مما يدلان على الرسوخ العلمى ، بل انه من العجيب أيضا ، أنه حتى يوم

هذا ، لم يعد قادرا على التقدم خطوة واحدة الى الامام بحيث قد يبدو لكل الشواهد انه قد بلغ درجة الكمال والاتقان » .

ولقد قام « كانت » باستكمال النظرية التى تقول بأن عقولنا تضفى قالبا معينا على العالم المرئى . وهذا القالب ، من حيث المكان والزمان وبعض « التصنيفات » المعنية ، هو تعبير لسنا فى حاجة الى تقييم معناه الآن . أما الشىء الذى يعنينا هو أن ما يقول به المنطق والرياضيات هو ، على حد قول كانت ، شىء يتعلق بتجاربنا ، وهذا القول الذى يعطى المعرفة يتحقق عن طريق التعقل الذهنى البحت ، لان العقل هو الذى يطبع هذه الاشياء على الواقع .

أما المفهوم السائر بأن المعرفة موجودة مسبقا وأنها شىء مستقل عن التجربة الانسانية ، فهو مفهوم لم يتوقف بمجىء المثالية الكلاسيكية . والتجسيم المثالى للعقلانية فى العلوم الاجتماعية المعاصرة هو الرياضيات البحتة المجردة . فالرياضيات البحتة تتكون من بيانات ثابتة ومؤكدة بشكل شمولى ومستقلة عن العالم التجريبى . مثلا ، ما يقول به الجبر البحت يؤخذ به على اعتبار انه مطلق وصحيح من خلال التعريف به ، ولكن الجبر كشىء مجرد لا يقول شيئا عن الواقع ، وفرضياته عبارة عن مجرد لغو ، أى أنها صحيحة فقط بفضل اشكالها المنطقية . والشخص العقلانى المعاصر يتركز اهتمامه على الرياضيات البحتة أكثر مما يتركز على المضمون التجريبى . وعلى الرغم من أن الرياضيات البحته والمنطق الشكلى تعتبر من الادوات الهامة للمدخل العلمى ، الا أن قيمتهما بالنسبة للعلوم الاجتماعية « تتحقق فقط بقدر ما يخدمان كوسائل لتحقيق التقدم المثمر فى الامر المطلوب ، ويجب استخدامهما ، كما يجب أن تستخدم الوسائل المعقدة دائما ، فقط عندما وحيث يستطيعان توفير المساعدة ولا يعوقان التقدم » .

فرضيات العلم :

ان المدخل العلمى يقوم على أساس قاعدة من الافتراضات الاساسية التى لم يتم اثباتها وغير القابلة للاثبات . كما أنها ضروريات لا غنى عنها لسلوك المسار العلمى وتمثل تلك القضايا التى تقع فى منطقة الفلسفة العلمية التى يطلق عليها اصطلاحا « فلسفة المعرفة » Epsitemology وتتعلق بدراسة أسس المعرفة . ونحن ببحثنا لهذه الفرضيات ، نستطيع أن نفهم بشكل

أفضـــل المدخل العلمى وما يســـمى اليه من احتلال درجة التفوق على مداخل المعرفة الاخرى .

الطبيعة لها ترتيب ونظام :

الفرضية الاساسية للمدخل العلمى هى أن هناك انتظام وترتيب فى عالم الطبيعة ، فالاحداث لا تقع هكذا اتفاقا وبشكل عرضى . حتى فى حدود البيئة التى تتغير بسرعة ، من المفترض أن يكون هناك درجة من الانتظام والترتيب وان التغيير نفسه يفصح عن قوالب يمكن فهمها .

والمفهوم الخاص بالطبيعة لا يدل على وجود قوى قدرتها شاملة أو فوق طبيعية . وفى العلم ، فان الطبيعة تعنى كافة ما يمكن مشاهدته تجريبيا مـــن اشياء ، وظروف ، وظواهر موجودة بشكل مستقل عن تدخل الانســـانى وان كانت تشمل الكائن البشرى نفسه كنسق بيولوجى . وقوانين الطبيعة لا تقرر مسبقا ، بل هى تصف ، ما يحدث فعلا . أكثر من ذلك أن الانتظام والترتيب فى الطبيعة لا يستتبع بالضرورة أن يكونا متلازمان مع الظواهر . فمثـــلا ، ليس هناك سبب قهرى من الناحية المنطقية فى أن الربيع يجب أن يأتى بعد الشتاء ، والشـــتاء يعقب الخريف ، والخريف يتبع الصيف ، والصيف يجىء بعـــد الربيـــع . ولـــكن هـــذا يحدث ، وبانتظام ، وهذا الانتظام يقع تحت ظروف وظواهر مرئية ، هى المواسم .

نحن نستطيع أن نعرف الطبيعة :

أن الافتراض باننا نستطيع أن نعرف الطبيعة لا يتعدى فى امكانية اثباته عن اثبات الافتراض بأن الطبيعة تسير بشكل منظم وأن هناك قوانين للطبيعة . فهذا الافتراض يعبر عن قناعة أساسية بأن البشر ما هم الا مجرد جزء من الطبيعة مثلهم فى ذلك مثل الاشياء والحالات والظواهر الاخرى فى الطبيعة وأنه ، على الرغم من اننا نملك صفات فريدة ومميزة ، الا أننا مع ذلك نخضع للفهم والتفسير من خلال المناهج ذاتها التى ندرس بها الطبيعة . كذلك فان الافراد والظواهـــر المجتمعية تعرض لنا ما يكفى من قوالب متكررة ، ومنتظمة ويمكن مشاهدتهـــا تجريبيا بما يجعل خضوعها للاستقصاء العلمى أمرا يســـيرا . ان العقـــل البشرى ليس قادرا فقط على معرفة الطبيعة ، بل قادر على معرفة ذاته وعقول الآخرين .

المعرفة تتفوق على الجهل :

من الاشياء التى تتصل بشكل وثيق بذلك الافتراض أن فى امكاننا معرفة الطبيعة ومعرفة أنفسنا هى تلك الفكرة من أن السعى الى المعرفة يجب أن يكون من أجل المعرفـــة فى حد ذاتها ومن أجل تحقيق الكمال للظروف الانســـانية . والشرط بأن المعرفـــة تتفوق على الجهل ليس معنـــاه أن كل شىء فى الطبيعـــة يمكن معرفته او ستتم معرفتـــه . بل انه من المفترض أن المعرفـــة العلميـــة هى تجربة وتغيير . فالاشـــياء التى لم نكن نعرفهـــا فى الماضى أصبحنـــا نعرفها فى الوقت الحاضر ، كما أن معرفتنـــا الراهنـــة ربما تتعدل فى المستقبل . فالصدق فى العلم هو مســـألة نسبية من حيث البرهـــان والمناهج والنظريـــــات المســـتخدمة .

والمنازعـــة فى ان المعرفـــة النسبية تتفوق على الجهل تتعارض على خط مستقيم مع الايديولوجيات القائمة على الحقيقة المطلقـــة . وعلى حـــد قول كل من « جيديون جوبيرج » " Gieleon Sjoberg "«وروجرنيت» Roger Nett من المؤكـــد ان الفكرة المثالية بأن العـــزة والكرامة البشريـــة تزداد قيمتهـــا عندما يكون الانســـان قلقـــا ، متســـائلا ، و « ذو روح باحثة » هى فكـــرة تتصارع مع صنوف من الانســـاق الخاصـــة بالمعتقـــدات التى تجاهـــــد للوصول الى نســـق مغلق ، نســـق قائـــم على الحقيقـــة المطلقـــة ، وتاريخ العلم الحديث وتصادفـــه مع الانســـاق المصنفـــة يحمل شـــهادة تؤيـــــد هذا الافتراض » . والمؤمنون بحـــق« يعرفون » بالفعل كل ما يمكن معرفته . . والمعرفـــة العلمية تهـــدد السبل القديمة لفعل الاشـــياء ، وهى مفســـدة للســـكينة ، وللثبات ، وللحالة الراهنـــة . وبالمقابـــل ، المدخـــل العلمى فى امكانـــه فقط أن يعطى صدقـــا تجريبيـــا ، أى نسبى لحالة المعرفة القائمة . وها هما كل من جانبى القـــوة والضعف فى المدخل العلمى .

انه قـــوة بمعنى أن الانسان الرشيد ســـوف يعمل على المـــدى الطويـــل على تصحيح اخطائـــه . وهو ضعف فى أن العلمـــاء ، وهم غير واثقين تماما من صحة تأكيداتهم الخاصة كمـــا هو الامـــر بالنسبة لعامة الناس ، قد ينقلبون على يـــدى أصحاب الفكر المطلق ، فى تلك الفتـــرات المتكررة التى تهدد فيهـــا الازمـــات الاجتماعية امن الناس . وغالبـــا ما يقف العلم عاجزا بصفة مؤقتـــة عندما تهب على حصونـــة عواصف الحماســـة وغيره المنادين بالانســـــاق المطلقة للمعتقـــدات .

جميع الظواهر الطبيعية لها أسباب طبيعية :

ان الفرضية التى تقول بأن كافة الظواهر الطبيعية لها أسباب طبيعية ، تلخص فى طياتها الثورة العلمية . فهذه الفرضية قد وضعت المدخل العلمى فى مواجهة العقيدة الدينية المتطرفة ، من ناحية ، والروحانية والسحر ، من ناحية أخرى . وهذه الفرضية تعنى أن الاحداث الطبيعية تكمن وراءها أسباب طبيعية أولها مقدمات سالفة . وهى ترفض الفرضية المضادة بأن هناك قوى أخرى غير تلك الموجودة فى الطبيعة تعمل كسبب فى وقوع الاحداث الطبيعية . بل ان العلماء ، والى أن يستطيعوا تعليل الظواهر فى اطارها الطبيعى ، يرفضون الحجة بأن وجود بعض التفسيرات فوق الطبيعية هو شيء طبيعى . والوظيفة الاساسية لهذه الفرضية هى توجيه البحث العلمى بعيدا عن قوى فوق الطبيعية القادرة على كل شيء وصرفها نحو عوامل الانتظامية والنظام التى تكمن تحت الظواهر الطبيعية . وبمجرد أن يتم تعريف حدودها ، فان هذه العوامل الانتظامية تستطيع أن تكون بمثابة دليل على العلاقات بين العلة والمعلول .

ليس هناك شيء واضح بذاته :

المعرفة العلمية ليست بالشيء الذى يتضح بذاته ، فالسعى نحو الحقيقة لابد من اظهاره بشكل موضوعى . لان التقليد ، والمعتقدات الذاتية ، وحسن الفهم هى عناصر لا يمكن قصر الاعتماد عليها للتحقق من المعرفة العلمية . فاحتمالات الخطأ دائما موجودة ، وأبسط المفاهيم تدعو للتحقق الموضوعى . لذلك ، فليس من باب المصادفة أن يكون التفكير العلمى سمته الشك والنقد .

المعرفة نابعة من نيل واكتساب التجربة :

اذا كان للعلم أن يخبرنا بشيء ما عن العالم الحقيقى فلابد له ان يكون علميا « تجريبيا » ، أى عليه أن يعتمد على المدركات ، والتجربة ، والمشاهدات . فالادراك عقدة وأساس جوهرى للمدخل العلمى ، ويتحقق عن طريق حواسنا : « ان العلم يفترض أن تحقق رابطة اتصال بين الانسان والكون الخارجى شيء يتم من خلال حواسه وانطباعاته الخاصة .

فالمعرفة هى نتاج لتجارب الشخص الذاتية ، بمثل أوجه لامعة لدنيا العالم المادى ، والبيولوجى ، والاجتماعى تلعب على حواسنا وتخدعها » .

وهذه الفرضية لا يجب تفسيرها فى حدود التعريف الضيق للحواس الخمس ، اللمس ، والشم ، والتذوق ، والسمع ، والنظر ، فالكثير من الظواهر لا يمكن اختبارها أو مشاهدتها مباشرة . فالمشاهدة لا « تؤخذ مباشرة » فى الحال ، أو تنفصل كلية عن شرط الحدود العلمية والمفاهيم ، والنظريات . وطبقا لقول الفيلسوف البريطانى « السير كارل بوبر » Karl Popper صاحب الفلسفة العلمية :

« ان الشخص التجريبى الساذج ... يعتقد أننا نبدأ بجمع وترتيب خبراتنا ، وبهذا نبدأ الصعود على سلم العلم ... ولكننى اذا ما أمرت : « سجل ما تمارسه من تجربة » فسوف يكون من الصعب على أن أعرف كيف أطيع هذا الامر الغامض . فهل على أن أقول بأننى أكتب ، أو أننى اسمع جرسا يدق ، أو بائع الصحف يصيح ، أو مكبر الصوت يئز بصوته ، أم يكون على أن قول ، ربما ، ن هذه الاصوات تثيرنى ؟ ... ان العلم يحتاج الى وجهات نظر ، ووسائل نظرية » .

بعد ذلك ، هناك شىء آخر ، من ناحية المنظور التاريخى ، وهو بأن المعرفة العلمية يجب أن تقوم على المشاهدات التجريبية كانت رد فعل ضد الاعتقاد بأن المعرفة هى شىء فطرى فى البشر أو أن « التعقل الذهنى البحت » وحده يكفى لخلق معرفة محققة .

مستهدفات العلوم الاجتماعية :

بعد أن قمنا بعرض وايضاح الفرضيات التى يطرحها العلم ، أصبحنا الآن فى وضع يمكننا من توجيه السؤال الذى أثير من قبل : ما هو الشىء الذى يوفره العلم لاولئك الذين يهتمون بالمسائل الخاصة بالمجتمع ؟ ان الهدف النهائى للعلوم الاجتماعية هو أن يثمر عن كيان متراكم من المعرفة التى يعتد بها . هذه المعرفة تمكننا من « تفسير » و « التنبؤ » و « فهم » الظواهر التجريبية التى تثير اهتمامنا . أكثر من هذا ، أن

كيانا من المعرفة يعتد به ، يمكن استخدامه لاصلاح وتحسين الظروف البشرية . ولكن ماذا تكون التفسيرات العلمية ؟ ومتى نستطيع أن نقوم بعمليات التنبؤ ؟ ومتى يسوغ لنا الحق فى الادعاء بأننا نفهم الظواهر التجريبية ؟

التفسير العلمى :

لو تساءلنا عن السبب فى ان جوانب الانفاق الحكومى بالنسبة للفرد فى السويد أعلى منها فى الولايات المتحدة ، ربما قد يجيب بعض الافراد قائلين ، لان « شعب السويد يرد من حكومته أن تزيد من انفاقها » . مثل هذا التفسير قد يرضى الاشخاص العاديون ، ولكنه لن يرضى علماء الاجتماع مالم يستطيعوا استخدام منطق التفكير نفسه فى جوانب الانفاق الحكومية بالنسبة للفرد فى الانساق السياسية الاخرى . ولو نظرنا فى الواقع الى الانفاق الحكومى بالنسبة للفرد فى بريطانيا لوجدنا انه قد تناقص منذ أن فاز حزب المحافظين بالانتخابات العامة ، وذلك على الرغم من أن معظم البريطانيون كانوا يرغبون من حكومتهم أن تزيد من انفاقها .

والعلوم الاجتماعية تهدف الى توفير تفسيرات عامة عن التساؤلات التى تتعلق بـ « لماذا ؟ » . فعندما يسعى علماء الاجتماع الى طلب تفسير عن السبب فى حدوث احدى الظواهر المعنية ، فهم يلتمسون الوصول الى تحليل نسقى وتجريبى لتلك العناصر السابقة فى الموقف المعين وتعتبر مسئولة عن وقوع الظاهرة .

ومنذ « دافيد هوم » David Hume ، كان مثل هذا التطبيق لكلمة « تفسير » يؤخذ فى التقدير على انه أمر يتعلق بارجاع الظاهرة لكى يتم تفسيرها بالظواهر الاخرى من منطلق « القوانين العامة » . فالقوانين العامة تضع الاطار الذى يمكن من خلاله الحصول على تفسير معين . وكما جاء فى كلمات ريتشارد بريثويث Richard Braithwaite

> « ان وظيفة العلم .. هى وضع القوانين العامة
> التى تغطى سلوك الاحداث أو الاغراض التجريبية
> التى يعنى بها العالم صاحب الشأن ، ومن ثم يمكننا
> من ربط معلوماتنا عن الاحداث المعروفة التى تقع

بشكل منفصل ، ويتيح التنبؤ بشكل موثوق بالاحداث غير المعروفة حتى الآن . . . فاذا كان العلم فى حالة من التطور البالغ . . فان القوانين التى تم وضعها سوف تشكل هيكلا نظاميا تبدو فيه القوانين الخاصة كسلسلة منطقية متتالية لعدد صغير من القوانين على درجة عالية من العمومية . . . أما اذا كان العلم مازال فى مرحلة مبكرة من التطور . . . فان القوانين قد تكون هى فقط مجرد التعميمات المتضمنة فى تصنيف الاشياء الى مراتب متعددة » .

ان النظم العلمية وهى تعمل على تحقيق التقدم ، فان أشكالها فى التفسير تتغير . ولقد استطاع « كارل هيمبل » Karl Hempel أن يضع تمييزا له أهميته بين نمطين أساسيين من أنماط التفسير : التفسير « الاستدلالى » والتفسير « الاحتمالى » . ولقد اعتمد التصنيف على أنواع التعميمات التى يستخدمها التفسير .

التفسيرات الاستدلالية :

ان التفسير الاستدلالى يدعو الى التعميم الشامل ، وتبيان الظروف التى يصدق التعميم تحت ظلها ، وحادث يتم تفسير ، وقواعد المنطق الشكلى . وفى التفسير الاستدلالى ، يتم تفسير الظاهرة باظهار أنه من الممكن الاستدلال عليها من خلال قانون عام ثابت . فمثلا ، التفسير الذى يقدمه عالم الطبيعة لعودة شىء ما الى الارض بعد قذفه فى الهواء ، هو تفسير يمكن اسناده لقانون الجاذبية . وسوف يشير العالم الى أن « جميع » الاشياء ، اذا ما استخدم كل منها جاذبيته على الآخر ، اذن يكون من المتوقع ان أى شىء معين سوف يسلك نفس الطريقة استشهادا بالارض . فالسمة الجوهرية المميزة للقانون الشامل مفادها أنه يحتوى جميع الحالات التى تقع فى اطار الطائفة التى ينطبق عليها ـ فى الزمن الحاضر ، والماضى ، والمستقبل .

التفسيرات الاحتمالية :

ليست كل التفسيرات العلمية قائمة على قوانين تأخذ الشكل الشامل . لذلك اذا قلنا مثلا أن هناك زيادة معينة فى النفقات الحكومية للولايات

المتحدة ، فذلك يمكن تفسيره بالقول أن ذلك قد حدث استجابة لظروف اقتصادية معاكسة وان النفقات الحكومية فى الماضى كان مرجعها وقوع ظروف اقتصادية قاسية . هذا التفسير يربط تفسير الظاهرة بحادث وقع من قبل ـ وهو ظروف الدولة الاقتصادية . وهذه الاخيرة قد طرحت لكى تعطى التفسير لان هنساك صلة بين الظروف الاقتصادية والنفقات الحكومية . ومع ذلك ، فان هذه الصلة لا يمكن التعبير عنها بواسطة قانون له الشكل الشامل لانه ليست كل حالة من الظروف الاقتصادية المعاكسة تستوجب زيادة فى النفقات الحكومية . أما ما يمكن القول به هو فقط أن هناك احتمال كبير في أن الظروف الاقتصادية القاسية سوف تدعو الى زيادة النفقات الحكومية أو انه فى نسبة عالية من جميع الحالات التى تم استقصاؤها أدت الظروف الاقتصادية القاسية الى فرض زيادات فى النفقات الحكومية . ومن هنا ، فالتفسيرات العامة من هذا النمط يشار اليها بأنها تفسيرات « احتمالية » أو « استقرائية » ، وهى تنبع من تعميمات احتمالية . وبتعبير آخر ، فان التفسير الاحتمالى يستفيد من التعميمات التى تعبر عن نسبة حسابية بين الظواهر او التعميمات التى تعبر عن اتجاهات . واذا أخذنا مثلا على ذلك ، يمكن أن نقول أن تعميم الاحتمال يمكن أن يأخذ الشكل « نسبة N من X هى "Y" » ، أو أن « X تتجه لكى تكون "Y" » .

والقيد الاساسى على التعميمات الاحتمالية ، بالمقارنة مع القوانين الشاملة ، هو انه لا يمكن استخلاص نتائج معينة فيما يتعلق بوحدة معينة (كفرد ، جماعة ، مجتمع ، حكومة ، حادث) من خواص المجموعة كلها التى تقع فيها هذه الوحدة . فاذا ما حدث مثلا ، وعرف المرء أن ٧٠ فى المائة من أعضاء احدى الجماعات العرقية قاموا بالتصويت للحزب الديموقراطى طوال العشرين الماضية ، فلن يستطيع الانسان رغم ذلك أن يستخلص بثقة أن احتمال أن كون عضوا معينا من الجماعة قد صوت للديموقراطيين هو احتمال ٧/١٠ . كذلك ، فان هناك عوامل أخرى ، بجانب العضوية فى الجماعة المعينة التى يصدق عليها التعميم ، قد تؤثر على السلوك موضع الاهتمام . فذلك الشخص المعين ، قد يكون أيضا عضو فى جماعة اجتماعية لها تقليد طويل من ناحية الميول السياسية الجمهورية ، فهذا الامر ، بدوره ، قد يزيد من أهمية تأثير هوية الشخص العرقية .

التنبــــؤ :

ان التفسيرات ، الاستدلاليــة والاحتمالية تشــكلان مكونــا واحــــدا هاما من مكونات المعرفة العلمية . أما التنبــؤ فيشــكل المكون الآخر . وفى حقيقة الامــر ، فان القــدرة على الاتيان بالتنبؤات الصحيحة يمكن النظر اليها على أنها بمثابة الصفــة الاولى للتعرف على ما هــو العلم : « اذا ما عــرف المــرء ان شيئا ما هو شىء صحيح ، فهو عنــدئذ يكون فى وضــع يمكنه من التنبــؤ ، وحيث يكون التنبؤ عمليــة مستحيلة ، فلن تكون هناك معرفــة » . فعلى سبيل المثال اذا عرف الشخص أن حاصــل ضرب ٢ × ٦ = ١٢ فهو عندئذ يســتطيع ان يتنبأ بحاصــل مجموعتين مكونتين من ســتة اشــياء . واذا كان المــرء يعرف أن نقطــة تجمد المــاء هى ٣٢م فهرنهيت أو الدرجة المئويــة صفــر ، فهو عندئــذ يســتطيع التنبؤ بما ســوف يحدث لسيارته اذا لم يتم استخدام طريقــة لمنــع تجمد المــاء فى جهــاز تبريد الســيارة فى موســم الصقيــع . واذا كان اللانســان يعرف أن الحكومــات تزيد من انفاقهــا فى حالات الانحسار الاقتصادى ، حينئذ يمكنه التنبؤ بان الانحسار فى عام ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥ (وحالات الانحسار المقبلة) سوف تستدعى زيادة النفقات الحكومية . وكذلك اذا ما كان المرء يعرف أن برامج القــوى البشريــة تحل مشــاكل البطالــة ، فهو عندئــذ يكــون فى وضــع يمكنه من التنبؤ بأن معــدلات البطــالة الحاليــة مؤقتــة وان البطالة لخليقة بأن تزول .

اذن ، فالتوقــع بأن المعرفــة العلمية لابد ان تؤدى الى تنبــؤات دقيقة ، هو توقــع قائــم على ثبات الحجة بأنه « اذا » كان من المعروف أن (x) تتسبب فى حدوث (Y) وأن (x) شىء موجــود ، ، « عندئــذ » يمكن التنبؤ بأن (Y) سوف يحدث . ويدخل تحت هذه الحجة الافتراض بأنه اذا كان أحــد القوانين الشــاملة أو احــد التعميمات الاحتماليــة « كلاهما » معــروف وصادق ــ أى أن الحالات التى وقعت سالفا تكفى للتنبــؤ بنتيجة ما سيحدث ــ عندئــذ ســوف تكون الاسباب الوحيدة للاخفاق فى التنبؤ هى : (١) أن القانون أو التعميم لم يكن صادقــا ، او (٢) أن الادراك للحالات التى وقعت من قبــل لم يتم بشــكل صحيح . ومن هذا ، لو قلنــا مثلا ، أن مشــكلة البطالــة اذا ما بقيت دون حل ، فهذا يرجــع ، أما لان التعميم بأن برامج القــوى البشرية تحل مشــاكل البطالة هو تعميم غير صــادق واما لان الانشــــطة التى استهدفت حل مشــكلة البطالة كان الادراك لها خاطىء وغير صحيح كما حدث بالنسبة لبرامج القوى البشرية .

ونحن لو استرجعنا أسلوب الاستدلال فى التفسير ، نستطيع أن نرى أن عملية التنبؤ هى ، من الناحية المنطقية ، « عكس » عملية التفسير . فالمشاهدات السابقة ليست أكثر من مجرد تسجيل للحقيقية بأن ظروف الحالات الاولية ما زالت موجودة . كما أن القوانين الشاملة أو التعميمات الاحتمالية لا تستخدم الا لتبرير التنبؤ بأنه اذا كانت ظروف الحالات الاولية ما زالت موجوده ، فلابد عندئذ من أن تتبعها النتيجة المترتبة على ذلك .

والآن ، يمكن لنا هنا أن نقوم بتوضيح البناء المنطقى للتفسيرات والتنبؤات العلمية . ان هذا البناء يتكون من الاجزاء التالية :

١ ـ العبارة « هـ » تقوم بوصف الظواهر أو الحدث المحدد المطلوب تفسيره .

٢ ـ مجموعة من العبارات من $أ_1$ الى أن تقوم بوصف حالات محددة متعلقة بالامر وسابقة على ، أو تتصل من الناحية السببية ، بالظاهرة التى تصفها « هـ » .

٣ ـ مجموعة من القوانين الشاملة أو التعميمات الاحتمالية من $ل_1$ الى لن تقرر أنه « حينما تقع أحداث من النوع الذى تطلق عليه الاوصاف من $أ_1$ الى أن ، عندئذ يقع حدث من النوع الذى تصفه العبارة « هـ » .

ولكى يكون فى قدرة هذه الاجزاء الثلاث أن تشكل تفسيرا للحدث أو للظاهرة ، فلابد لهما من أن تستوفى على الاقل شرطين :

١ ـ أنه لابد من الاستدلال على العبارة « هـ » واستخراجها من العبارات أ و ل معا ، لكن ليس من مجموعة أيهما فقط .

٢ ـ أن العبارات أ و ل لابد أن تكون صادقة .

ولو أخذنا شكلا رمزيا للبناء المنطقى للتفسيرات والتنبؤات العلمية ، فسوف يبدو كالتالى :

$ل_1$ .... ، لن
$أ_1$ .... ، أن

وبالتالى هـ

ويعتبر البناء المنطقى لكل من التفسير والتنبؤ هو البناء ذاته ، والفارق الوحيد بينهما هو التميز الزمنى للعالم . ففى حالة التفسير ، يعتبر الحدث « هـ » حادث ماض بالنسبة لنقطة التميز الزمنية للعالم فى الوقت الحاضر ، ولذلك فهو يسعى للتفسير الملائم من ل و أ حتى يمكن الاستدلال عليه واستخراجه ، أما فى حالة التنبؤ ، فالعالم يكون لديه بالفعل تفسيرات ل و أ ، وكل ما يسعى اليه هو حادث ما ينطبق عليه التفسير السابق .

حاسة الفهم :

المكون الثالث للمعرفة العلمية الاجتماعية هو حاسة الفهم . ومعنى كلمة « الفهم » لم يتم الاتفاق عليه حتى الآن ، وهو يستخدم بمفهومين شديدى الاختلاف ـ الفهم الذى يطلق عليه Verstehen (أو فهم التعاطف الذى يندمج فيه ذهن شخص مع شخص آخر) وفهم التنبؤ . ولقد نشأ هذا الاختلاف فى الاستخدام من حقيقة أن العلوم الاجتماعية هى فى وقت واحد علوم انسانية وعلمية ، وأن علماء الاجتماع بقدر ما هم مشاهدون فهم يسهمون فى شأن الموضوع الخاص بنظمهم . وعلى حد تعبير كلمات هانزيتربرج Hans Zetterberg :

> « ان الرموز هى المادة التى تصنع منها الثقافات والمجتمعات ... فمثلا ، التسلسل لمفهوم الميلاد ، الرعاية ، الفطام هو تسلسل يمثل الحقيقة « البيولوجية » للامومة والابوة . ولكن عند تحليل الامومة والابوة من الناحية البشرية فنحن نجد أن هناك ، بالاضافة الى الحقيقة البيولوجية جمعا من الرموز يتناول ، ترخيصا بانجاب الاطفال ، مسئوليات خاصة برعايتهم وتعليمهم ، حقوقا لاتخاذ بعض القرارات نيابة عنهم ، التزامات بتنشئتهم بطقوس اجتماعية معينة ... وبهذا تتضمن لغتنا مصطلحات لماهية الوالدين ولما سوف يفعلاه ولما سيتم اتخاذه حيالهما ، وكل هذه الجمل فى لغتنا تمثل الحقيقة « الاجتماعية » للامومة والابوة . فالحقيقة الاجتماعية فى هذه الحالة كما هى فى حالات اخرى ، تشتمل على رموز » .

ولكن ، هل الرموز والسلوك الانسانى ، ضمنيا ، يسهل خضوعهما للبحث وفقا لنفس المنهجية العلمية التى تستخدم فى العلوم الطبيعية ؟ هل الموضوع الذى تنصب عليه العلوم الاجتماعية قد بلغ من التعقيد والتميز الى الدرجة التي تستوجب استظهار منهجية علمية فريدة به ؟ هل يتوجب على علماء الاجتماع ، بعكس علماء الطبيعة ، أن « يسبروا غور » الموضوع الخاص بهم لكى يستطيعوا فهمه ؟

تقليد التعاطف : (Verstehen)

وفقا لتقليد الـ Verstehen (الكلمة الالمانية بمعنى التعاطف) ، تعتبر العلوم الطبيعية والاجتماعية من الكيانات المتمايزة للمعرفة وذلك بسبب التباعد فى طبيعة موضوعاتهما . ومن هذه الفرضية نبعت الحجة بأن على علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع أن يستخدموا مناهج مختلفة فى عملية البحث . مثلا ، عالم الاجتماع لابد له من أن يكون على دراية بكل من الابعاد التاريخية للسلوك البشرى والجوانب المادية للتجربة الانسانية . ولقد قال عالم الاجتماعى الالمانى ماكس ويبر Mex Weber (١٨٦٤ — ١٩٣٠) فى هذا الامر انه اذا ما كان على علماء الاجتماع أن يفهموا سلوك الافراد والجماعات ، لوجب عليهم ان يتعلموا أن « يضعوا أنفسهم مكان الشخص موضع البحث » . فلابد لهم من أن يكتسبوا نوعا ما من الفهم لوجهة نظر الشخص الآخر عن الواقع : ما هى رموزه ، وقيمه ، ومواقفه .

وفى فترة أخيرة ، برز مدخل جديد هو « التفاعل الرمزى » انطلاقا من تقليد الـ Verstehen . وقد عمل « هربرت بلومر » Herbert Blumer أحد المنادين بهذا المدخل ، على مساندة الراى الذى يقول أن موضوع ، وبالتالى بناء المنتج العلمى فى مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية يختلف بينهما بشدة . وبلومر يؤكد ، ليس فقط على العنصر الشخصى فى السلوك البشرى بل يؤكد أيضا على عنصر الخلق المتطور لـ « الفعل الاجتماعى » . فهو يرى أن الافراد يقومون بصفة مستمرة على اعادة صنع بيئتهم الاجتماعية ، فالنظام الاجتماعى هو على الدوام فى حالة من التكون ، وبناء عليه فان العلماء لا يمكنهم فرض تفسيرات أو تنبؤات ثابتة وجامدة على عالم اجتماعى يتغير بصفة دائمة .

الفهم القائم على التنبؤ :

وبعكس الذين يأخذون بتقليد الـ Verstehen ، فان أصحاب الفكر « التجريبي المنطقي » يتخذون موقفا يؤمنون بمقتضاه أن علماء الاجتماع في استطاعتهم الحصول على المعرفة الموضوعية من دراسة كل من عالم الطبيعة وعالم الاجتماع . فكلا العلمين ، علم الطبيعة وعلم الاجتماع ، يخضعان للبحث لمنهجية علمية واحدة . كما أن أصحاب الفكر التجريبي المنطقي لا يؤمنون بأن الفهم القائم على التعاطف قد يساعد كوسيلة مفيدة لعملية الاكتشاف ، لان الاكتشافات يجب اثباتها والتحقق منها اذا ما كان تأخذ وضعا متكاملا مع الكيان العلمي للمعرفة . (لقد تمت مناقشة فكرة وضع الاكتشاف « مقابل » الاثبات بمزيد من التفصيل في مكان لاحق من هذا الفصل) .

الدور الذى تقوم به المنهجية :

ان العلم لا يتقيد بالموضوع الذى يدور حوله ولكنه يتقيد بمنهجيته . فالشيء الذى يجعل المدخل العلمي في وضع منفصل عن السبل الاخرى للحصول على المعرفة ؛ هو الفرضيات التي يقوم عليها والمنهجية التي يأخذ بها .

فالمنهجية العلمية هي نسق من القواعد والاجراءات الواضحة التي يعتمد عليها طريق البحث ويقيم وفقا لها المسعى من أجل المعرفة . وهذا النسق لا هو بالنسق المغلق ولاهو بالمنزه عن الخطأ . بل يتم ادخال التحسينات بصفة دائمة على القواعد والاجراءات ؛ فالعلماء يبحثون دائما عن المناهج والاساليب الفنية الجديدة للمشاهدة والاستدلال والتعميم والتحليل . وبمجرد تطور هذه الاشياء ويثبت تطابقها مع الفرضيات الواردة بالمدخل العلمي ، يتم ادماجها في نسق القواعد التي تكون أسلوب المنهجية العلمية . فالمنهجية العلمية ، أولا وقبل كل شيء تقوم بتصحيح نفسها .

> « ان العلم لا يرغب في الحصول على قناعة أحد بفروضه « بأي » ثمن . فالفرض لابد أن يسانده دليل مقبول منطقيا ، دليل لابد أن يوزن بعناية ويخضع لاختبار قوانين وقواعد الاستدلال الضرورية

والمحتملة المعروفـــة جيـدا . ويستتبع هـذا أن « منهج » العلم يعتبر أكثر استقرارا ، وأكثر أهمية لرجال العلم ، من أى نتيجـة معينـة يحققها بوسـائله .. ويفضل هذا المنهج ، يعتبر المشروع العلمى عمليـة تقوم بتصحيح نفسـها . وهو لا يلجـأ الى أى رؤيـا أو حجـة خاصـة لا يمـكن مناقشـة ما تؤتى بـه واعتباره شيئا نهائيـا . كما أنـه لا يدعى بشىء منزه عن الخطـأ ، بل يعتمد على مناهج الكشـف والاختبار للفروض النظريـة للتوصـل للنتائـج المؤكـدة الموثوق بها . حتى قوانين وقواعد التحقق والاستقصاء نفسها يتم اكتشافها خلال عملية التأمـل والتفـكير ؛ وقـد تصبح هى نفسـها خاضعة للتعديل خـلال عمليـة الدراسـة . فالمنهج يجعل من الممكن ملاحظـة وتصحيح الاخطـاء بالتطبيق المستمر لـه » .

وبالنسبة للمنهجية التى تسلكها العلوم الاجتماعيـة فقد نشـأت وتطورت من خلال عمليـة بطيئة للنمو . وفى هذه العمليـة قـام النقـد دائما بأداء وظيفـة لكافـة . ومن خلال عملية التبادل والاحلال المستمرة للافكار والمعلومات صار من الممكن صياغـة قواعـد واجـراءات مقبولة بشـكل عام واستظهار مناهج واساليب فنيـة تتفق معهـا . هذا النسـق من القواعـد والاجراءات هو الذى يكون العنصر « المعيارى » للمنهجيـة العلميـة . فهـو يحـدد « قواعـد اللعبة » ، وهذه القواعـد بدورهـا ؛ تحقق امكانية الاتصال . والنقـد البنـاء ، والتقدم العلمى .

المنهجيـة كقاعدة ونظام للاتصال :

فى القصة التاليـة ، يرسم لنا اناتول رابوبورت Anatol Rapoport مشكلة الاتصال لتى تنشـأ بشكل عام بين شخصين ليس بينهما تجربة مشتركة :

« سأل رجل ضرير أحـد الناس أن يفسر لـه معنى كلمـة « أبيض » فـكان الـرد « الابيض هـو لـون ، كلـون الجليـد شـلا » . فقال الرجل الضرير « لقد فهمت ، انـه لون بارد ورطب » فرد الآخـر « كـلا ، ليس من الضرورى أن يكون باردا ورطبـا . أتـرك الجليـد ، الورق ، مثلا ، لونـه أبيض » . فتساءل الضرير « اذن ! فهـو هش ؟ »

فرد الرجل « فى الواقع لا ، فليس من الضرورى أن يكون هشـا ، بل هو مثل فـراء الارنب » فتساءل الضرير مستفسرا « اذن فهو لون ناعم كثير الوبـر ؟ » فرد الرجل « ليس من الضرورى أن يكون ناعمـا ، خـذ الصينى فهو أبيض اللون كذلك » فقال الضرير « اذن ، فهو لون قـد يكون قابـلا للكسر » .

ان احدى الوظائف الرئيسية للمنهجية هى أن تيسر عملية الاتصال بين العلماء الذين يشاركون أو يرغبون المشاركة فى احـدى الخبرات المشتركة . كذلك ، أنه يجعل قواعد المنهجية مسألة واضحة ، وعامة ، وسهلة المنـال . يكون الاطار من أجل نقد بناء يعيد تكرار التجربة قد اتضح . وتكرار التجربة . أى تكرار نفس عملية البحث والاستقصاء تماما بنفس الطريقة ، اما بواسـطة العالم نفسه أو بواسطة علماء آخرين ، هى بمثابة درع الامان ضد الخطأ أو الخداع غير المقصود . والنقد البناء يعنى أن المرء بمجرد أن يعمل فى سـبيل المعرفة ، يصبح فى امكاننا أن نسأل مثل هذه التساؤلات : « هل التفسـير (التنبـؤ) ينبـع منطقيـا من الفرضيـات ؟ » « هل المشاهدات صحيحة ؟ » « ما هى المناهج التى استخدمت فى المشاهدة ؟ » ، « هل كانت عملية الاختبار صالحة وسليمة ؟ » ، « ألم تتدخل عوامل أخرى فى استخلاص النتائج ؟ » . « ألا يجب أخذ النتائج على أنها دليل على أن تفسيرا آخر هو تفسير صحيح ؟ » ، مثل هذه التساؤلات ، سوف نرى فى أنحاء الكتاب أنها تشكل المعايير اللازمة لتقويم المساعى من أجل المعرفة العلمية .

المنهجية كقاعدة ونظام للتفكر العقلى :

على الرغم من أن المشاهدات التجريبية تعتبر شيئا جوهريا وأساسيا للمدخل العلمى ، الا أنها يجب أن تكون متصلة وملتئمة فى بناءات نسقية ومنطقية . فالمشاهدات أو الحقائق التجريبية لا « تتحدث عن نفسها » . والمنهجية العلمية هى التى تبسط وتوضح الاسس المنطقية للمعرفة المتفكرة . وأكثر أدوات المدخل العلمى ضرورة ، بجانب المشاهدات المرتبطة بالحقائق ، هو المنطق ـ هـذا النسق الخاص بالتعقل الفكرى السليم حول المشاهدات المرتبطة بالحقـائق والذى يسمح باستخلاص الاستدلالات الموثوق بها منها . كما أن المنطق ، مثله مثل الدراسة الخاصة بأسس ومبادىء التعقل الفكرى ، يعتبر من الاهميـة والحسم للمدخل العلمى حتى أن العلم الخاص بكثير من الموضوعات يسمى منطقها كما يحدث على سبيل المثال فى البيو « لوجى » ، أنثروبو « لوجى » ، سوسيو « لوجى » ، كريمينو « لوجى » ، جيو « لوجى » ، و هكذا .

والمنهجية العلمية شيء يتطلب الكفاية والاقتدار عند التفكير والتحليل المنطقى . ولذلك ، فان قواعد التصنيف والتعريف ، وأشكال الاستنباط الاستدلالى والاحتمالى (الاستقرائى) ، والنظريات الخاصة بالاحتمالات ، واجراءات تحديد العينة ، وأنساق الحساب ، وقواعد القياس ، تشكل كلها الادوات المنهجية اللازمة التى يستخدمها عالم الاجتماع . بجانب هذا ، انه من خلال استخدام المنطق فان العلم يتقدم بطريقة نسقية اكثر منها عفوية ، كما أن الكيان العلمى للمعرفة هو نفسه كيان نسقى . ولذلك ، فان الاجراءات المنطقية الملازمة للمنهجية العلمية تأخذ شكل سلسلة من الاجراءات المتلاحمة بشدة والتى تساند بعضها بعضا أو ، على الاقل ، التى لا يناقض أحدها الآخر . وبهذه الوسيلة تعمل المنهجية العلمية على الارتفاع بقدر التماسك الداخلى للمطالب من أجل المعرفة التجريبية .

المنهجية كقاعدة للذاتية الداخلية :

أن موضع اهتمام المنطق هو التفكر العقلى الصحيح وليس الحقيقة التجريبية أو الحقائق المؤكدة . فالحقيقة هى اما مؤكدة الصدق أو محتملة الصدق عندما يتوافر الدليل الموضوعى الذى يدعمها . ولكن من ناحية أخرى ، المطلب فى سبيل المعرفة يكون صحيحا عندما تنبع النتيجة المستخلصة بالضرورة من الفرضيات الموضوعة أصلا . وبهذا الشكل ، يكون فى امكان العلماء الوصول الى استقراء خاطىء من الحقائق المؤكدة (قرائن الصدق) اذا ما كان تفكيرهم خاطىء . ولكنهم أيضا وبنفس البساطة يستطيعون الوصول الى احدى الاستقراءات الخاطئة بالتفكر الصحيح (التعقل الفكرى الصحيح من الناحية المنطقية) اذا لم يستخدموا الحقائق المؤكدة : « ان صدق التأكيد يتصل بالتجربة ، وصلاحية التأكيد تتصل بتماسكه الداخلى أو بتماسكه مع مؤكدات أخرى » .

ولنسترجع هنا ما ناقشناه فى الجزء الاخير عن أشكال التفسيرات الاستدلالية والاحتمالية (التنبؤات) ، فيتضح الآن أنها تنسب فقط الى عملية التعقل الفكرى الصحيح منطقيا . فصلاحية نتائجها المستخلصة تنبع مباشرة من فرضياتها الموضوعة سلفا . كما أن صدقها لا يمكن اقراره أو التحقق منه فقط بناءا على الإسس المنطقية وحدها ، فالحقيقة لابد من التحقق منها بالدليل الموضوعى . وكما توضحه عملية القياس المنطقية التالية ، فان التمسك الشديد بالتفكير المنطقى دون دراسة للحقائق الموضوعية يمكن أن يؤدى الى نتائج سخيفة :

جميع البشر هم كيانات تدفعها القوة .

جميع الكيانات التى تدفعها القوة هى كيانات مدمرة .

« وبالتالى » : فان جميع البشر مدمرون .

اذن ، فالمنهجية العلمية تقوم بايضاح « المعايير المقبولة » للموضوعية التجريبية (الصدق) والمناهج والاساليب الفنية التى تستخدم من أجل التحقق والاثبات . وهذان الاثنان يعتمدان على بعضهما بدرجة كبيرة : فالموضوعية التجريبية تعتمد على التحقق والاثبات بتلك الدرجة التى تجعل العالم غير قادر على نيل مطلبه من الموضوعية ما لم تتم عملية التحقق والاثبات .

ومع معرفتنا بأن معايير الوصول الى الموضوعية التجريبية والمناهج المستخدمة للتحقق والاثبات ان هى الا نتاج للعقل البشرى (بعكس الاعتقاد بأن الحقيقة هى معلوم مطلق) ، فان مصطلح « الذاتية الداخلية » يكون اكثر ملاءمة من كلمة « الموضوعية » . ولكى تتحقق الذاتية الداخلية ، فان المعرفة بصفة عامة والمنهجية العلمية بصفة خاصة لا بد أن يكونا قابلان للانتقال ، أى يكون هناك : « نمط من المعرفة يمكن انتقاله من أى شخص يملك هذه المعرفة الى أى شخص آخر يفتقر اليها ولكنه يستطيع أن يستوعب معنى الرموز (الكلمات والاشارات) المستخدمة فى عملية الاتصال ويقوم بأداء العمليات التى يرد وصفها فى هذه الاتصالات » . ومن هنا ، اذا قام أحد العلماء باحدى عمليات البحث ، فان عالم آخر يستطيع أن يعيد التجربة ثم يقوم بمقارنة مجموعتى النتائج . فاذا ما كان الاسلوب المنهجى سليم واذا لم تكن الظروف (كما نفترض) قد تغيرت ؛ فلنا أن نتوقع أن تكون النتائج متشابهة . ولكن الظروف ، فى الحقيقة ، قد تتغير وتبرز عوامل جديدة . ومع ذلك ، فان معنى الذاتية الداخلية هو أن أحد العلماء فى امكانه أن يفهم ويقيم مناهج الآخرين ويحقق نفس المشاهدات بحيث يتسنى له التحقق من الحقائق التجريبية . كما ان المتطلبات المنهجية للذاتية الداخلية تعتبر هى الدليل على أن المشاهدات التجريبية لم تفسد نتيجة لاى عوامل غير تلك المعروفة لدى جميع المشاهدين : « ان المسألة المنهجية تكون دائما مقيدة بما اذا كان ما تم تسجيله من مشاهدة من الممكن استخدامه فى عملية استقصاء تالية حتى اذا لم يعد لذلك المشاهد المعين بعد ذلك دور فى الموضوع » .

الثورة العلميـــة :

ان المعرفة العلمية هى معرفة يمكن اثباتها بواسطة « كل من » العقل والدليل المستمد من الاحاسيس (التجربة) . وتكمن أهمية المنهجية العلمية أساسا فى وضع نظام لغة للاتصال ، وقواعد للتفكير ، واجراءات ومناهج

للمشاهدة والتحقق . وبهذا المفهوم ، فان المنهجية تحتاج الى عملية تطابق : فالمطالب من أجل المعرفة تكون مرفوضة اذا لم تتطابق مع القواعد والاجراءات التى يطرحها الاسلوب المنهجى . ولكن ، ألا يؤدى التطابق المنهجى الى اعاقة الاكتشافات الجديدة ، ومن ثم ضمنا ، التقدم العلمى ؟ بل أكثر من ذلك ، وحيث أن العلماء وهم أعضاء فى المجتمع العلمى الذى تحكمه الاعراف التقليدية ، والمعايير ، والطقوس ، وعلاقات القوة التى قد لا تتفق والمسعى الموضوعى للمعرفة ، فهل المجتمعات العلمية تعيق التقدم العلمى ؟

لقد ظل فلاسفة العلم وأصحاب النظريات الاجتماعية يهتمون لفترة طويلة بمخاطر التعصب فى مجال العلم ، وعلى حد تعبير سكوت جرير Scott Greer عن ذلك ، « اذا ما كنا محظوظون وتراكمت معرفتنا العلمية ، فانها قد تتصاعد الى أعلى فى شكل حلزونى ، كما أنها قد تظل دائرة حول نفسها على نفس المستوى ، أو أنها قد تنزل حلزونيا الى أسفل ، من نظرية الى رأى الى تعصب عقائدى » . وعلى رأس المحاولات العديدة لوصف الثورات العلمية من منظور سوسيولوجى — سياسى ، يستثيرنا المبحث العلمى الذى قام به توماس كوهن Thamas Kuhn والذى يستحق عرضه ببعض التفصيل .

العلم التقليدى مقابل العلم الثورى :

من الاشياء الاساسية فى تصور كوهن للمشروع العلمى هو التفرقة والتمييز بين « العلم التقليدى » و « العلم الثورى » . العلم التقليدى ينظر اليه على أنه التحقق الروتينى من النظرية السائدة فى اى مرحلة تاريخية . والتحقق والاختبار عمليتان تصبحان جزءا من نشاط يبذل لحل أحد الالغاز . وطبقا لكلمات كوهن :

> « ان « العلم التقليدى » يعنى عملية البحث التى تعتمد بشدة على واحد او اكثر من الانجازات العلمية السالفة ، وهى انجازات يقرها أحد المجتمعات العلمية المعينة ويسلم بها لفترة على أنها توفر الاساس الصالح لممارستها . أما اليوم ، فان هذه الانجازات يعاد سردها ، ونادرا ما يكون ذلك فى شكلها الاصلى ، فى نصوص الكتب العلمية ، أولية ومتقدمة . وهذه النصوص تقوم بشرح الهيكل الخاص بالنظرية المقبولة ، وترسم صورة للكثير أو لكل التطبيقات الناجحة لهذه النظرية ، ثم تقارن هذه التطبيقات بنماذج مثالية للمشاهدات والتجارب » .

ان مثل هذه الاعمال تشرك الدارسين والممارسين فى المجتمع العلمى .

فهى تحدد أنواع المسائل البحثية التى يجب استقصاؤها ، وأنواع الفرضيات والتصورات التى يجب توظيفها ، وأنواع المناهج البحثية التى يجب استخدامها . ومن الناحية التاريخية ، فان مثل هذه الاعمال « ... كانت قادرة على القيام بذلك لانها تشترك فى صفتين رئيسيتين . أن ما حققته من انجاز كان غير مسبوق بما يكفى لجذب احدى الجماعات المناصرة لها دائما بعيدا عن مزاحمة الطرز الجديدة من النشاط العلمى . فى نفس الوقت ، كانت هذه الاعمال مفتوحة النهاية بما يكفى لترك كافة أنواع المسائل لكى تقوم جماعة الممارسين الجدد بحلها » . ويطلق كوهن على الانجازات التى تشترك فى هاتين الخاصتين لفظ « النماذج المثالية » ويرى أنها تتصل بشكل وثيق بفكرة العلم التقليدى :

« ان ما أقصده باختيارى له (اصطلاح النموذج المثالى) هو أن بعض النماذج المقبولة للممارسة العلمية الفعلية — وهى نماذج تشمل القانون والنظرية والتطبيق والوسيلة معا — تعطى قوالب مثالية لتقاليد معينة متماسكة من البحث العلمى ... فدراسة النموذج المثالى ... هو ما يعد الدارس أساسا لكى يأخذ عضويته فى المجتمع العلمى الخاص الذى سيتعامل معه فيما بعد » .

أكثر من هذا ، فلأن العالم ينضم الى مجتمع علمى تعلم من فيه نفس الاسس الادراكية والمنهجية المتعلقة بنظامهم من نفس المصادر ، فسوف يكون من النادر أن يثير ما يقوم به من بحث بعد ذلك خلاف أو نقد على الامور الجوهرية . فالعلماء الذين تعتمد أبحاثهم على أساس نموذج مثالى مشترك ، يلتزمون سيكلوجيا بنفس القواعد والمعايير والمقاييس عند الممارسة العلمية : « وهذا الالتزام وما يترتب عليه من اتفاق جماعى واضح يعتبر من الامور التى لا غنى عنها للعلم التقليدى ، أى مثل الاصل الذى يتخلق منه تقليد بحثى معين » .

وبدلا من خلق علماء لا يتسمون بالتعصب ، فإن العلم التقليدى يصور المجتمعات العلمية وكأنهم جماعات من المشايعين الذين ينادون ويدافعون عن النظام أو النموذج المثالى القائم . ومع ذلك ، فان التمسك بنموذج مثالى لا يجب بالضرورة أن يحمل فى كنياه الاعاقة للتقدم العلمى . فالنماذج المثالية هى أشياء ضرورية ، وبدونها لا يستطيع البحث العلمى ان يحتل مكانه كمشروع جماعى ، لان العلم يحتاج الى مبدأ تنظيمى : « ان التملك لنموذج مثالى ولما يتيحه من نمط للبحث أكثر ثورية لهو علامة على النضج فى مجال التطور لاى حقل علمى معين » .

العلم الثـــورى :

على النقيض من العلم التقليدى ، يرى كوهن العلم الثورى انه التطور المفاجىء لـــ « نموذج مثالى مزاحم » يمكن أن يحظى بقبول المجتمع العلمى ، فقط بشكل تدريجى . فتحويل النموذج المثالى هو ما يعتبر ثوريا فى مجـــــال العلم . فمثلا ، ذلك النموذج المثالى عن أن الذكاء البشرى ما هو الانتاج لـــكل من البيئة الاجتماعية الثقافية والعمليات الوراثية قد غير من النموذج المثـــالى الذى عمل على تقدم الرأى القائل بن الذكاء محكوم تماما بالميكانيزمات الوراثية . ولقد أدى هذا بدوره الى احداث ثورة فى دراسة الشخصية والسلوك البشرى وكان حجر الزاوية فى كثير من السياســـات العـــامة الاجتماعيـــــة والتعليمية والاقتصادية .

وعملية الرفض للنموذج المثالى السائد تبدأ ، وفقا لـــكوهن ، متى تأكد النموذج وتحقق ، فعندما يقوم العلماء باختبار الابعاد والمضمونات المختلفة لأحد النماذج السائدة ، من الناحية التجريبية ، يصبح امتثال النموذج لما يسفر عنه البحث عملية دقيقة . ويطلق كوهن على المتناقضات « مخالفات للقاعدة » ويرى أن مثل هذه المخالفات للقاعدة يزداد وضوحها كلما استمرت النشاطات المتعلقة بعملية التحقق أو حل المشكلة . وعند نقطة ما يكون قد تم تشـــــكيل المرشح المزاحم للنموذج القائم . وينشب الصراع بين مؤيدو النموذج القديم والجديد ، ويصلون فى النهاية الى قبول النموذج الجديد واعــــادة بناء العلم التقليدى من جديد . والفترة التى تمر للانتقال من النموذج القديم للجديد تحدث فيها زعزعة وانقسامات فى المجتمع العلمى . وتتسم هذه الفترة الانتقاليـــــة بالابحـــاث العشـــوائية ، وعمليات التحقق التى تخلو من الهدف ، والاكتشافات التى تتم بمحض المصادفة .

ومع ذلك ، فان الثورات العلمية لا تقع كثيرا . فمعظم الوقت المـــكرس للمسعى العلمى يكون مكرسا للعلم التقليدى . وأى ثورة علمية هى بناء يستغرق طويلا ، ولا تحدث الا نادرا لان معظم العلماء « لا » يحاولون دحض وتفنيــــد النماذج السائدة ، ولا يدركون المناقضات للقاعدة فى الحال . فعمليات الادراك تنزلق بسهولة وتدخل فى تصنيفات ذهنية قائمة مسبقا على تجربة التحقق . والعلماء يرون ما سوف يرونه ، وحتى فترة طويلة من اخفاق النموذج الســـائد فى التطابق مع النتائج التجريبية ، فهو يظل النموذج المقبول .

هل هناك منطق للاكتشاف ؟

فى رأى كوهن أنه من الممكن عدم وجود منطق فى عملية الاكتشاف ، ولـــكن سيكلوجيا اجتماعية فقط : فعوامل المخالفة للقاعدة وعدم الثبات دائما متوافرة

فى العلم ، وان كان النموذج المثالى السائد يؤمن النشاطات التى تعمل على حل المشكلة حتى تجىء أزمة تلقى به . ولكن ، هل هناك سبب رشيد وراء ظهور الازمة ؟ ولماذا يرى العلماء فجأة أن هناك أزمة ؟ وكيف يتم بناء شكل نموذج مثالى مزاحم ؟ ان مبحث كوهن لا يطرح هذه التساؤلات فليس هناك منطـــق للاكتشاف ولكنه بالاحرى صراع جماعة داخل المجتمع العلمى .

فى تناقض حاد مع نظرة كوهن الوضعية للعلم ، هناك الموقف المعيـــارى الذى يتخذه كارل بوبر . فهو يقول أن المجتمع العلمى يجب أن يكون ، بل هـــو بالفعل ولدرجة كبيرة ، مجتمع مفتوح ليس لأى نموذج مثالى سائد فيه أى مرتبة للقدسية أبدا . فالعلم يجب أن يكون فى حالة ثورة دائمة ، كما أن النقد هو بمثابة القلب للمشروع العلمى . وعوامل النقض للسعى فى ســـبيل المعـــرفة تشـــكل حالات من الثورة :

« فى رأيى أن العالم « العادى » ، كما يصفه كوهن : هـــو شخص يجب أن نتأسى له . . . فلقد تلقى العالم « العادى » تعليمه بشكل سىء . وقد نال تعليمه بروح تعصبية : فهـــو ضحية التعليم . لقد تعلم تكنيك يمكن تطبيقه دون أن يسأل عن سبب ذلك . . . » .

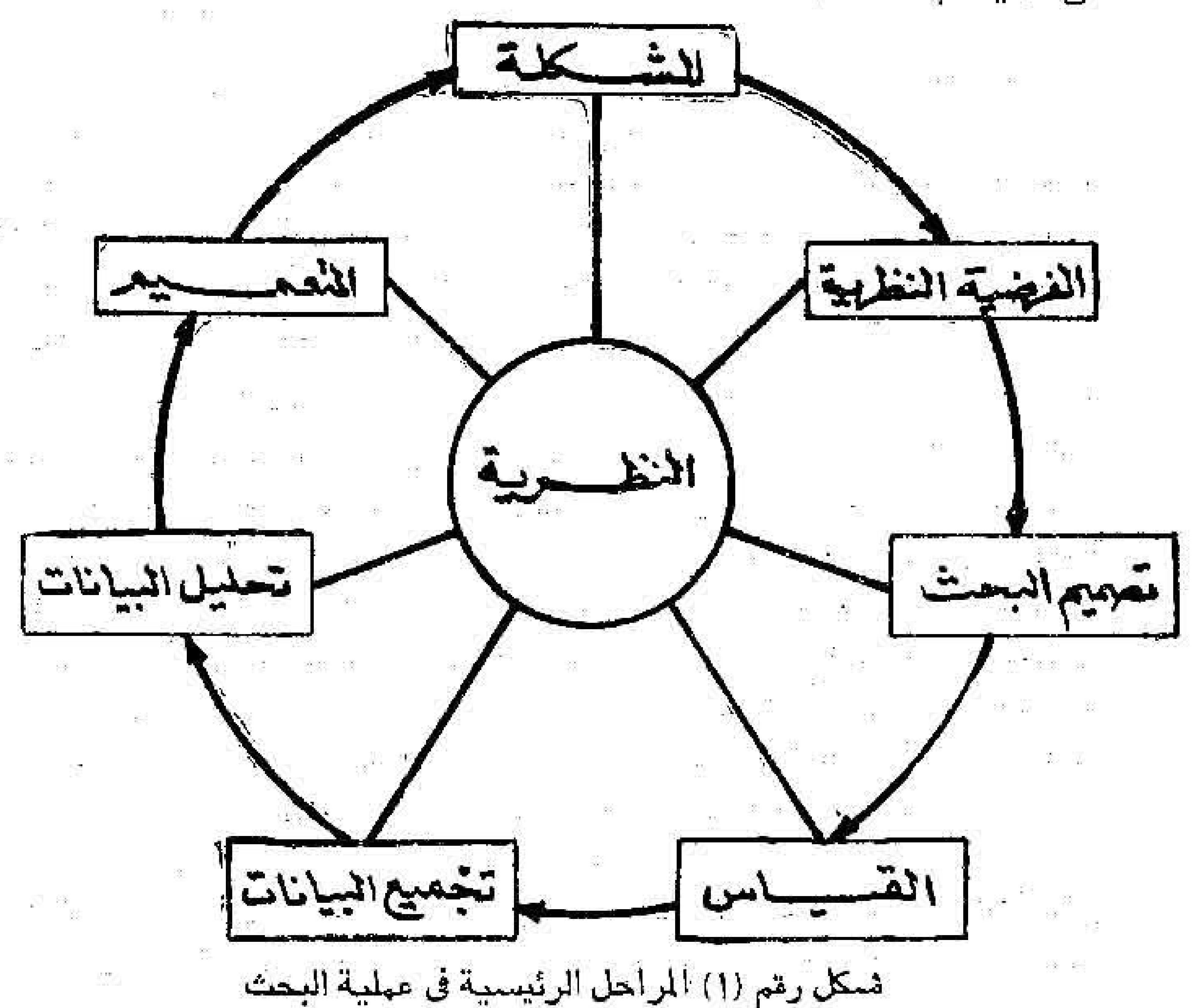
ويعترف بوبر أن العلماء يمكن فى أى لحظة أن يكونوا « سجناء » مقيدين بنماذجهم المثالية ، وتوقعاتهم ، وخبراتهم الماضية ، ولغتهم . ولـــكن « نحن سجناء بمفهوم المستر بيكويك : فاذا ما حاولنا ، سيكون فى قدرتنا أن نحطـــم الاطار المقيدين به وننطلق خارجه فى اى لحظة . وان كنا نعترف بأننا سوف نجـــد انفسنا فى اطار ثان مرة أخرى ، الا أنه سيكون اطار أفضل واكثر رحابة ، وسوف يكون فى أمكاننا فى أى لحظة أن ننطلق من إساره مرة أخرى » .

وعند هذه النقطة ، قد يساعدنا هنا أن نقوم بالتمييز بين سياقين للنشاط العلمى ـــ هما الاكتشاف والتبرير . « سياق التبرير » يشير الى الانشطة التى يقوم بها العلماء وهم يحاولون التحقق منطقيا وتجريبيا من المسعى فى ســـبيل المعرفة . والمنهجية العلمية هى التى تؤسس منطق التبرير . كما أن المنهجية لا تكترث بكيف يصل العلماء الى ما عندهم من بصيرة ، بل تسأل فقط ما اذا كانوا مسوغين للوصول الى مسعى المعرفة . أما الانشطة التى يقوم بها العـــالم فى « سياق الاكتشاف » ، فهى أنشطة غير مقيدة بالمنهجية . فالمنهجية العلميـــة وان كانت قد تيسر من الانشطة التى تؤدى الى طريق الاكتشاف الا أنه حتى ذلك الوقت لا توجد قواعد موضوعة ولا منطق للاكتشاف يمكن طرحهما . ومن العوامل التى لها أهميتها الهائلة فى مجال العلم هى عوامل الخلق ، والبصيـــرة ، والخيال ، والالهام ، ورغم أنها عوامل يمكن رعايتها وصقلها الا انها لا يمكن أن تنزل الى درجة القواعد : « ليس هناك من العلم ما يتيح للانسان القدرة على أن يحدث نفسه بما سوف يتناسب مع غرضه » .

عملية البحث :

ان المعرفة العلمية هى معرفة يمكن اثباتها عن طريق كل من العقل والتجربة (المشاهدة) . كما ان الصلاحية المنطقية ووسيلة التحقق التجريبية هما المعياران اللذان يستخدمهما العلماء لتقويم المسمى فى سبيل المعرفة . وهذان المعياران يترجمان فى أنشطة البحث التى يقوم بها العلماء من خلال « عملية البحث » . ومن هنا ، يمكن النظر الى عملية البحث على أنها المخطط الشامل للانشطة العلمية التى ينشغل فيها العلماء لتحقيق المعرفة ، انها النموذج المثالى للاستقصاء العلمى .

وكما هو موضح فى الشكل رقم (١) ، تتكون عملية البحث من سبع مراحل رئيسية : المشكلة ، الافتراض النظرى ، تصميم البحث ، القياس ، تجميع البيانات ، تحليل البيانات ، ثم التعميم . وكل مرحلة من هذه المراحل تتبادل العلاقة مع « النظرية » بمعنى انها تتأثر بها وتؤثر فيها . وفى سياق هذا الكتاب سنقوم بالمناقشة المستفيضة لكل مرحلة من هذه المراحل ولعملية الانتقال من مرحلة الى التى تليها ، وان كنا الآن سوف نقصر انفسنا على القاء نظرة عامة على عملية البحث .



شكل رقم (١) المراحل الرئيسية فى عملية البحث

وأكبر السمات المميزة لعملية البحث هى « الطبيعة الدائرية » لها . فهى عادة تبدأ بمشكلة وتنتهى بتعميم التجربة المختبرة . كما أن التعميم وهو ينهى دورة واحدة يكون بداية للدورة التالية . وهذه العملية الدائرية تستمر بشكل غير محدود ، عاكسة تقدم النظام العلمى .

بجانب هذا ، فان عملية البحث تقوم أيضا « بتصحيح نفسها » . فتعميم التجربة لمشاكل البحث يخضع للاختبار منطقيا وتجريبيا ، فاذا ما تم رفض هذه التعميمات ، يتم وضع وصياغة تعميمات جديدة ثم يتم اختبارها هى الاخرى . وفى عملية اعادة الصياغة يتم اعادة تقييم كافة عمليات البحث لأن الرفض لتعميم التجربة قد يكون راجعا الى جوانب قصور فى تأدية عمليات البحث وليس الى عدم صلاحية التعميم . فمثلا ، التعميم بأن الازمات الاقتصادية تؤدى الى تزايد فى مجال الانفاق الحكومى ، سوف يكون تعميما مرفوضا اذا لم يتم تأييده منطقيا ويثبت تحققه تجريبيا . ومع ذلك ، قد يتم رفض التعميم أيضا « حتى لو كان صحيحا » ، وذلك اذا كانت أجراءات الاثبات والتحقق (كتصميم البحث ، القياس ، تحليل البيانات ، مثلا) بها قصور . وحتى يمكن التقليل من مخاطر الرفض للتعميمات الصحيحة الى أدنى حد ، على المرء أن يعيد فحص كل مرحلة من مراحل البحث قبل وضع وصياغة التعميمات الجديدة .

وأخيرا ، يجب على القارىء أن يكون مدركا لحقيقة وهى أن عملية البحث ، كما عرضناها هنا ، تأخذ طابعا مثاليا الى حد ما ، أى ، أنها بمثابة اعادة بناء رشيدة للممارسة العلمية : « ان اعادة البناء تضفى الصفة المثالية على منطق العلم فقط فى أنها ترينا ما « سيكون » عليه اذا ما تم استخلاصه وتنقيته الى اقصى درجة من النقاوة ... (لكن) ... حتى أعظم العلماء لا يوجد لدى أحد منهم أسلوب ادراكى يمكن أن يكون منطقيا تماما ومتكاملا ، كما أن أرقى أنواع البحث ما زال ينم عن جوانب شروده المغرقة فى البشرية » .

وفى مجال التطبيق ، فان عملية البحث تتم .

١ — بسرعة أحيانا ، وببطء أحيانا أخرى .

٢ — أحيانا بدرجة عالية جدا من القوة والصياغة الشكلية للقاعدة ، وأحيانا أخرى دون قاعدة تماما ، وبوعى غير شخصى ، وبصفة الالهام .

٣ — أحيانا من خلال تفاعل عدة علماء فى أدوار مميزة « كمنظر » ، مثلا ، « قائد للبحث » ، « يعقد المقابلات » ، « صاحب منهج » ، « خبير عينات » ، « رجل احصائيات » ، وهكذا) ، وأحيانا اخرى من خلال جهد عالم واحد .

٤ — أحيانا يتم ذلك فقط فى خيال العالم ، وأحيانا أخرى من خلال الحقيقة الواقعة .

وهكذا ، فان ما تقوم به من اعادة البناء المنطقية لعملية البحث ليس المقصود منها أن تفتقر للمرونة ، بل الاقرب الى الصحة أن تكون متضمنة للموضوعات التى تدخل نطاق البحث فى مجال العلوم الاجتماعية .

ملخص :

ان العلم يتقيد بمنهجيته ، وليس بموضوعه . وما يضع المدخل العلمى فى وضع يختلف عن الاساليب الاخرى المستخدمة لاكتساب المعرفة ، هى الفرضيات التى يقوم عليها وكذلك منهجيته .

والفرضيات التى يقوم عليها المدخل العلمى هى : الطبيعة شىء له نظام وترتيب ، فى قدرتنا معرفة الطبيعة ، المعرفة تجريبية ، ولكنها تفوق الجهل ، الظواهر الطبيعية لها أسباب طبيعية ، ليس هناك شىء واضح بذاته ، المعرفة تنبع من تملك التجربة .

ومنهجية المدخل العلمى تخدم ثلاثة اغراض : وضع قوانين وقواعد للاتصال ، وضع قواعد للتفكر العقلى المنطقى والصحيح ، وقواعد للذاتية الداخلية . وهذه الانساق الثلاثة من القواعد تسمح لنا بأن نفهم ونفسر ونتنبأ ، بيئتنا وأنفسنا ، بطريقة لا تتيحها لنا الانساق الاخرى (أى السلطوية ، والغيبية ، والعقلانية) الخاصة بتخليق المعرفة .

والمعرفة العلمية هى معرفة يمكن اثباتها بواسطة « كل من » العقل وبرهان الحواس . فالمنهجية العلمية تتطلب التمسك بقواعد المنطق والمشاهدة ، ومثل هذا التمسك لا يجب ان ينظر اليه على أنه تشجيع للتطابق والتعصب . وعملية البحث هى عملية دائرية وتقوم بتصويب نفسها . والنقد الرشيد يجب أن يكون هو لب المشروع العلمى ، والعلم يجب أن يكون ثورة فى حالة دائمة . ومن الواضح ان المجتمعات العلمية ، مثلها مثل المجتمعات الاجتماعية الاخرى ، تنشغل فى صراعات للقوة لا توصل دائما الى التقدم العلمى . وصراعات القوة هذه ربما تكون شيئا حتميا لا يمكن تجنبه ، الا ان المسعى من أجل المعرفة يكون مقبولا فقط بقدر ما يكون هذا المسعى متطابق مع فرضيات العلم ومنهجيته .

مصطلحات رئيسية للمراجعة :

تفسيرات استدلالية	Deductive explanations
تفسيرات احتمالية	Probabilistic explanations
تنبـؤ	Prediction
كلمة المانية تعنى التعاطف او الاندماج الذهنى مع شخص آخر	Verstehen
أصحاب الفكر التجريبى المنطقى	Logical empericists
منهجيـــة	Methodalogy
تكرار التجربة	Replication
علم ثورى	Revolutionary science
سياق التبرير	Context of justification
عملية البحث	Research Process
عــــلم	Science
عقــلانيـة	Rationalism
فلسفة المعرفة	Epistemology
فرضيات علمية	Assumptions of Science
تجريبى	Emperical
تفســــير	Explanation
ذاتية داخلية	Intersub jectivity
علم تقليدى	Normal science
نموذج مثالى	Paradigm

الفصل الثانى

أسس المفاهيم فى مجال البحث

تمهيد :

لقد عرفنا أن المعرفة العلمية هى المعرفة التى يمكن التيقن منها عن طريق كل من العقل والتجربة ، وهذا يحمل فى مضمونه أن علماء الاجتماع يعملون طبقا لمستويين متمايزين وان كانا على اتصال ببعضهما — التصور — النظرى والمشاهدة — التجريبية . والبحث فى مجال علم الاجتماع هو محصلة التفاعل بين هذين المستويين . وهذا الفصل يغطى الاسس الخاصة بمستوى التصور النظرى ، والعلاقات بين النظرية ، والنماذج ، والبحث التجريبى .

المفاهيم :

ان عملية التفكير تشتمل على استخدام اللغة ، وهى بمثابة نسق للاتصال يتألف من رموز ومجموعة من القواعد تسمح بانشاء تركيبات متعددة من هذه الرموز . ومن أكثر هذه الرموز اهمية فى اللغة ، خاصة وأنه يتصل بمجال البحث هو « المفهوم » . فالعلم يبدأ بوضع مفاهيم يقوم عن طريقها بوصف العالم التجريبى . والمفهوم هو نوع من التجريد الذى يمثل شيئا ما ؛ أو الامتلاك لشىء ما ، أو ظاهرة معينة . فمثلا ، « المكانة الاجتماعية » ، « الدور » ، « القوة » « البيروقراطية » ، « الحرمان النسبى » ، هى عبارة عن تصورات لمفاهيم شائعة فى العلم السياسى والسوسيولوجى . كذلك التصورات الخاصة بمفاهيم مثل « الذكاء » ، « الادراك » ، « التعلم » ، هى من الاشياء الشائعة عند علماء النفس . اذن فكل نظام علمى يقوم بوضع قاعدته من المفاهيم التى ينفرد بها ، وهى ، بالنسبة للعلماء ، تشكل لغة يتخاطبون بها ، وبالنسبة لغيرهم ، تسمى « رطانة » .

وظيفة المفاهيم :

من مهمة المفاهيم أنها تخدم عددا من الوظائف الهامة فى البحث الخاص بالعلوم الاجتماعية . فهى ، أولا وقبل كل شىء ، تمثل أساس الاتصال والفكر . فبدون قاعدة من المفاهيم المتفق عليها ، تستحيل عملية الاتصال الذاتية الداخلية .

والمفاهيم هى مجردات لانطباعات أو مدركات حسية وتستخدم لتوصيل ونقل المدركات والمعلومات . وهنا يجب التأكيد على أن المفاهيم هى اشياء لا توجد فى الواقع باعتبارها ظواهر تجريبية ، فالمفهوم ليس هو بالظاهرة نفسها ، بل هو بالاحرى « رمز » للظاهرة . وتناول المفاهيم كما لو كانت هى ذاتها الظواهر ، يؤدى الى « التجسيم المادى المضلل » — أى الى خطأ اعتبار المجردات بمثابة ظواهر حقيقية . فمثلا ، التناول لمفهوم مثل « القوة » باعتبار أن لـه ذوازع ، أو حاجات ، أو غرائز ، يعتبر تناولا خاطئا .

ثانيا : ان المفاهيم تقدم وجهة نظر — اى طريقة ينظر بها للظواهر التجريبية : « من خلال وضع قالب للمفهوم العامى ، يتم اضفاء نوع من النظام والتماسك على العالم المدرك بحيث لا يمكن ادراكه قبل وضع هذا المفهوم » . فالمفهوم يتيح للعلماء أن يرجعوا الى مظهر من مظاهر الواقع ويصبغون عليه احدى الصفات الشائعة :

« انه يسمح للعالم فى مجتمع من العلماء الآخرين ، برفع خبراته الفطرية الخاصة الى مصاف الدلالة التى تحظى بارلضاء ، كما يسمح له بأن يحقق نوعا من التفاعل مع بيئته ، فالعالم يحدد لنفسه ما يعنيه مفهوم ما ثم يقوم بفعله تجاه المقصود من هذا المعنى . والمفهوم بهذا الشكل يفعل باعتباره ناقلا للتجربة والادراك ، يفتح عوالم جديدة من المشاهدة ، ويغلق عوالم اخرى » .

ثالثا ، المفاهيم هى وسيلة للتصنيف والتعميم . فالعلماء يقومون بتبويب ، وبناء ، وتنظيم ، وتعميم خبراتهم وشاهداتهم فى حدود المفاهيم . وعلى حد تعبير جون ماكينى فى هذا الصدد .

« ان كافة الظواهر تعتبر فريدة فى واقع تحققها ، لذلك لا توجد ظاهرة يمكن أن تتكرر فى الحقيقة بشكلها الكلى المادى . ومعنى الهوية يكون دائما « مطابق للغرض المقصود » . وحتى يمكن وضع « نظام » بمضموناته العلمية المختلفة ، بما فى ذلك التنبؤ ، فان العالم يتغاضى بالضرورة عن الشىء المتفرد والدخيل وغير المتكرر ، ومن ثم يبتعد عن التجربة الادراكية . وهذا الابتعاد هو الثمن اللازم الذى يتحتم عليه أن يدفعه للوصول الى العمومية المجردة . ووضع تصور

لمفهوم ما يعنى القيام بالتعميم بدرجة ما . والقيام بالتعميم معناه الاقلال من عدد الاشياء بادراك أن البعض منها متطابق » .

وعلى سبيل المثال ، نحن نستطيع أن نتجاهل الكيفية التى تختلف بها اشجار الصنوبر ، والبلوط والنخيل ، والتفاح عن بعضها البعض ونأخذ بالتشابه النوعى الشامل لها من خلال المفهوم « شجرة » . وهنا ، تمثل الشجرة المفهوم العام الذى عن طريقه نستوعب نوعا من التعدد للمظاهر المنفردة التى نفهمها من خلال نظام معين . والشجرة أيضا هى مفهوم مجرد ، بمعنى أن الفوارق المحددة التى تختص بها أشجار الصنوبر والبلوط والنخيل والتفاح تنمى فى العملية الادراكية لمفهوم عام . لذلك فان هذه العملية التى تقوم بالتجريد والتعميم تمكن العلماء من رسم الخطوط المحددة للخواص الجوهرية للظواهر التجريبية . وفى الوقت ذاته ، بمجرد أن يتشكل المفهوم ، لا يمكن اعتباره رمزا متكاملا للشىء الذى يقابل هذا المفهوم لان محتواه قد تناقص بشكل حتمى وتركز على تلك الخواص التى يعتبرها العالم خواصا أساسية وجوهرية .

أما الوظيفة الرابعة التى تؤديها المفاهيم هى أنها تخدم باعتبارها القوالب البنائية للنظريات ومن ثم للتفسيرات والتنبؤات . فالمفاهيم تعتبر أكثر العناصر أهمية وحسما فى أى نظرية لانها تحدد شكل ومضمون النظريات . فمثلا ، مفهومان مثل « القوة » و « الشرعية » هما اللذان يحددان شكل ومضمون النظريات المتعلقة بالحكم . ونرى كذلك أن مفهومين مثل « الفردية » و « البروتستانتية » هما اللذان يحددان ويشكلان نظرية « دوركايم » عن الانتحار . فالنظرية تتنبأ بالظروف التى قد ترتفع أو تنخفض فى ظلها معدلات الانتحار بتحديد العلاقات القائمة بين الفردية والدين . مفهوم آخر مثل « الحرمان النسبى » يعتبر مفهوم مركزى فى النظريات الخاصة بالعنف ، كذلك مفهومى « العرض » و « الطلب » من المفاهيم التى ترتكز عليها النظرية الاقتصادية . اذن ، فان مثل هذه المفاهيم عندما يتم وصلها والربط بينها بطريقة نسقية تؤدى الى وجود نظريات ، فتكون المفهوم وتشكيل النظرية عمليتان تتصلان ببعضهما بشكل وثيق .

التعريفات :

اذا ما كان للمفاهيم أن تخدم الوظائف الخاصة بعمليات الاتصال ، وخلق الاحساس بالتجربة ، والتعميم ، وبناء النظرية ، فلابد أن يتوافر لها الوضوح والدقة واكتساب القبول . فالمشكلة فى لغة الحياة اليومية هى فى الحقيقة ، رغم أنها ليست تعسفية بشكل كامل ، الا أنها تعتبر لغة

غامضة ومبهمة وغير دقيقة . فمفاهيم مثل « القوة » أو « البيروقراطية » أو « الرضاء » تعنى أشياء مختلفة لمختلف الناس ، كما تستخدم فى سياقات عديدة لتدل على أشياء متنوعة . ورغم أن هذا عادة لا يخلق مشاكل رئيسية فى عملية الاتصال اليومية ، الا أنه لا عملية الاتصال العلمية ولا الوظائف الثلاث الاخرى التى تؤديها المفاهيم يمكن أن تخدمها لغة مبهمة وغير دقيقة .

فأى نظام علمى يعنى بالضرورة بمفرداته اللغوية . والعلوم الاجتماعية قد عملت السعى لكى تميز لنفسها كيانا واضحا ودقيقا من المفاهيم (المجردات) لكى تخص بها موضوعها وتميزه . وفى خلال هذه العملية ، ابتكرت آلاف من المفاهيم التى تم تنقيحها واستخدامها أو استبعادها . وعند تمحص هذا الحجم الضخم من المفاهيم يكون المرء خليقا بأن يجد قدرا كبيرا من الغموض والتقلب فى معنى الكثير من هذه المفاهيم . وهذا شىء لا يجب أن يثير الدهشة كثيرا . فعلماء الاجتماع يواجهون بمشكلة التمييز بين المفاهيم الخاصة بهم وتلك التى يستخدمها بصفة عامة ودون تمييز عامة الناس الذين يرغب هؤلاء العلماء فى دراستهم . ولكن مع تقدم العلوم الاجتماعية ، كذلك ببيتحقق تقدم فى مفرداتهم اللغوية ، وكما كتب كارل هيمبل Karl Hempel

> « فى المراحل الاولى من عملية الاستقصاء العلمى ، يتم صياغة الوصف والتعميم بالمفردات اللغوية للحياة اليومية . الا ان نمو النظام العلمى يجلب معه التطور لنسق من المفاهيم المتخصصة المجردة سواء قليلا أو كثيرا ، وما يقابلهما من مصطلحات فنية » .

فعملية الوضوح والدقة فى استخدام المفاهيم تتحقق عن طريق التعريفات ، وفى مجال البحث فى العلوم الاجتماعية ، هناك نمطان لهما أهميتهما فى مجال التعريف ، « التصورى » و « العملى » .

التعريفات التصورية :

ان التعريفات التى تستخدم فى وصفها لبعض المفاهيم مفاهيم أخرى هى تعريفات تصورية . ولتوضيح هذا ، نجد أن « القوة » مثلا ، قد عرفت كمفهوم على أنها قدرة أحد الفاعلين (فرد أو جماعة أو دولة) على جعل فاعل آخر كلى يقوم بشىء لن يفعله هذا الاخير بغير ذلك . كذلك مفهوم « الحرمان النسبى » ، فهو يعرف بأنه هو ادراك الفاعلين للتباين بين « توقعاتهم القيمية » و « قدراتهم القيمية » . ثم « التوقعات القيمية ، بدورها ،

تعرف بأنها سبل الخير وظـروف الحياة التى يؤمن الناس بأنهم سيتأهلونها ، و « القـدرات القيمية » تعرف بأنها سـبل الخير والظـروف التى يعتقـد الناس أنهم قادرون على تحقيقهما والاحتفاظ بهـا .

فى هذه الامثلة تم استخدام عدد من المفاهيم لتعريف مفاهيم أخـرى . ولكن عملية التعريف قد لا تتوقف هنا . ففى حالة « الحرمان النسبى » قـد يتساءل الشخص الذى لا يعرف شيئا عن النظريـة : « ما هى القـدرات » ، و « التوقعات » و « المدركات » ؟ . اذن فهذه المفاهيم تستدعى المزيـد مـن التوضيح . « التوقعات » مثلا ، يمكن تعريفها بأنها تعبير عن المعايير السائدة التى ثبتت عن طريق البيئة الاقتصـادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية « المباشرة » ؟ هذه المفاهيم مازال يمكن تعريفهـا بمفاهيم أخـرى ، وهكذا . ولكن ، عند نقطـة معينة من هذه العمليـة سيواجه الانسـان بمفاهيم لا يمكن تعريفها بمفاهيم أخرى . هذه المفاهيم يطلق عليهـا « مصطلحات أوليـة » ، ومن أمثلة ذلك : الالوان ، الاصـوات ، الروائـح ، المذاق ، كلها جميعـا مصطلحات أوليـة . فالمصطلحات الاوليـة هى تلك التى تحظى بالاتفـاق المشترك بخصوص معناهـا . وعـادة يمكن توصيل معناها استعانة بأمثلة . ومثل هذه التعريفـات الايضاحية يطلق عليهـا « التعريفات الظاهـرية » . وهى تعريفات لابد من استخدامها حتى يمكن الوصول الى تعبيرات لغويـة أساسية . و « التعريف الظاهرى » يمكن تمثيله بمحاولة تعليم الطفـل معنى « احمر » . فنحن نظـل نشير الى الاشياء « الحمراء » حتى يتحقق الطفـل من ملاحظـة أن صفـة « الاحمرار » فقط هى صفة تشترك فيها كل تلك الاشياء .

والتعريفات التصورية تتكون من مصطلحات أولية وأخرى « اشتقاقية » . والمصطلحات الاشتقاقية هى تلك التى يمكن تعريفهـا باستخدام المصطلحات الاولية ، وبهذا ، لو كان هناك مثلا اتفاق على المصطلحات الأولية مثل « الفرد » ، « التفاعل » ، « اثنان أو أكثر » ، « بانتظام » ، لاستطعنا عندئذ أن نعـرف الـ « مجموعة » (وهو تعبير مشتق) بأنها اثنان أو أكثر من الافراد الذين يتفاعلون بانتظام . والميزة الرئيسية للمصطلحات المشتقة هو ان استخدامها يتم بمزيد من الكفاءة ، فهى لا تتطلب سوى جهد أقل مما تتطلبه مجموعة المصطلحات الاولية التى يتألف منها تعريف المصطلح المشتق .

والتعريفات التصورية لا هى بالتعريفات الصحيحة ولا هى بالزائفـة . فكما ذكرنا من قبل ، أن المفاهيم هى بمثابة رموز تتيح عملية الاتصـال . وبهذا تكون التعريفات التصورية اما مفيـدة لعمليـة الاتصـال واما لا . وصحيـح

قد يـكون للمرء أن ينتقد وضـوح التعريف أو يتضـاءل ما اذا كان يستخدم بشـكل مناسب ، ولكن ليس هنـاك مجال لانتقـاد عـدم صحة هـذا التعريف . فالتعريف هو الشىء الذى يقـول بـه من يقـوم بالتعريف . ولو نظرنـا الى التعريفات التصوريـة التى تزيد من قـدر الاتصال لوجدنا أنها تشترك فى الخواص الاساسية التالية :

* التعريف يجب أن يدل على السمات أو الصفـات المميزة للشىء الذى يتم تعريفه . كما يجب أن يكون مشتملا لجميـع الاشياء التى ينسحب عليهـا ، وفى نفس الوقت ، يجب أن يكون قاصرا عن جميـع الاشياء التى « لم » يعبر عنها .

* التعريف لا يجب أن يكون دائريـا ، بمعنى أنـه هو نفسـه لا يجب أن يشتمل على أى جـزء من الشىء الذى يتم تعريفـه . فتعريف « الانثى » بأنها شخص لـه صفـات أنثوية ، أو « القـوة » بأنها صفـة يشـترك فيها الاقويـاء ، ليس بالتعريف الذى يزيد من قـدر الاتصال .

* التعريف يجب صياغته بشـكل ايجابى كلما أمكن ذلك . فتعريف « الذكاء » بأنه خاصية تفتقر الى اللون ، والوزن ، والشخصية ، من الواضـح أنه تعريف لا يسـهم فى عمليـة الاتصال لان هنـاك أشـياء أخرى كثيرة تفتقر الى اللون والوزن والشخصية .

* التعريف يجب صياغته فى ألفاظ واضحة لا يشوبها اللبس . فلفظ مثل « محافظ » يعنى أشياء مختلفـة بالنسبة لمختلف الناس ، وما لم يكن هنـاك اتفـاق على معنـاه ، فلا يجب استخدامه فى مجال التعريف .

التعريفات العمليـة :

غالبا ما يكون الامـر أن الخواص أو الاحـداث التجريبية التى تمثلهمـا المفاهيم هى أشـياء لا يمكن مشاهدتهـا بشـكل مباشر . فتعريفات مثـل « القوة » ، « الحرمان النسبى » ، « الذكـاء » « الرضا » ، وكذلك الخواص غير السلوكية ، بشكل عام ، (مثل المدركات ، القيم ، المواقف) كلهما أشـيا ء لا يمكن مشاهدتها بطريقة مباشرة . وفى مثل هذه الحالات ، فان معرفـة الوجـود التجريبى لمفهوم ما يكون عن طريق الاستدلال . والاستدلالات من هـذا النوع تتم بالتعريفات العمليـة . ومن خلال التعريفات العمليـة يتم اكتسـاب المفاهيم المراجع التجريبية لهمـا .

والتعريف العملى هو مجموعة من الاجراءات التى تصف الانشطة التى يجب أن يقوم بها المرء لكى يؤسس وجود أو درجة وجود مفهوم ما من الناحية التجريبية . ومن خلال مثل هذه التعريفات تتحدد معانى المفاهيم ، فالتعريفات العملية تفصح عن الإجراءات الإختبارية التي توفر المعايير من أجل التطبيق التجريبى للمفاهيم . وهكذا تقوم التعريفات العملية بعبور مستوى التصور - النظرى بمستوى المشاهدة - التجريبية . فهى تقول « ماذا تفعل » و « ماذا تشاهد » لكى يتم تعريف الظاهرة فى حدود المجال الخاص بتجربة الباحث : « ليس من المفترض فى الشىء أو الصفة التى يتم تعريفها أن يكون لها وجود مسبق . بل الاحرى أن وجودها أو حقيقتها ينشأ من العمليات التى يتحقق أداؤها وتسكن فيما يتم مشاهدته من مغايرات » .

أما فكرة التعريفات العملية فقد ظهرت على يدى المدرسة العملية فى التفكير وكما تمثلت فى أعمال عالم الطبيعة « ب.و. بريدجمان F.W. Bridgman لقد كانت فكرته الرئيسية هى أن « معنى كل » مفهوم علمى يجب أن يكون قابلا للتحديد ، بتحديد عملية اختبارية محددة تعطى معيارا معينا لتطبيقه . بمعنى أى مفهوم يتحدد كاملا ويقتصر عليه بالتعريف العملى لـه . وكما جاء فى كلمات بريدجمان :

> « ان مفهوم الطول يثبت عندما تثبت العمليات التى يقاس بها الطول : أى أن المفهوم الخاص بالطول يتضمن تماما ولا شىء أكثر من مجموعة العمليات التى يتقرر بها الطول . وبصفة عامة ، فان ما نعنيه من أى مفهوم هو شىء لا يزيد عن كونه مجموعة من العمليات ، فـ « المفهوم هى شىء مرادف لمجموعة العمليات المقابلة لـه » .

وبهذا ، فان التعريف العملى لـ « الطول » سوف يكون محددا لاجراء يتضمن استخدام المسطرة لتحديد طول المسافة بين نقطتين . كما أن أى تعريف عملى لـ « الوزن » سوف يحدد « كيفية » تقرير الوزن بواسطة اداة ملائمة كالميزان مثلا . وبالمثل ، فان تعبير مثل « أشد صلابة من » لو طبقناه على المعادن ، مثلا ، يمكن أن نعرفه عمليا كالتالى : « لكى تتقرر ما اذا كان المعدن (م١) أشد صلابة من المعدن (م٢) خذ قطعة حادة من المعدن (م١) ومر بهـا ضاغطا على سطح قطعة من المعدن (م٢) (عملية اختبار) ، عندئذ سوف يقال ان (م١) أشد صلابة من (م٢) فيما لو نتج خدش من عملية الضغط (نتيجة اختبار محددة) » كذلك لو أخذنا تعريفا عمليا للفظ « الذكاء » تجد أنه يشتمل على اجراء اختبار طبقا لمواصفات

معينة ، ونتائج الاختبار هى عبارة عن استجابات الافراد موضع الاختبار أو المجمل الكمى للاستجابات .

والبناء الخاص بالتعريفات هو بناء مستقيم . فنحن مثلا اذا طبقنا المنبه المعين (م) على شىء ما ، الذى ينتج عنه رد فعل معين (ر) ، وهذا الشىء يملك الخاصية (خ) ، فهذا يعتبر تعريفا عمليا . وفى المثال الاخير عن الذكاء ، ثم تطبيق اختبار الذكاء (المنبه) على المستجيبين الذين نتج عنهم نتائج الاختبار (ر) وبذلك تم الاستدلال على الذكاء (خ) من ، أو تم تعيفه بـ ، نتائج الاختبار .

ان الكثير من المفاهيم التى استخدمها علماء الاجتماع قد تم تعريفها فقط بناءا على شدة ردود الفعل تجاه منبهات او ظروف أو مواقف معينة لان تناول الافراد أو الاحداث من الناحية الجسمانية اما انه أمر مستحيل واما أنه عمل غير اخلاقى . وحتى لو استطعنا أن نتناول الافراد من خلال عمليات معينة ــ ولتكن حث مشاعر الخوف فى وضع معملى ــ فان هذا العمل سوف يتضمن عددا من المشاكل الاخلاقية الخطيرة ، بما فى ذلك حق العلماء فى أن يقوموا بهذا العمل وكذلك الحقوق الشخصية للافراد الخاضعين للبحث . (المشاكل الاخلاقية الواردة فى مجال البحث فى العلوم الاجتماعية تمت مناقشتها فى الفصل الثالث عشر) . ولهذا ، ففى مثل هذه الحالات ، يتم تعريف المفاهيم عمليا بناء على ردود فعل تجاه منبهات معنية ، وذلك عن طريق الاختبارات ، أو الاستبارات أو تجميع المؤشرات ، وهى الاشياء التى ستخضع للمناقشة فى فصول تالية .

مثال : التعريفات الخاصة بالتغرب :

ولنرى الآن كيف أمكن الوصول من الناحية التجريبية الى ذلك المفهوم المجرد والمعقد تماما « التغرب » . فى احد الاعمال الرائدة ، ذلك الذى قام به ميلفين سيمان Melvin Seaman ، ذكر أن التصور لمفهوم التغرب فى أدب المادة كان هو « الاحساس بحدوث شرخ يؤدى الى انقسام ما كان متماسكا ذات مرة ، اى انكسار القالب الصلب الذى كانت تصب فيه يوما القيم والسلوك والآمال فى اشكال ذات وشيج محكم » . وقال سيمان أن هذا التصور يضفى خمسة معانى على مفهوم التغرب ، ومن ثم يضع أمامنا خمسة تعريفات تصورية :

١ ــ العجز ــ أن التوقع من جانب الافراد بأن سلوكهم لا يستطيع أن يحكم وقوع المحصلات أو مدد القوة التى يصبون اليها .

٢ ــ الخواء ــ ادراك الافراد أن الحد الادنى من معاييرهم فى سبيل الوضوح فى صنع القرار لم يتم استيفاءه .

٣ ــ انعدام المعايير ــ قدر كبير من التوقع بأن جوانب السلوك التى لا يقرها المجتمع مطلوب منها أن تحقق أهداف معينة .

٤ ــ العزلة ــ اضفاء قدر ضئيل من ثواب القيمة على القيم والمعتقدات التى يعطيها المجتمع تقليديا قيمة عالية .

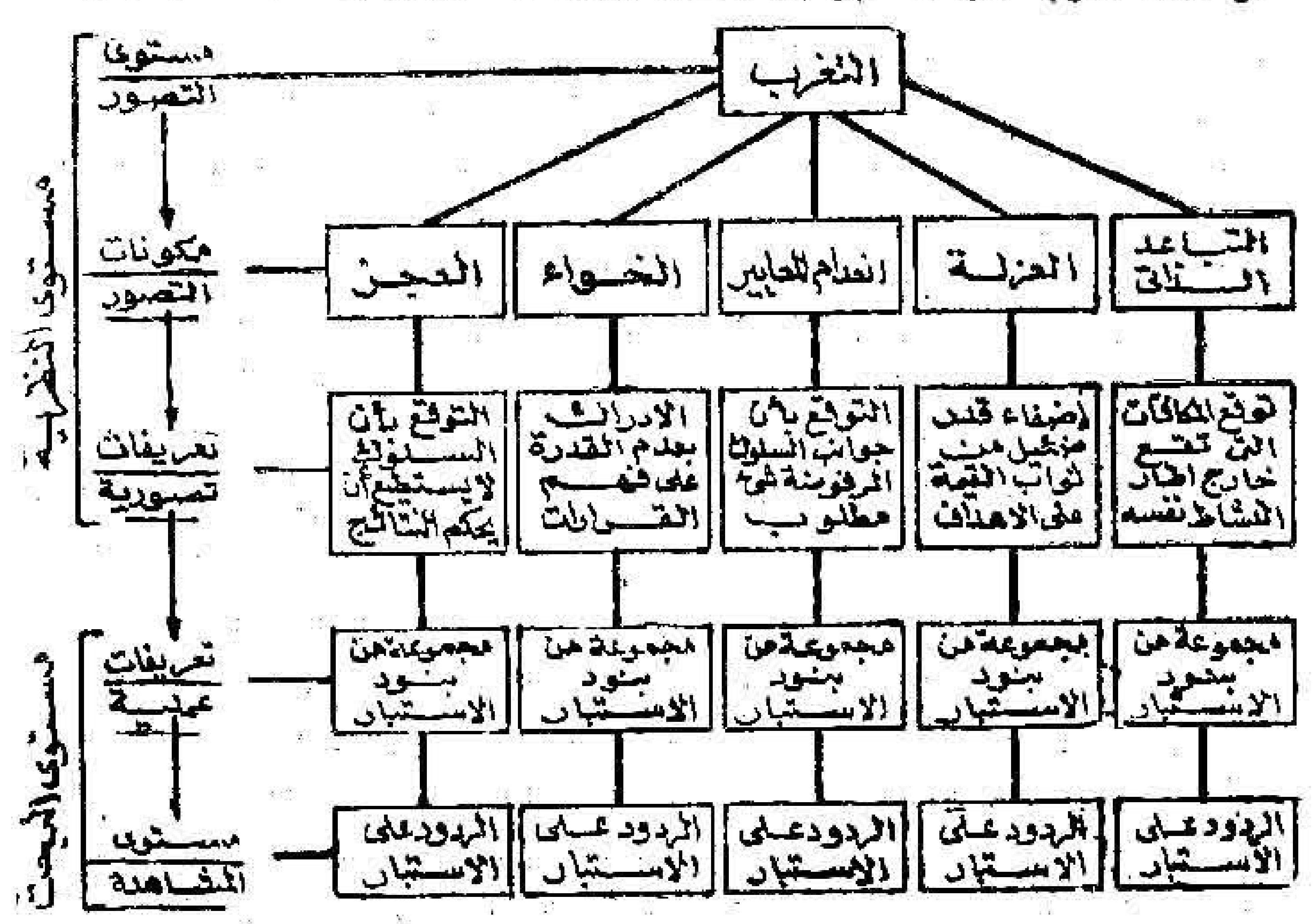
٥ ــ التباعد الذاتى ــ درجة اعتماد السلوك المعين على مكافآت المستقبل المتوقعة التى تقع خارج حيز النشاط نفسه .

وفى الابحاث التالية ، تم تعريف هذه المفاهيم الخمسة ، أو أبعاد التغرب ، من الناحية العملية بوضع بنود الاستبار كل بعد من هذه الابعاد . وكانت استجابات الافراد تجاه الاستبار بأكمله هى التى حددت الوجود التجريبى لكل بعد من الابعاد الخمسة . وكسبيل للوصول الى التعريف العملى لـ « العجز » استخدم السؤال التالى : « افرض أن مدينتك قد اعتبرت كقاعدة أنك شخص شديد الظلم أو الاذى ، ماذا تعتقد أنك تستطيع أن تفعل ؟ » . ولقد تم تعريف الافراد الذين أجابوا بأنه ليس فى قدرتهم فعل شىء بمثابة أفراد عاجزين . أما الاسئلة الاخرى التى استخدمت لتعريف العجز عمليا فكانت : (أ) انك لو بذلت جهد ما لتغيير هذه القاعدة ، فما هو احتمال نجاحك ؟ (٢) اذا ما نشأت مثل هذه الحالة ، فما هو الاحتمال فى ان تقوم فعلا بعمل شىء حيال ذلك ؟ (٣) هل فى امكانك أبدا محاولة التأثير على قرار محلى ؟ (٤) افترض أن الكونجرس كان يدرس قانونا أنت تؤمن بأنه شديد الظلم أو الاذى ، فماذا تعتقد فى أمكانك أن تفعل ؟ (٥) هل فى قدرتك أبدا محاولة التأثير على أى قرار من الكونجرس ؟

والشكل رقم ١٠٢ يصور لنا عملية التحول من مستوى التصور الى مستوى المشاهدة ، باستخدام مثال التغرب . ومفهوم التغرب لا يمكن مشاهدته بشكل مباشر ، لكن يمكن الاستدلال على وجوده التجريبى . ولكى ننشىء وجوده التجريبى ، علينا أولا أن نرسم حدود مكوناته او أبعاده المتصورة . سوف نجد أن هناك خمسة أبعاد مميزة للتغرب ، كل منها تحدد التصور الخاص به ، والتعريفات التصورية تدل على حقيقة أن الابعاد تشير الى مظاهر تجريبية مختلفة . بعد ذلك ، تم وضع التعريفات العملية ، وهى فى هذا المثال بنود الاستبار . وبنود الاستبار تخدم الغرض فى تحويل التعريفات المتصورة الى مستوى المشاهدة . وأخيرا ، يتم ضبط بنود الاستبار (التعريفات العملية) ، ومن الردود على بنود الاستبار نستدل على مدى وجود الابعاد الخمسة للتغرب على المستوى التجريبى .

مشكلة التطابق :

مع عملية التحول من مستوى التصور الى مستوى المشاهدة ـ التجريبية تنشأ أمامنا قضيتان هامتان . الاولى تتصل بدرجة التطابق بين التعريفات التصورية والتعريفات العملية . فمثلا ، لو كان التصور لمفهوم « الذكاء » قد تم تعريفه على أنه « القدرة على التفكير بشكل مجرد » ، ثم تم تعريفه عمليا عن طريق اختبار الذكاء ، فما هى درجة التطابق بين التعريفين ؟ وهل النتيجة المحققة من فرد معين فى أحد اختبارات الذكاء تمثل كل شىء يتضمنه المتصور لـ « الذكاء » ؟ ان هذه الدرجة من التطابق بين التعريفين يمكن تقويمها بمساعدة إختبارات



الإنتقال من مستوى التصور الى مستوى المشاهدة : حالة التغرب .

شكل رقم (٢) حالة التغرب الانتقال من مستوى التصور الى مستوى المشاهدة

الصلاحية التى ناقشناها فى الفصل السادس . وفى مرحلتنا هذه يجب أن نوضح أنه ليس هناك معايير مطلقة لاختبار عملية التطابق ، ومن الممكن فى الواقع أن توجد حالات لا يستطيع فيها التعريف العملى أن يستنفذ كافة جوانب التشعب التى يتضمنها التعريف التصورى . ومن هنا فان تحسين التعريفات العملية وتوسيع درجة التطابق بينها وبين التعريفات التصورية يشكل تحديا هاما لعلماء الاجتماع .

الفحوى النظرى :

القضية الثانية المتضمنة فى سألة التحويل من مستوى التصور الى مستوى المشاهدة تنشأ عندما لا يمكن تعريف المفاهيم من الناحية العملية ؛ أى لا يمكن مشاهدتها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر . فمثلا ، الـ « أنا » ، « عقدة أوديب » ، « المادية الجدلية » ، « الوعى الباطن » ، « الفائدة الحدية » ، « الصالح العالم » كلها مفاهيم لم يتم وضع تعريفات عملية مرضية لها حتى الآن .

ووفقا للمدخل العلمى الاتوذكس ، فان المفهوم الذى لا يمكن تعريفه من الناحية العملية (على الاقل من ناحية المبدأ) لا يجب استخدامه فى مجال البحث العلمى لانه يكون غير قابل للخضوع لعملية التحقق الذاتى الداخلى . ومثل هذا المفهوم يؤدى بالضرورة الى بحث لا معنى له ، فالمعنى العلمى لمفهوم ما يمكن الوصول اليه فقط بانشاء مجموعة من العمليات (أدوات المشاهدة) ، وأن تعرف هذه العمليات هو أن تفهم ذلك المفهوم وأن تكون قادرا على تقصى الظاهرة التى يمثلها من الناحية التجريبية . ومن الناحية التاريخية فان هذا المدخل قد حقق تلك الوظيفة الهامة الخاصة بتأكيد الاهتمام التجريبى — أى تمييز الحدود الفاصلة بين ما هو فيزيقى وما هو ميتافيزيقى . ولكن عند الوصول بالمدخل العملى الاورثوذوكس الى منتهاه ، فهو يصبح لغزا .

ان المفاهيم العلمية لا يجب أن تقيم فقط من منطلق قابليتها للمشاهدة بل أيضا من منطلق فحواها النظرى ، أى أن بعض المفاهيم تكتسب معناها فقط فى مضمون السياق النظرى الذى ترد فيه . فمثلا ، لو أخذنا مفهوم « الخروج عن القاعدة » لوجدنا انه يكتسب معناه كاملا فى سياق نظرية الانتحار لدوركايم ، وكذلك مفهوم « الانا » يكتسب معناه فى سياق نظرية التحليل النفسى ، ومفهوم « الصالح العام » لا يمكن اخذه بمنحى عن نظرية الديموقراطية . ولقد أدت فكرة كارل هيمبل Carl Hempel عن « الفحوى النسقى » الى التأثير على مجرى الممارسة الحالية :

> « أن النسقية العلمية تتطلب روابط متباينة ، عن طريق القانون أو المبادىء النظرية ، بين المظاهر المختلفة للعالم التجريبى ، والتى تتسم بمفاهيم علمية . وبذلك ، تكون مفاهيم العلم هى العقد فى شبكة من العلاقات النسقية المتداخلة ، حيث القوانين والمبادىء النظرية تشكل الخيوط فيها . . وكلما تقاربت الخطوط عند احدى عقد التصور ، أو تجمعت قضية منها ، كلما كان دورها التنسيقى أو فحواها النسقى اكثر قوة » .

وتقييم المفاهيم العلمية لا يتم فقط بالرجوع الى قابليتها للمشاهدة ، ولكن لابد أيضا من وضع فحواها النظرى موضع التقدير :

« ان الفحوى التجريبى كما ينعكس فى معايير واضحة للتطبيق ، وهى التى يضع عليها المذهب العملى الكثير من التركيز ، ليس هو فقط بغية المطلوب للمفاهيم العلمية : فالفحوى النسقى يعتبر هو الآخر من المتطلبات التى لا غنى عنها — لدرجة أن التفسير التجريبى للمفاهيم النظرية قد يتغير لصالح رفع القدرة النسقية لشبكة العمل النظرية . وفى عمية الاستقصاء العلمى ، فان تكوين المفهوم وتشكيل النظرية يجب أن يذهبا معا جنبا الى جنب » .

وبمعنى آخر ، المفاهيم تكتسب معناها التجريبى من خلال التعريفات العملية كما تكتسب معناها النظرى فى اطار السياق الخاص بالنظرية التى تستخدم فيها هذه المفاهيم . ان النظرية ، كما اتضح من الشكل ١٠١ ، تلعب دورا حيويا ومركزيا فى عملية البحث . فهى لا تعتبر فقط مجرد مصدر هام تتولد عنه المسائل والفرضيات النظرية ، كما جاء فى المناقشة فى الفصل الثالث ، بل أن معنى ومغزى بعض المفاهيم يرد تفسيرهما فى سياق النظرية أيضا .

النظرية : الوظائف والانماط :

بعد أن انتهينا من مناقشة المفاهيم ، وكل من التعريفات التصورية والعملية ، وفكرة الفحوى النظرى ، نعود الآن مرة أخرى الى الموضع الذى تحتله النظرية فى مجال البحث التجريبى . وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع يتفقون على أن احدى الوظائف الاكثر أهمية للبحث التجريبى هى الاسهام فى تطوير وتنقيح النظرية ، وأن النظرية ترفع من قدر الاهداف التى يصبو اليها العلم ، الا أنهم لا يتفقون كثيرا حول ما هى النظرية . ومن الاقوال التى جاءت عن النظرية ما عبر به جورج هومانز George Homans عن ملاحظاته التالية عن وضع النظرية فى مجال السوسيولوجى : « لقد شغل رجال الاجتماع المعاصرين أنفسهم بـ « النظرية » ، ومع ذلك ، فنادرا ما حاولوا توضيح « ما هى » النظرية . . . ونحن رجال الاجتماع نظهر ما نحن فيه من بلبلة حول طبيعة النظرية سواء بما نقوله عن النظرية بصفة عامة أو بأنواع النظريات التى نخرجها بالفعل » . ومثل هذه العبارات قالها علماء الاجتماع فى الانظمة الاخرى .

والنظرية تعنى اشياءا مختلفة لعديد من الناس . فبعض علماء الاجتماع قد يعرفون النظرية وفقا لأى نوع من انواع التصور . فعندما تم

تعريف مفاهيم مثل « القوة » « المكانــة الاجتماعية » ، « الديموقراطيــــة » ، « البيروقراطية » « الحرمان النسبي » ، وتم استخدامها فى تفسـير وشرح الظواهر التجريبية ، فقد تم مســاواتها ومعادلتهــا بالنظرية . وبهذا المعنى ، فان أى تصــور بوضعه مقابل المشــاهدة يعتبر نظرية . وهناك علماء اجتماع آخرون يعادلون النظريـــة بـــ « تاريخ الافكار » وهناك غيرهم يرون النظريــة بمفهوم ضيق على أنهـــا : نســق « استدلالى ـــ منطقى » يشــتمل على مجموعة من المفاهيم المتصلة ببعضها والتى يمكن الاستدلال منها على فــروض يمكـــن اختبارهـــا . ولذلك وقبل أن نناقش ماهيـــة النظريـــة وما هى الانمـــاط الشــائعة منها فى العلوم الاجتماعيـــة ، قد يكـــون من المفيـــد ان نشير الى ثلاثة مفاهيم خاطئة شـــائعة عن النظرية .

ما ليس بنظرية :

عادة ما يقوم الشخص غير المتخصص بمقابلة « النظرية » بـــ « التطبيق » . والقول المأثور بأن « كل شيء حسن فى النظريـــة ولكنـــه لا يصلح فى التطبيق » يكنى فى مضمونه الفكرة بأن النظريـــة شىء غير واقعى . وطبقـــا لقـــول ارنولد بريخت Arnold Brecht ان العلاقـــة بين التطبيق والنظريـــــة يستبين جيدا فى القـــول الشـــائع بأن افضل ما نتعلمه يتم من خلال « المحاولـــة والخطـــا » . فالمحاولة هى الممارســـة ، اما الخطأ فيشير الى النظرية ، وعندما تخيب النظرية فى المحاولات العملية فهى تحتاج الى التصويب ... » . ومـــع ذلك ، فان النظريـــة تكون « بـــ » التطبيق ، وبهذا المفهـــوم ســـيقوم العلمـــاء بقبولها أو رفضهـــا وفقا لقابليتهـــا للتطبيق مع العلم فقط بأن منهج وسياقات تطبيقهـــا (الممارســـة) تظهر بشـــكل منطقى وواضـــح . أما من ناحيـــة المبدا ، فليس هناك تعارض بين النظريـــة والتطبيق . فالنظريـــة السليمة هى الاساس الادراكى لمعرفـــة يعتد بهـــا ، فالنظريـــات تساعدنا فى تفســـير والتنبؤ بالظواهـــر التى تمثل اهميـــة لنـــا ، وبالتالى ، تساعدنا فى اتخـــاذ قرارات عمليـــة ذات اساس سليم .

مفهوم آخـــر خاطىء فيما يتعلق بالنظريـــة ينجم عن احلال « النظريـــة » كبديـــل عن « الفلســـفة » ، وبذلك تعتبر الكتابات الخاصـــة بأصحـــاب المعرفة الكلاسيكيين من أمثال افلاطون وارسطو ولوك وماركس وبارتيو بمثابة « نظريـــة » . وفى الحقيقـــة ، فقبل الحرب العالميـــة الثانية ، كانت النظريـــة فى العلوم الاجتماعيـــة يقتصر مدلولها تقريبـــا على الفلســـفة بأشـــكالها المتعددة ، مع تركيز خاص على الفلســـفة الاخلاقيـــة ، أى على ما « يجب » أن تكون عليـــه الاشـــياء . وربما يعتبر ما قدمه افلاطـــون عن الدولة المثالية ، حيث توصف فيها المعرفـــة المطلقة للفيلسوف ـــ الملك بأنها المعيار للسلوك السياسى والاجتماعى ، هى اكثر الامثلة المعروفة فى هذا الصدد .

والفلسفات الاخلاقية هى التى تقرر الاحكام الخاصة بالقيمة . وهى ليست بالصحيحة ولا بالزائفة لانهـا أشياء لا يمكن التحقق منها تجريبيـا . فاذا ما كان هناك شخص يؤمن بشدة أن الرأسمالية هى أفضل نسق اقتصادى ، فلا يمكن لاى قدر من الدلائل التجريبية أن يثبت أو ينفى ما يؤمن بـه هذا الشخص . اما النظريات العلمية فهى ، بعكس الاعمال الفلسفية ، بمثابة تجريدات تمثل مظاهر معينة من العالم التجريبى ، فهى تهتم بـ « كيف » و « لماذا » فى الظواهر التجريبية .

أنمـاط النظرية :

ليس هناك تعريف سهل وبسيط للنظرية يمكن أن يتفق عليـه كافـة علماء الاجتماع . والسبب فى هذا أن هناك أنواعـا كثيرة مختلفـة من النظريـات تخدم أغراضا مختلفة . وفى هذا ، قال داميدايستون ، على سبيل المثـال ، أن يمكن توصيف النظريات وفقـا « لمداها » ـ ما اذا كانت نظريـات كبيرة أم صغيرة ، أو وفقـا لـ « وظيفتها » ـ ما اذا كانت تسعى للتعامل مع الاشيـاء الجامدة أم الدناميكية ، مع البنـاء أم العمليـة ، أو وفقـا لـ « بنائهـا » ـ ما اذا كانت انساقا فكرية تتعلق بالمسلمات ذات علاقـات داخلية منطقيـة وثيقـة الصلة ، أو ما اذا كانت تشـكل مجموعة من الفرضيـات ذات التحديد الفضفاض بشـكل أكبر ، و وفقـا لـ « مستواها » ـ « بعلاقـة الانسـاق السلوكية التى تدل عليهـا من حيث ترتيبها فى أحـد التدرجات الهرمية » . وتوصيفنا هذا قائـم على التمييز الذى أجـراه بارسونز Parson وشيلز hils بين « مستويات » أربعة للنظريـة : أنسـاق تصنيفية لغرض خاص ، تصنيفات طبقا للاجناس ، اطارات عمل تصورية ، انسـاق نظريـة (وهناك مسـتوى خامس ، الانساق التجريبية ـ النظرية ، يتميز بشـكل متعسـف عن الانساق النظرية بامتلاكه لقاعدة تجريبية محددة) .

الانساق التصنيفية لغرض خاص :

هذا النـوع من الانسـاق يشتمل على تبويبات تعسـفية تم وضعهـا لكى تنظم وتجمل المشاهدات التجريبية ، فمثلا ، لو اخذنـا التصنيف الخـاص بردود الافراد على بنـد الاستبار « كافـة الجماعات يمكنهـا العيش فى حالة توافـق وانسجام فى هذا البلد دون تغيير للنسق بأى شـكل » الى التبويبات الاربـع « أوافق بشدة » ، « أوافق » ، « لا أوافق » ، « لا أوافق بشـدة » ، نجد أنـه يشـكل نسقا تصنيفيا لغرض خاص .

التصنيف طبقا للاجناس :

المستوى الثانى من النظرية هـو « النسق التبويبى » هذا المستوى يتكون من نسق للتبويبات وضع لكى يناسب المشاهدات التجريبية بحيث تكون هناك امكانية لوصف العلاقات بين التبويبات . وغالبا ما يكون هناك تبعية متبادلة بين التبويبات بحيث أن عملية التصنيف فى أحد التبويبات تستدعى معالجة تصورية فى تبويب آخر . والتصنيف بالنسبة للاجناس يحمل علاقة وثيقة بالعالم التجريبى ، وبهذا المعنى فان التبويبات تعكس واقع الحقيقة الموصوفة . وتحليل بارسونز للفعل الاجتماعى يعطى مثلا عن هذا المستوى من النظرية ، ففى رأى بارسونز أن السلوك له أربعة خواص : فهو موجهه نحو هدف ، يحدث فى مواقف ، منظم تبعا لقوالب معيارية ، ويتضمن انفاقا للطاقة . فالسلوك عندما يكون غاية فى التنظيم ، يقال انه يشكل نسقا اجتماعيا اكثر من هذا أن الانساق الاجتماعية تأخذ ثلاثة اشكال : أنساق الشخصية ، انساق ثقافية ، أنساق اجتماعية . ولقد قام بارسونز بتعريف هذه التبويبات السبع بدقة وعناية ثم بعد ذلك قام ببسط وشرح العلاقات المنطقية المتبادلة بينها . وأخيرا ، ثم تحقيق التوافق للمشاهدات التجريبية لكى تتناسب مع التبويبات الموضوعة .

والتصنيفات طبقا للاجناس تحقق وظيفتان هامتان فى مجال البحث الخاص بالعلوم الاجتماعية . فهى عن طريق التعريفات الدقيقة تقوم بتحديد خاصية وحدة الواقع التجريبى التى سيتم تحليلها كما تبين كيف يمكن وصف هذه الوحدة (وهى فى تصنيف بارسونز ، الانساق الاجتماعية) . والهدف من تصنيف من هذا النوع .

> « هو وضع تصور لخطة منظمة لعمليتى التصنيف والوصف ... فعند مواجهة اى موضوع للبحث ، يستطيع (المرء) فى الحال أن يتعرف على جوانبه أو متغيراته الحاسمة باستخدام تصنيفه الجنسى كنوع من « قائمة المشتروات » . وحتى يمكن « اختبار » تصنيفه هذا ، فهو يلقى بنظرة جديدة على الموضوع x ويبين أن العبارات العامة التى تحدد أبعاده لها نظائر مميزة فى x » .

أما الوظيفة الثانية لهذا التصنيف فهى انه « يجمل ويبعث الالهام فى الدراسات الوصفية » ، كتلك التى تعنى بالتوزيعات التجريبية لواحد أو أكثر من تبويبات التصنيف . ومع ذلك ، فان التصنيفات طبقا للاجناس لا تعطى تفسيرات ، ولكنها فقط تصف الظواهر التجريبية بجعلها

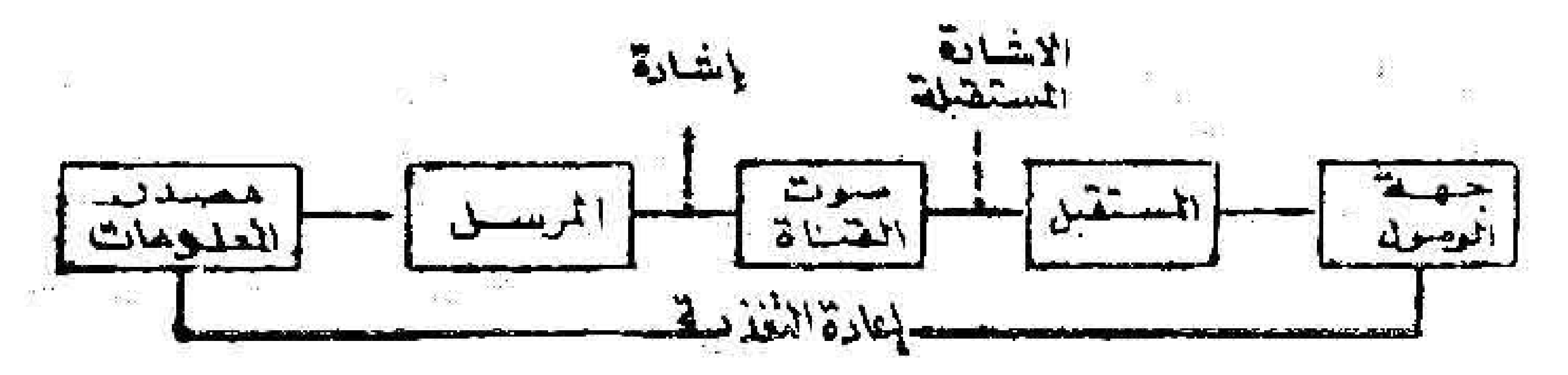
تتوافق فى مجموعة من التبويبـــات . فكونك تعرف المفاهيم التى تمثل الظواهـــر (كالانفاق الحكومى ، مثلا) وتوزيماتهـــا (ما تم انفـــاقه على البنود المختلفة) ليس معناه تفســـير الظواهـــر أو التنبؤ بهـــا (فمثلا ، لماذا تقوم الحكومة بانفاق قـــدر أكبر مما تنفقه على التعليم) .

اطارات التصـــور :

المستوى الثالث للنظريـــة هو اطـــارات التصـــور . وهنا تكون التبويبات الوصفيـــة قـــد أخذت مكانهـــا بطريقـــة نسـقية داخل بنـــاء واســـع مـــن الاقتراحات القاطعة وكذلك المفترضـــة . ونظرية الاتصال يمكن أن تخدمنا هنا كمثال عن اطارات التصـــور . فلو أخذنـــا مفاهيم مثل « اثـــارة الارســـال » ، « جهة الوصول » ، « شبكة الاتصال » ، نجد أنها مفاهيم تستخدم لتحليـــل وتفســـير مشـــاهدات تجريبية ، وان صـــورة نســـقية للعـــالم قد أصـــبحت مفترضـــة . ومع ذلك ، مازال الاطـــار غير دقيق تماما بحيث يســـمح بالاستخراج النسقى للاقتراحـــات ، وان كانت الاستدلالات ممكنـــة . وعلى الرغم من أن عمليـــات التحقق التجريبى فى اطـــارات التصـــور ذات نوعيـــة متعددة ، الا ان التفاعل موجود بين الاطـــار والمشاهدات التجريبية .

والشـــكل رقم (٢) يوضـح لنـــا احدى صـــور نظريـــة الاتصـــال — السبرنطيقا . وفى هذا الاطـــار الموضـــح فى الشـــكل نجـــد المفاهيم المركزية هى « مصور المعلومات » ، « جهاز الارسال » ، « صـــوت القنـــاة » ، « المستقبل » ، « جهة الوصول » والرأى ان هذه المفاهيم تتصـــل فى سلسلـــة متتابعة باعـــادة التغذيـــة محققة بذلك وظيفـــة الاستمرار . وفى هـــذا يطرح عدد من المقترحات المختلفـــة لتفســـير كيفيـــة نقـــل الرسائل ، وكيف يمكن رفع عنصر الكفـــاءة ، ثم لماذا تقـــوم أنساق الاتصال نفسها عند استقبال اعـــادة التغذيـــة .

اطـــار التصـــور هذا يتعدى التصنيف الخاص بالاجناس لان المقترحات الواردة فيه تجمل وتعطى التفســـيرات والتنبؤات لقـــدر أوســـع من المشاهدات التجريبية . وفى العلوم الاجتماعيـــة نجد أن الكثير مما يعتبر نظريـــة يتكون من اطارات للتصـــور تكون بمثابة دليل يوجـــه عمليـــة البحث التجريبى النسقى . وعلى أية حـــال ، فان الاقتراحات المستخرجة من اطـــارات التصـــور ليست بالتى يتم التوصـــل اليها بنـــوع من التدقيق وبطريقة استنباطيـــة . ويترتب على ذلك ، أن قوتهـــا التفسيرية والتنبؤيـــة تكون محدودة ، كما ينعدم نفعهـــا فى مجال البحث المستقبلى . والمثال على ذلك ، أن قضايا مثل عمليـــة الاتصال الخاصـــة بالقصد والادراك والتفســـير للرسائل من جهـــة المستقبلين لا يمكن تفســـيرها بشـــكل فعال باطـــار التصور الممثل فى الشكل رقم ٢٠٢ .



شكل رقم ٣
اطار التصور لعملية الاتصال

الانساق النظرية :

الانساق النظرية تقدم لنا تراكيب من تصنيفات الاجناس واطارات التصور ، وان كانت الاوصاف والتفسيرات والتنبؤات هنا تمتزج معا بطريقة بطريقة نسقية . وعند هذا المستوى نجد أن النظرية تواجه التعريف الكلاسيكى الضيق لها بأنها : نسق من الاقتراحات التى تتصل بعضها بطريقة تسمح باستخراج البعض منها من الاخرى . وعندما يتواجد مثل هذا النسق النظرى ، يستطيع علماء الاجتماع الزعم بأنهم قد فسروا وتنبؤا بالظواهر الماثلة أمامهم .

والنسق النظرى هو نسق يوفر بناءا من التفسيرات الكاملة للظواهر التجريبية ، لا تقتصر مجاله على جانب معين . وهذا النسق يتكون من مجموعة من المفاهيم ، بعضها « وصفى » ، يبين الشيء الذى تدور النظرية حوله (مثل « الحرمان النسبى » ، « الانتحار » « المشاركة السياسية ») ، وبعضها الآخر ذو خواص «عملية» أو تجريبية (مثل « مدى » الحرمان «النسبى» ، « معدل الانتحار » ، « حدوث » المشاركة السياسية ») . وهذه الخواص يطلق عليها « متغيرات » (وفى الفصل الثالث مناقشة مستفيضة عن المتغيرات وأنماطها) النسق النظرى أيضا يشتمل على مجموعة من « الافتراضات » ، أى طروح للعلاقات بين اثنان أو أكثر من الخواص التجريبية التى يمكن التحقق منها أو دحضها ، ومثل هذه المجموعة من الافتراضات تشكل « نسقا استنباطيا » ، وبكلمات أخرى ، يمكن القول أن هذه الافتراضات تشكل نوعا من « حساب التفاضل » ، وطبقا لقواعد استخدام هذا النوع من الحساب أن بعض الافتراضات يمكن استنباطها من افتراضات أخرى . وعندما يتم استنباط الافتراضات بهذا الشكل ، يقال أن التفسير لها قد تم وأنها تعطى تنبؤات . وأخيرا ، أن بعض الافتراضات الخاصة بأحد الانساق النظرية يجب أن تكون « اتفاقية » بمعنى أن « التجربة تتعلق بصدقها أو بزيفها أو بصحة أو زيف الافتراضات المستخرجة منها » ، وذلك لان قبول أو رفض الانساق النظرية يعتمد ، فى الواقع ، على ما اذا كانت الافتراضات الخاصة بها صحيحة أو زائفة من الناحية التجريبية .

وفى هذا الصدد يمكن الاخذ بنظريــة دوركايم Durkheim عــن الانتحــار ، كما عرضــها جــورج هومانز ، باعتبارهــا مثالا كلاسيكيا مــن النســق النظرى :

١ — فى أى تجمع اجتماعى ، يتغير معدل الانتحــار بشــكل مباشر مع درجـــة الفرديــة (الوجود الذاتى) .

٢ — درجة الفردية تتغير مع وقــوع البروتستانتية .

٣ — وبالتالى ، فان معدل الانتحار يتغير مع وقــوع البروتستانية .

٤ — وقوع البروتستانتية فى اسبانيا منخفض .

٥ — وبذلك ، يكون معدل الانتحار فى اسبانيا منخفض .

فى هذ المثال ، الافتراض رقم ٣ مستنبط من الافتراضين رقم ١ و ٢ ، والافتراض رقم ٥ مستنبط من ٣ و ٤ . اكثر من ذلك ، أن الانســان ، مثلا ، اذا لم يكن يعرف ماهو معدل الانتحــار فى هولندا ، بل لم يكن يعرف أن وقــوع البروتستانتية كان منخفضــا ، فان هــذه الملحوظة ، مع الافتراض رقم ٣ ، ســوف يتيح لــه التنبؤ بأن معدل الانتحار كان أيضــا منخفضــا . وبهذا ، يقــوم النســق النظرى باعطائنــا تفســيرا وتنبؤا بمعدلات الانتحــار .

النظرية البدهيــة :

من اشــكال الانســاق النظرية التى تستحق عرضها بشــكل خاص هى النظرية « الرســمية » أو « البدهيــة » . والنظرية البدهية تشتمل على الآتى :

١ — مجموعة من المفاهيم والتعريفات — تصورية وعملية .

٢ — مجموعة من العبــارات الكيانيــة التى تصف المواقف التى يمكن تطبيق النظرية فيها .

٣ — مجموعة من العبارات الرشيدة ، مقسمة الى :

أ — البدهيات — عبارات أو افتراضات غير قبلة للاختبار ومفترض أنها صادقة ، فمثلا ، البدهيات الهندسية ليست فى حاجة الى تطبيقهــا على العالم التجريبى .

ب — التنظيرات — وهى فرضيات « مستنبطة » من البدهيات وتخضع لعمليــة التحقق التجريبى .

٤ — نسق منطقى يستخدم فى ة

أ — ارجــاع « كافة » المفاهيم الى العبارات .

ب — استنباط التنظيرات من البدهيات ، وضع تراكيب للبدهيــات ، والتنظيرات .

وتعتبر اعادة صياغة هانز زيتربرج لنظريــة دوركايم من النماذج المبكرة والتى كثيرا ما يستشهد بها فيما يتعلق بالنظرية البدهيــة . ولقد قــام زيتربرج بطرح الافتراضات العشرة التالية :

١ — كلما تم تقسيم العمل بشكل أكبر ، كلما كان الاجماع أكبر .

٢ — كلما ازداد حجم التضامن ، كلما ازداد عدد الزملاء بالنسبة للفرد .

٣ — كلمــا ازداد عدد الزملاء بالنسبة للفرد ، كلما ازداد حجم الاجماع .

٤ — كلما ازداد حجم الاجماع ، كلما قل عدد المنشقين .

٥ — كلما ازداد تقسيم العمل ، كلما قــل عدد المنشقين .

٦ — كلما ازداد عدد الزملاء بالنسبة للفرد ، كلما قل عدد المنشقين .

٧ — كلما ازداد تقسيم العمل ، كلما ازداد حجم التضامن .

٨ — كلما ازداد حجم التضامن ، كلما ازداد حجم الاجماع .

٩ — كلما ازداد عدد الزملاء بالنسبة للفرد ، كلما ازداد تقسيم العمل .

١٠ — كلما ازداد حجم التضامن ، كلما قل عدد المنشقين .

بعد ذلك ، قام زتيربرج باختيار الافتراضات الاربعــة الاخيرة باعتبارهــا بدهيات ، وأقام حجته على أنــه يمكن استنباط الباقى من فرج البدهيــات التالية : ٧ ، ٨ يتولد عنهما التنظير أو الفرضية رقم ١ ، ٧ و ٩ يعطيان رقم ٢ ، ٨ و ٢ يعطيان ٣ ، ٨ و ١٠ يؤديان الى ٤ ، ٧ و ١٠ يتولد عنهمــا ٥ ، ٩ و ٥ يعطيان ٦ . وبهذا ، بواسطة البدهيات الاربعــة ، تكون التنظيرات كلهــا قــد استنبطت .

أما أكثر المشاكل حرجا فى النظريــة البدهيــة ، فهى تكمن فى اختيــار

البدهيات ، حيث ما هى المعايير التى يجب استخدامهـا لاختيار افتراضـات معينـة ومعاملتهـا باعتبارهـا بدهيات ؟ ولماذا اختار زيتربرج الافتراضات الاربعة الاخيرة دون غيرها لكى يكون مجموعتـه من البدهيات ؟ ان أحـد المعايير فى عمليـة الاختيار هذه هـو عنصر « التماسـك » : اذ لا يجب أن تتولـد عن أى بدهيتين أو أى خليط من البدهيـات تنظيرات متضـادة . المعيار الثانى ، هو أن يتم اختيار أقـل لمجموعـة من البدهيات التى يمكن منهـا اسـتنباط « جميـع » التنظيرات الاخرى . هذا المعيـار يعكس نوعـا من التفضيـل لـ « الاقتصـاد » أو التبسـيط عند بنـاء كيان لنظريـات . أمـا المعيـار الثالث لاختيار البدهيات ــ والذى يجعل من تكوين نظريـة بدهيـة فى العلـوم الاجتماعيـة مسـألة فى غايـة الصعوبة ــ هو اختيار الافتراضـات التى حققت مكانـة القانون ، باعتبارهـا بدهيات فقط . ومع ذلك ، فان الافتراضات التى تصبح قوانين لابد لها من قـدر كبير من السند التجريبى « قبـل » أن يتم الاخذ بهـا باعتبارها قوانين . وحاليـا ، ليس سـوى عدد ضئيـل جـدا من الافتراضات فى العلوم الاجتماعيـة هو الذى يسـتطاع أن يحقق مثـل هذه المكانـة . وان كان هذا بدوره ، يعتبر عقبـة خطيرة فى تكوين نظريـات بدهية لهـا كيـان .

وفى البحوث الاخيرة ، كان التطبيق هو أن ما يتم اختياره كبدهيات هو تلك المجموعة من الافتراضات المستقلة التى تجعل من الكيان النظرى شىء واضح وأسهل فى الفهم ، مهما كان طـول هذه البدهيات . ولقد تحقق هذا عندما تم استخدام الفرضيات التى تصف العلاقـة « السببية المباشرة » بين مفهومين كبدهيات . وعلى حـد تعبير هيوبرت بلالوك « يمكن ذكر البدهيـة وفقـا لمـا يلى تقريبـا » أى زيـادة فى x سـوف تحقق (سبب) زيـادة مباشرة تقريبـا فى - ، وهذه الزيـادة فى Y سوف تفضى ، بدورها ، الى مزيد من الزيادة فى x ، ولكن مع رد فعل متأخر » . وباستخدام قاعدة العلاقات السـببية المباشرة ، أعـاد بلالوك صياغة البدهيات الاربعة لزيتربرج كما يلى :

١ ــ الزيـادة فى عـدد الزمـلاء بالنسبة للفرد سـوف يحقق زيـادة فى تقسـيم العمل .

٢ ــ الزيادة فى تقسيم العمل سـوف تحقق زيـادة فى حجم التضامن .

٣ ــ الزيادة فى حجم التضامن سـوف تحقق زيادة فى الاجماع .

٤ ــ الزيادة فى حجم التضامن سوف تحقق نقصـا فى عدد المنشقين .

وهذه البدهيات السببية ، بدورهـا ، سوف تؤدى الى تولـد تنظيرات أو فرضيات يمكن اختبارها من الناحية التجريبية .

مزايا النظرية البدهيــــة :

مع الاخذ بأن قلــة ضئيلة جــدا من الافتراضات فى مجال العلوم الاجتماعية هى التى وصلت الى مكانة القانون فلماذا اذن يتم وضع نظريات بدهية ؟

ان ذلك يرجع الى أن هنا كمزايــا عديدة فى النظريــة البدهيــة . فهى أولا ، تدعو الى وضـــع وصف دقيق للكيان النظرى ، والى طرح وتفســـير المفاهيم والفرضيات المركزية المستخدمة فى النظريــة . ثانيا ، أن كل مفهـــوم لابد من تعريفه بوضـــوح باستخدام كل من المصطلحات الاوليــة والمستخرجة والتعريفات العملية . ثالثا ، فى امكان النظريــة البدهيــة أن تعطى تلخيصــا مقتصرا للبحث الفعلى والمتوقــع . وهى وســيلة لتحقيق الاقتصــاد بدلا من وجــود عدد كبير من الافتراضات المســتقلة ، فالنظريــة البدهيــة لا تعرض ســوى الافتراضات الجوهرية فقط . رابعا ، ان النظــرية البدهيــة يمكن استخدامها « لتنسيق البحث بحيث تقــوم النتائــج الكثيرة المنفصلة بدعم بعضها لكى تضفى أكبر قــدر من المعقوليــة لكل كشــف فى النظرية » . لان النظريــة تتضمن مجموعة من الافتراضات المتصلة ببعضها ، لذلك فان السند التجريبى لاى افتراض منها ينحو الى دعــم النظرية بأكملهمــا . خامسا ، ان الشــكل البدهى يتيح للباحث أن يتفحص « كافــة » النتائج المترتبة علــى بدهياته ، وهذا ، بدوره ، يساعد فى تقرير أى جــزء من النظريــة قــد تحقق لــه الأثبات وما هى الاجزاء الاخرى التى تستدعى المزيد من البحث . وهذا لــه فائدته بصفة خاصــة عندما نرغب فى تحديد موضوعات البحث التى ســـوف تسهم بشكل اكبر فى النظريــة .

النمـــاذج :

مما يتصل بشــكل وثيق بفكرة أن النظريــة هى تنظيم نســقى للتصور . هو المفهــوم الخاص بالنماذج . والنموذج هو الذى يمكن النظر اليــه باعتباره الشبيه بشىء . فمثلا ، المهندس من الممكن أن يكون لديــه نموذج لآلــة تمثل الطائــرة . ونموذج الطائــرة ما هو الا صــورة مصغرة طبق الاصــل مــن الطائــرة الحقيقيــة ، بما فى ذلك التمثيل الحجمى لبعض ســـمات الطائرة الحقيقيــة ـــ بناؤهــا ـــ لكن مع حذف المظاهر الاخرى ، كتلك التى تتعلــق بأجهزة الضبط بها . والطائــرة النموذج تخدم فى أنهــا تمثل البنــاء والسمات الخاصــة بالطائرة من الناحيتين الجسدية والمظهرية . أيضــا ، النموذج يمكن استخدامه مكان الطائــرة الحقيقيــة عند اجــراء التجارب والاختبارات . ومثال ذلك ، أن المهندس يقــوم باخضــاع النموذج لتأثيرات الممر الهــوائى (وهو نفســه نموذج) لكى يقرر كفاءة أداء الطائــرة .

أما فى مجال العلوم الاجتماعية ، فان النماذج عادة تتكون من الرموز بدلا من الاشياء المادية ، بمعنى أن السمات الخاصة ببعض الظواهر التجريبية ، بما فى ذلك مكوناتها والعلاقات بين هذه المكونات ، تعرض على شكل ترتيبات منطقية بين المفاهيم . وبهذا ، يصبح فى امكاننا تعريف النموذج بطريقة أكثر رسمية بأنه تقليد أو تجريد مستمد من الواقع لكى يخدم غرض تنظيم وتبسيط رؤيتنا للواقع فى نفس الوقت الذى نعرض فيه سماته الجوهرية :

« ان السمة المميزة فى عملية وضع النموذج هى التجريد ، فهناك عناصر معينة من الحالة من الممكن استبعادها عمدا لانها تعتبر غير ذات صلة بالامر ، كما أن عملية التبسيط الناشئة من وصف الحالة قد تكون مفيدة فى تحليلها وفهمها . وبجانب عملية التجريد ، فان بناء النموذج أحيانا يتضمن تحويل التصور . فبدلا من مناقشة الحالة مباشرة ، قد يتركز الامر فى تمثيل كل عنصر من عناصر الحالة الحقيقية بشىء من الرياضيات أو الطبيعيات ، كما يتم تصوير خواصه المتعلقة به والعلاقات بين العناصر الاخرى بالخواص والعلاقات المثيلة المطابقة ... ، أى أنه من الممكن تمثيل نسق المرور بالمدينة عن طريق وضع نموذج مصغر لشبكة الطرق فى هذه المدينة ، ولاشارات المرور بها ، ولمركباتها » .

اذن ، فالنموذج هو تمثيل للواقع ، يرسم خطوط مظاهر العالم الحقيقى من حيث كونها تتعلق بالمسألة الخاضعة للبحث ، ويوضح مغزى العلاقات بين المظاهر ، كما أنه يتيح امكانية صياغة فرضيات يمكن اختبارها تجريبيا فيما يتعلق بطبيعة هذه العلاقات . وبعد عملية الاختبار من الممكن أن يتحقق نوع من الفهم الافضل لجانب ما من العالم الحقيقى . غير هذا ، النماذج تستخدم أيضا فى الحصول على رؤية متبصرة فى أعماق الظواهر بشكل لا يمكن مشاهدته بصفة مباشرة ، فمثلا ، عند القيام بالتحليل السياسى ، يتم وضع النماذج المتعلقة بالبناءات والعمليات الخاصة بصنع القرار ويتم استخراج الافتراضات المتعلقة بسلوك صانعى القرار . بعد ذلك يتم تقييم هذه الافتراضات بمساعدة البيانات التجريبية . وبخلاف هذا ، ففى عملية التحليل السياسى أيضا ، تستخدم النماذج لتقدير قيمة مسارات الفعل البديلة المختلفة التى قد يقوم صانع القرار بفعله بناءا عليها . اذن فالنماذج توفر قاعدة لاسس أكثر وضوحا فى عملية الاختيار أكثر مما يوفره الحكم الذاتى .

مثال : نموذج لعملية تنفيذ السياسة

ان نموذج توماس سميث Thomas Smith عن عملية تنفيذ السياسة يعطينا أحد الامثلة المثيرة عن كيفية اتخاذ المظاهر المعقدة وغير القابلة للمشاهدة بشكل مباشر نموذجا للعالم الواقعى . ان الكثيرين من غير المتخصصين يؤمنون بأنه بمجرد وضع احدى السياسات العامة (اقرار الكونجرس لمشروع قانون ، مثلا) ، فان عملية التنفيذ سوف تتبع ذلك بشكل منظم ، بل وحتى بطريقة آلية لتحقيق الاهداف التى يطلبها صانعو القرار . ومع ذلك ، فان هذا لا يحدث دائما . فمشاكل التنفيذ واسعة ، وفى حالات كثيرة لا يتم تنفيذ السياسات بالاسلوب الذى كان يقصده صانعى القرار . فالموظفون البيروقراطيون ، وجماعات النفوذ ، والافراد والتنظيمات التى تتأثر بالقرار غالبا ما يحاولون فرض تغيير فى السياسات أثناء عملية التنفيذ .

والنموذج الذى وضعه سميث يقوم بتجريد جوانب معينة من عملية التنفيذ ويركز على أربعة مكونات فقط :

١ ـ السياسة المثالية ، أى القوالب المثالية للتفاعل التى يحاول حثها هؤلاء الذين قاموا بتحديد السياسة .

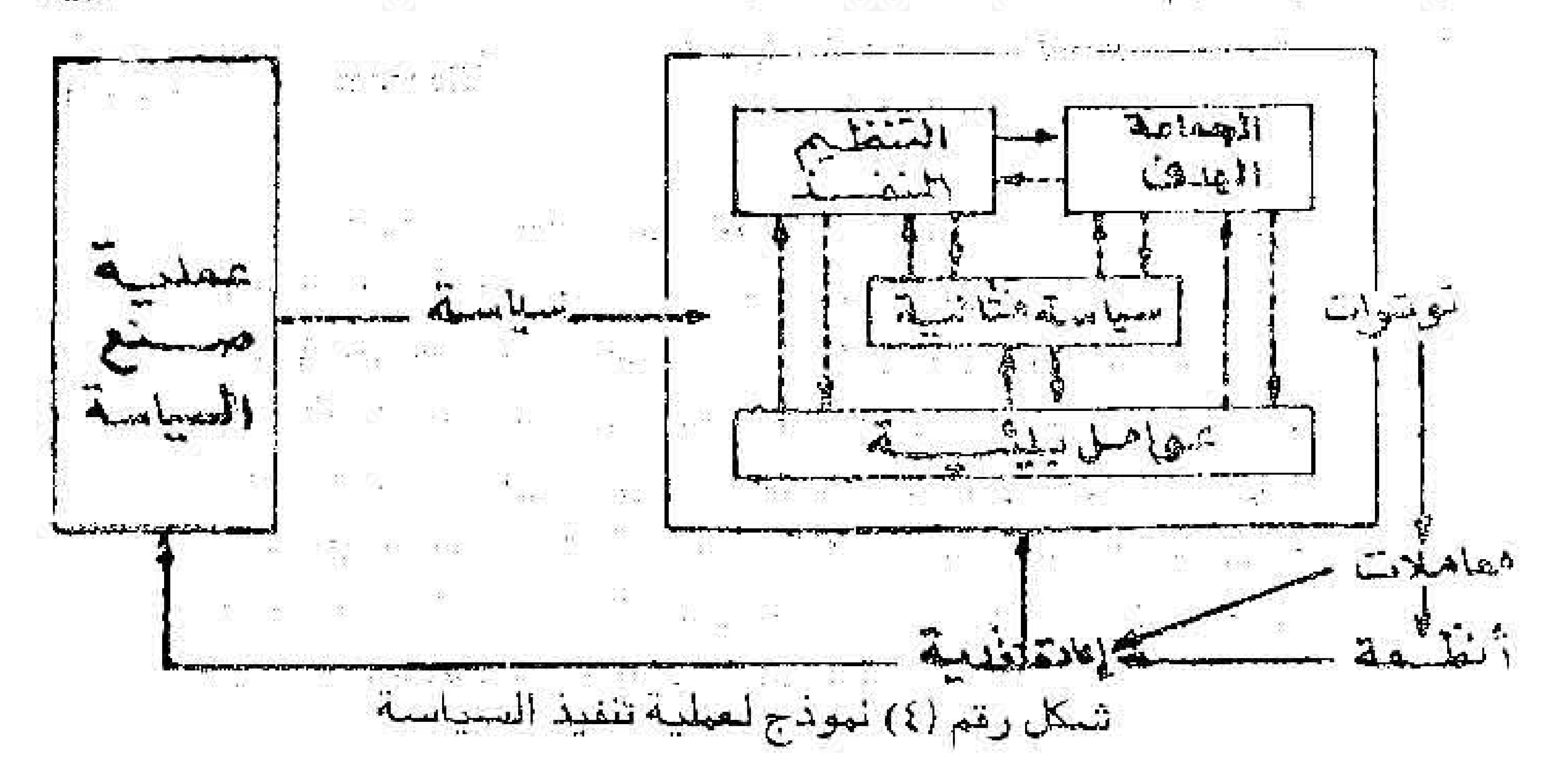
٢ ـ الجماعة الهدف ، وتعرف بأنها أولئك المطلوب منهم أن يتبنوا قوالب جديدة للتفاعل عن طريق السياسة الموضوعة . انهم أكثر الافراد تأثرا بالسياسة بصفة مباشرة والذين عليهم أن يتغيروا لمواجهة متطلباتها .

٣ ـ التنظيم المنفذ ، احدى الهيئات الحكومية عادة ، ويتولى مسئولية تنفيذ السياسة الموضوعة .

٤ ـ العوامل البيئية ، وهى العناصر فى البيئة تلك التى تتأثر من تنفيذ السياسة . ويدخل فى هذه العناصر عامة الناس وجماعات النفوذ الخاصة .

وهذه المكونات الاربعة وما بينها من علاقات مفترضة تظهر صورتها فى الشكل رقم (٣) . فنجد أن عملية صنع السياسة تحقق سياسات عامة ، وهذه السياسات تخدم باعتبارها قوة مولدة للتوتر فى المجتمع : فأثناء تنفيذ السياسات ، فان كلا من القائمين على تنفيذها والذين يتأثرون بها يتعرضون لممارسة التوترات والضغوط والصراعات . والتوترات تؤدى الى التعاملات ،

وهذا هو مفهوم سميث للاستجابات تجاه التوترات والصراعات داخـل وبين



شكل رقم (٤) نموذج لعملية تنفيذ السياسة

مكونات السياق الخاص بتنفيذ السياسة . ولقد رؤى أن اعادة التغذية المتولدة عن المعاملات والانظمة تؤثر على صنع السياسة فى المسـتقبل وكذلك على المكونات الاربعة لعملية التنفيذ .

النظرية ، والنماذج ، والبحث التجريبى :

ان العلوم الاجتماعية باعتبارها نظما علمية تستند على مكونين رئيسيين — النظرية والبحث التجريبى . وعلماء الاجتماع بقدر ما هم علمـاء يعملون فى « عالمين » — عالم المشاهدة والتجربة وعالم الافكار ، أو النظريات والنماذج ، والقيام بانشاء صلة بين هذين العالمين يزيد من قيمة الاهداف التى تسعى اليها العلوم الاجتماعية . ولكن كيف يتم انشاء هذه الصلة ؟ هل يجب أن نقوم أولا بوضع نظرياتنا ونماذجنا ثم ننتقل الى عالم البحث التجريبى ؟ أم ، بدلا من ذلك ، جب على النظرية ان تلى عملية البحث ؟ .

النظرية ثم البحث :

تبعا لاحدى مدارس الفكر ، على النظرية أن تأتى أولا ، ثم تتبعها عمليـة البحث ، وهذا يشار له غالبا باستراتيجية النظرية ثم البحث . ولقد قـام كارل بوبر Karl Popper بتطوير هذه الاستراتيجية بأكبر قدر من النسقية . ويدلل بوبر على أن المعرفة العلمية تحقق التقدم بأسرع ما يمكن من خلال التطور للافكار (الحدسيات) ومحاولات تفنيدها من خلال البحث التجريبى (التفنيدات) . وينكر بوبر التحميل النسقى للبحث التجريبى على عمليـة التنظير ، فالبحث لا يمكن أن يتولد عنه أفكار جديدة ولا يخدم كمنهج منطقى فى وضع النظرية . فالنظريات « . . . يمكن التوصل اليها فقط بالوجدان الحدسى ، القائم على شىء

ما يشبه الوله الفكرى بالاشياء موضع التجربة » . ونفس الموقف اتخذه واطسون Watson

« نحن فى البداية نعمل فقط وفقا للتجريدات الفكرية ، ينشغل فكرنا فقط بما نقوم به من مهمة التمثل الداخلى للصور ، وبشق طريقنا بهذه الطريقة ، لا نكون حتى الآن قد وضعنا الحقائق التجريبية الممكنة موضع الاعتبار ، ولكننا نقوم فقط ببذل الجهد لتطوير صورنا الفكرية بأكبر قدر من الوضوح ونستخرج منها كافة النتائج الممكنة . وفى الخطوات التالية فقط ، وبعد أن يكتمل الاستعراض التام للصورة ، يكون تأكدنا من مدى مطابقتها مع الحقائق التجريبية » .

وعلى الرغم من تبسيط الامر الى حد ما ، فان استراتيجية النظرية ثم التجربة تتضمن المراحل الخمس التالية :

١ — انشاء نظرية أو نموذج بشكل واضح .

٢ — اختيار افتراض تولد عن النظرية أو النموذج لاخضاعه للبحث التجريبى .

٣ — تصميم مشروع بحث لاختبار الفرضية .

٤ — اذا ما أدت البيانات التجريبية الى رفض الافتراض المستمد من النظرية ، يتم اجراء تغيير فى النظرية أو مشروع البحث (انظر الشكل رقم ١٠١ كمثال عن تصميم البحث والقياس) . وعلى العالم أن يعود الى المرحلة الثانية .

٥ — اذا تم قبول الافتراض ، يتم اختيار افتراضات اخرى لوضعها موضع الاختبار أو بذل محاولات لتحسين النظرية .

البحث ثم النظرية :

فى تناقض حاد مع استراتيجية النظرية ثم البحث ، قام روبرت ميرتون Robert Merton أحد المنادين باستراتيجية البحث ثم النظرية بوضع حجته كما يلى :

« ان نظريتى الرئيسية تتركز فى أن البحث التجريبى يتجاوز بكثير الدور السلبى للاختبار والتحقق من النظرية ، فهو يقوم

بأكثر من مجرد تأكيد أو تفنيد الفرضية النظرية . فالبحث يلعب دورا ايجابيا فعالا : انه يقوم على الاقل بأداء أربعة وظائف رئيسية تساعد فى تشكيل مدى تطور النظرية . فهو يقوم بالمبادأة ، واعادة الصياغة ، والانحراف ، والتوضيح ، للنظرية » .

ان البحث التجريبى يطرح مسائل جديدة بالنسبة للنظرية ، ويدعو الى صياغات نظرية جديدة ، ويؤدى الى تنقيح النظريات القائمة ، كما أنه يخدم وظيفة التحقق . ان استراتيجية البحث ثم النظرية تشتمل على الآتى :

١ ــ التقصى للظاهرة وتحديد خواصها .

٢ ــ اجراء القياس للخواص فى عدة حالات مختلفة . (القياس واجراءات القياس تمت مناقشتها فى الفصل السادس) .

٣ ــ تحليل ما ينتج من بيانات لتقرير ما اذا كانت هناك قوالب نسقية للتنوع .

٤ ــ بمجرد اكتشاف القوالب النسقية ، يكون قد تم وضع كيان لنظرية .

والنظرية قد تكون واحدة من الانماط التى تمت مناقشتها من قبل ، على الرغم من تفضيل النسق النظرى .

ومن الواضح ، أن هاتين الاستراتيجيتين تهدفان الوصول الى النظرية ويعتبرانها بمثابة تعبير عن التقدم العلمى . ولكن المعضلة تتخطى ما للنظرية من وضع فى عملية البحث . وما ننازع فيه هو أن الالتزام الشديد باى من الاستراتيجيتين ليس بالشيء الجوهرى فى قيادة البحث . فالعلوم الاجتماعية حققت التقدم رغما عن هذا الجدال ، كما تم المضى فى سبيل المهام العلمية تحت كلا النظريتين . وفى واقع الامر ، فان النظرية والبحث يتفاعل كل منهما مع الآخر بشكل ثابت ، كما تبين من الشكل ١ . ١ فى الفصل الاول . الاكثر من ذلك ، كما يقول ارنست ناجل Ernest Nagel أن التناقض بين الاستراتيجيتين أكثر وضوحا من الحقيقة :

« لقد ظل العلماء البارزين يزعمون بشكل متكرر أن النظريات هى « تخليقات حرة من العقل » . ومن الواضح أن مثل هذه المزاعم لا تعنى أن النظريات قد لا « تطرح » عن طريق ماديات المشاهدة او أن النظريات لا تتطلب سندا من دليل الشواهد . اما ما تؤكده هذه المزاعم عن حق هو أن المصطلحات الاساسية فى النظرية ليست فى حاجة الى أن

تتضمن معان قد ثبتت عن طريق الاجراءات التجريبيه القاطعة ، وأن النظرية قد تكون كافية ومثمرة على الرغم من الحقيقة بأن الدليل عليها غير مباشر بالضرورة » .

ملخص :

من اكثر الرموز أهمية فى مجال العلم هو المفهوم . والعلم يبدأ بتكوين مفاهيم ليصف بها العالم التجريبى ثم يتقدم بارجاع هذه المفاهيم الى أنساق نظرية . والمفاهيم تتيح امكانية تحقيق الاتصال الفعال ، فهى تعرض وجهة نظر ، وتعتبر وسيلة للتصنيف والتعميم ، كما أنها تخدم باعتبارها القوالب التى يتم بها بناء الافتراضات ، والنظريات ، والفرضيات النظريات ، وهى التى ستتم مناقشتها فى الفصل التالى .

ولكى تحقق المفاهيم وظيفتها ، لا بد أن تكون واضحة ، محددة ، ومتفق عليها . وكل هذا يتم من خلال التعريفات التصورية والعملية ، فالتعريف التصورى يصف المفاهيم باستخدام المصطلحات الاولية والمستخرجة . أما التعريفات العملية فهى تفسر مجموعة الاجراءات والنشاطات التى يجب أن يقوم بها الانسان لكى يشاهد تجريبيا الظواهر التى تتمثل فى المفاهيم . والتعريفات العملية تربط بين مستوى التصور - النظرى ومستوى المشاهدة - التجريبية .

وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع يتفقون على أن النظرية هى الانجاز النهائى للمشروعات العلمية ، الا أن هناك آراء مخالفة فيما يتعلق بمعنى وبناء النظرية . وحتى الآن هناك أربعة مستويات للنظرية يمكن التمييز بينها : أنساق التصنيف لغرض خاص ، التصنيف وفقا للاجناس ، اطارات التصور ، الانساق النظرية . واحد أشكال النسق النظرى هو النظرية البدهية . هذه النظرية تحوى مجموعة من المفاهيم والتعريفات ، ومجموعة من العبارات الكيانية ، ومجموعة من العبارات العلاقية مقسمة الى بدهيات وتنظيرات ، ثم نسق منطقى يستخدم لربط المفاهيم بالعبارات ولاستنباط التنظيرات والبدهيات .

والنماذج غالبا ما يستخدمها علماء الاجتماع لعرض مظاهر معينة من العالم الحقيقى بطريقة نسقية . والنماذج هى تجريدات مأخوذة من الواقع لكى تخدم غرض تنظيم وتبسيط رؤيتنا للواقع فى نفس الوقت الذى تمثل فيه خصائصه الجوهرية . النماذج أيضا تستخدم لاكتساب رؤية متعمقة للظواهر التى لا يمكن مشاهدتها بصفة مباشرة ، وذلك كالنسق الاقتصادى للولايات المتحدة .

وانشاء روابط نسقية تصل بين عالم التجريب وعالم التصور قد تحقق باستخدام استراتيجيتين عامتين : استراتيجية النظرية ثم البحث واستراتيجية البحث ثم النظرية . وعلى الرغم من نشوب جدل حى حول أى من الاستراتيجيتين أكثر اسراعا بزيادة التقدم العلمى . وموقفنا فى هذا الجدل هو أن النظرية والبحث يجب أن يكون بينهما تفاعل مستمر وثابت ، وأن التناقض بين الاستراتيجيتان يظهر أكثر مما هو فى الواقع .

مصطلحات أساسية للمراجعة :

تعريف تصورى	Conceptual definition	مفهوم	Concept
زيف اضفاء	Fallacy of	تعريف ظاهرى	Ostentsive
الصيغة المادية	reification	مصطلح أولى definition	Primitvie term
النسق النظرى	Theoritecal System	تعريف عملى	Operational definition
النظرية البدهية	Axiomatic theory	المحوى النظرى	Theoretical import
نموذج	Model		Ad hac Classificatory
النظرية ثم	Theoy - then - research	نسق التصنيف لغرض خاص	System
البحث		التصنيف وفقا للاجناس	Taxonomy
البحث	Research - then - theory	اطار التصور	Conceptual framework
ثم النظرية			

الفصل الثالث

العناصر الأساسية للبحث

تمهيد :

ان مصطلحات مثل « مشكلة البحث » ، « متغير » ، « علاقة » ، ((فرضية نظرية)) ، سواء جاء استخدامها تحت استراتيجية النظرية ثـــم البحث أم استراتيجية البحث ثم النظرية ، فهى ربما تعتبر أكثر الالفاظ استخداما فى مجال الابحاث الخاصة بالعلوم الاجتماعية . فهى بمثابة العناصر الاساسية للبحث ، وهى تساعد فى تحويل احدى الافكار الى عمليات بحثية واقعية . وفى هـــذا الفصل ، سوف نقوم بتعريف ، ومناقشة ، وضرب أمثلة لاستخدام هذه المصطلحات الاساسية فى سياق عملية البحث .

مشاكل البحث :

فى البداية هناك مسألة : « العالم هو انسان تصاحبه مشكلة واما فهـــو لا شىء » . أن المشكلة هى منبه فكرى يستدعى اجابة عليه على شكل استقصاء علمى . فاذا ما قلنا مثلا ، « من يحكم أمريكا ؟ » ، « ما هى الحوافز التى تؤدى الى حفظ الطاقة ؟ » « كيف يمكن الحد من التضخم ؟ » أو « هل الطبقة الاجتماعية تؤثر على سلوك التصويت ؟ » فهذه كلها مشـــاكل يمـــكن أن تخضـــع للبحث العلمى .

والمنبهات الفكرية ليست كلها بالتى يمكن دراستها من الناحية التجريبية ، كما أن السلوك البشرى ليس كله بالذى يهتدى بالمعرفة العلمية . ونحن قد رأينا فى الفصل الاول ، أن الفرضيات العلمية نفسها ، فى الواقع ، غير قابلة للبحث من الناحية التجريبية ، فلا هى شىء ثابت بالدليل ولا هى يمكن اثباتها . وكذلك بالمثل ، المسائل مثل « هل ستتلاشى الحضارة الغربية ؟ » أو « هل اللون الازرق أرق من الاخضر ؟ » أو « هل التأثيرية أكثر اشكال الفن تقدما ؟ » كلها مســائل لا يمكن بحثها من الناحية التجريبية . اذن ، يمكن القول بصفة عامة ، أن المشاكل التى لا يمكن ايجاد أساس تجريبى لها أو التى تهتم باختيارات أو معتقدات أو قيم أو مشارب ذاتية ، هى مشاكل لا يمكن اخضاعها للبحث التجريبى .

والقول بأن اختياراتنا الذاتية لا يمكن دراستها من الناحية العلمية لا يجب ، بطبيعة الحال ، أن تؤخذ ضمنا على أنها تعنى أن علماء الاجتماع فى أداء أدوارهم كمواطنين ، وآباء ، وأصدقاء من ذوى المصلحة ليست لهم اختيارات ذاتية فيما يتعلق بأشياء كثيرة ، مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من غير العلماء ، فهم لهم تبريراتهم ودفاعهم عن مثل هذه الاختيارات كما يفعل بقية الناس . ومع ذلك ، فان مثل هذه الاختيارات ليست مما يمكن التحقق منها تجريبيا ، ومن ثم فهى لا تشكل معرفة علمية .

الا أن هناك من الاختيارات أو التحيزات الذاتية المعنية ما يجعل الاقتراب منها ممكنا بالضبط بنفس الطريقة التى يقترب بها العلماء من الظواهر التجريبية — أى كمشاكل لها صفة الواقع الحقيقى يتم استقصاؤها عن طريق المدخل العلمى . فمثلا ، يستطيع الانسان أن يقوم بدراسة السبب فى اعتقاد بعض الناس أن الحضارة الغربية سوف تتلاشى ولماذا لا يشارك آخرون فى هذه النظرية أو ما اذا كان الاختيار الذى يفضل التأثيرية له صلة بالطبقة الاجتماعية .

وبالاضافة الى كون مشاكل البحث تعتمد على أساس تجريبى ، فانها يجب أن تكون واضحة ومحددة . فالمشكلة الخاصة بـ « ما هى الحوافز التى تؤدى الى حفظ الطاقة ؟ » ، على سبيل المثال ، هى مشكلة غاية فى العمومية وغاية فى الغموض . فهى تعنى أشياء مختلفة لمختلف الناس . فهى لا تحدد ما هى أنماط الحوافز (أهى مثلا ، اقتصادية ، اجتماعية ، وطنية) أو ما هى مصادر الطاقة (خام ، بترول ، جاز ، غاز طبيعى ، فحم) . كما أنها لا تقوم بالتمييز بين أسلوب الحفاظ على الطاقة أهو صناعى أم هو يرتبط بالناحية الشكلية . لذلك ، فان الافتقار للوضوح والتخصيص قد يؤدى الى نتائج يحوطها اللبس والغموض بما يجعلها تفسر بطرق مختلفة ومتناقضة .

وحدات التحليل :

فى عملية الصياغة لمشاكل البحث ، لا بد من وضع الوحدات الخاصة بالتحليل موضع التقدير الجدى . فهذه الوحدات تعتبر كيانات ترجع اليها مفاهيمنا الخاصة وتؤثر على ما يلى ذلك من تصميم للبحث ، وتجميع للبيانات ، وقرارات بشأن تحليل البيانات . فهل مشكلة البحث تستدعى دراسة الادراكات أو المواقف أو السلوك ؟ على من يجب أن نركز ، أعلى الافراد أم على الجماعات ؟ الانظمة أم المجتمعات ؟ وفى هذا الشأن ، أطلق ابراهام كابلان Abraham Kaplan على مشكلة اختيار وحدات للتحليل تعبير « موضع المشكلة » :

« ان موضوع المشكلة يمكن وصفه بأنه هو ذلك الاختيار للموضوع النهائى الذى يخضع للاستقصاء فى علم السلوك ، والخاصة المكانية التى يوصف بها ، وبناء التصور الذى يتم فيه صياغة الفرضيات النظرية عنه . وهنا ، يوجد عدد لا بأس به من البدائل يعرض نفسه ، وهى من البدائل التى يتم اختيارها فى استقصاءات عديدة : حالات الافعل الواعية ، الافعال (شرائح من السلوك ذا المغزى) ، الادوار ، الاشخاص ، الشخصيات ، العلاقات الشخصية الداخلية ، الجماعات ، الطبقات ، الانظمة ، السمات أو النماذج الاجتماعية ، المجتمعات ، والثقافات . وفيما يختص بأى من هذه البدائل ، هناك المشكلة التى ترتبط بها وهى الخاصة بالوحدة ، أى بما هو الشىء الذى يشكل هوية العنصر الذى يتم اختياره . وهل الانظمة الشرعية ، مثلا ، تتمايز تماما عن نظام الدولة ام هى جزء منه ، واذا كانت كذلك ، فبأى مفهوم تعنيه كلمة « جزء » ؟

ومع أنه من ناحية المبدأ ، لا توجد حدود على اختيار الوحدات التى سيتم استخدامها فى أحد مشروعات البحث ، الا أن عملية الاختيار بمجرد أن تتم ، لابد ان يكون هناك عدد من العمليات البحثية المتتابعة ، بما فى ذلك مستوى التنظر ، يجب مطابقته مع الوحدات التى وقع عليها الاختيار . فكل وحدة من وحدات التحليل تملك الخواص المميزة لها ، وغالبا ما تحدث مشكلة محيرة عند الانتقال من وحدة لاخرى . وفى الواقع ، فان احدى الصعوبات التى تصاحب البحث فى مجال علم الاجتماع تتضمن تفسير علاقات الوحدة المتعارضة كالعلاقات بين الخواص الفردية مثل المدارك والمواقف وخواص الجماعة مثل القوة والتماسك . وعندما يكون الفرد هو وحدة التحليل ، قد يكون تركيز البحث على الافراد فى أدوارهم المختلفة بصرف النظر عن الجماعات التى ينتمون اليها . وقد يتساءل الانسان مثلا ، ما اذا كان السكان الحضريون هم الاكثر احتمالا الى أعطاء أصواتهم للديموقراطيين من سكان الضواحى . ومن الناحية الاخرى ، عندما تكون الجماعة هى وحدة التحليل ، يتم استبعاد الافراد الذين يؤلفون هذه الجماعة . هنا أيضا قد يتساءل المرء ، على سبيل المثال ، ما اذا كانت الجماعات المتماسكة اجتماعيا لابد بالضرورة أن تكون ايضا غير هرمية (التماسك والتنظيم الهرمى من خواص الجماعة) . هنا سوف يكون غرض البحث هو العمل على وصف ، ومقارنة ، وتقويم العلاقات بين خواص الجماعات .

خداع البيئة :

من أنماط الخداع الناجم عن تحليل الجماعات ولكنه يعطى استنباطات تتعلق بسلوك وخواص الافراد ، ذلك النمط الذي عبر عنه وليام روبنسون William Robinson بـ « الخداع البيئى » . لقد أوضح روبنسون أن هناك جوانب أختلاف كبيرة بين النتائج المحققة عن طريق البيانات المجمعة (كالاحصاء السكانى ، مثلا) وتلك التى يتم الحصول عليها باستخدام البيانات الفردية . فعندما تتركز مشكلة البحث على الفرد ، تصبح البيانات المتعلقة بالجماعة غير ملائمة .

الخداع ذو الصفة الفردية :

بعكس الخداع البيئى هناك الخداع العنصرى أو « الخداع الفردى » . وهذا النوع من الخداع قد ينجم اذا كان ما يتم استنباطه عن الجماعات أو المجتمعات أو الانساق مستمد من الافراد . فمثلا ، اذا قمنا بحساب النسبة المئوية للافراد الذين يتفقون على تفسيرات معينة عن الديموقراطية وأخذنا ذلك كمؤشر يدل على مدى ديموقراطية احد الانساق السياسية ، فان ذلك هو الخداع الفردى . فالنسق السياسى قد يكون نسقا سلطويا حتى لو كان معظم الافراد المواطنين فيه من اصحاب الآراء الديموقراطية .

متغيرات :

ان مشاكل البحث ترد متضمنة فى مجموعة من المفاهيم . ولقد رأينا فى الفصل الثانى أن المفاهيم هى بمثابة مجردات تمثل الظواهر التجريبية . ولكى يتم الانتقال من المستوى التصورى الى المستوى التجريبى ، فان المفاهيم تنقلب الى « متغيرات » . ومن المتغيرات أن تظهر مفاهيمنا فى النهاية فى فرضيات نظرية ويتم اختبارها .

وانقلاب المفاهيم الى متغيرات يتم بوضع « خريطة » لها تضم مجموعة من القيم . فمثلا ، باضفاء أرقام (احد انماط القيم) على الاشياء يعتبر بمثابة وضع خريطة لمجموعة من الاشياء فى شكل مجموعة من الارقام . فالمتغير هو خاصية تجريبية تكون له قيمتين أو اكثر . واذا ما استطاعت الخاصية أن تتغير الى قيمة أو نوع ، فهنا يمكن اعتبارها بمثابة متغير . فمثلا ، « الطبقة الاجتماعية » تعتبر متغيرا لانها يمكن أن تتمايز بواسطة خمس قيم مختلفة : الطبقة الدنيا ، الطبقة الدنيا المتوسطة ، الطبقة المتوسطة ، الطبقة الدنيا الاعلى ، الطبقة العليا . وبالمثال ، « التوقعات » تعتبر متغيرا

لانهـــا يمكن أن تتعين على الاقل بقيمتين : « المرتفعة » و « المنخفضــــة » . وعندما يكون للمتغير قيمتين فقط يطلق عليــه « متغير ذو تقسيم ثنائى » . ومن المهم بالنسبة لغرض البحث أن نقوم باجــراء تفرقـــة تحليلية بين المتغيرات التابعة والمستقلة والضابطة وبين المتغيرات المستمرة والقائمة بذاتها .

المتغيرات التابعة والمستقلة :

« المتغير التابع » ، هو المتغير الذى يرغب الباحث فى اعطـــاء تفسيــــر لـــه . أما المتغير الذى يتوقـــع منـــه تفسيـــرا ما يحدث من تغيير فى المتغير التابع يشـــار اليـــه على أنـــه « متغير مســـتقل » . اذن ، فالمتغير المستقل هــو المتغير الايضاحى ، هو السبب المفترض لمـــا يحدث من تغيرات فى القيــــم الخاصة بالتغيير التابع . (المتغيرات التـــابعة يطلق عليها أيضــا تعبــــير « المتغيرات العيارية » ، و « المتغيرات المنبئة » على المتغيرات المستقلة) .

وفى لغة الرياضيات عندما نتحدث عن متغير تابع فاننا نعنى به ذلك التغير أيا كان والذى يظهر على الجانب الايسر من المعادلة . فمثلا ، اذا كتبنا معادلة بهذا الشكل $Y = F \; (x)$ ، فاننا نعتبر Y هى المتغير التابع و x هى المتغير المستقل . وفى هذه الحالة ، نقول أن Y هى « وظيفة » لـ x ، أن التغيـــرات التى تحدث فى القيم الخاصـة بـــ x تتسبب فى حدوث تغيرات فى القيم الخاصة بـــ Y ، أو أن x تعطى Y (عن طرق F) . ولو وضعنا المثال فى صورة أخرى نرى مثلا ، أن الباحث قد يرغب فى تفسير السبب فى أن بعض النـــاس يشاركون فى الامور السياسية أكثر من غيرهم . اعتمادا على نظرية المراتب الطبقية ، قد يستدل الباحث على انه كلما ارتفعت الطبقة الاجتماعية للفرد ، كلما ازداد الاحتمال فى مشاركة الشخص فى الامور السياسية . وفى هذه الحالة ، أصبح المفترض نظريا أن المشاركة السياسية هى « ناتج » الطبقة الاجتماعية ، أى أن الطبقة الاجتماعية خليقة بأن تسبب تغيرات فى المشاركة السياسية . وتبعا لذلك ، فان المشاركة السياسية تعتبر هى المتغير التابع ، والطبقة الاجتماعيـــة هى المتغير المستقل .

ويجب التأكيد هنا على أن التمييز بين المتغيرات التابعة والمستقلة ما هــو الا تمييز تحليلى ويتصل فقط بغرض البحث . أما فى العالم التجــريبى ، فان المتغيرات لا هى بالتابعة ولا بالمستقلة ، فالباحث هو الذى يقرر كيف تكون نظرته اليها ، كما أن قراره يعتمد على الغرض المستهدف من البحث . فالمتغير المستقل فى أحد الاستقصاءات قد يكون تابعا فى آخر ، كما أن نفس البحث وفى المشروعات المختلفة قد يقوم بتصنيف نفس المتغيرات بطرق مختلفة . فاذا ما أراد أحـــدهم تفسير التغيرات فى المشاركة السياسية ، فهذه سوف تكون هى المتغير التابع ،

فأحد المتغيرات التى تفسر ما يحدث من تغيرات فى المشاركة السياسية هو الطبقة الاجتماعية ، وهذه سوف تعتبر هى المتغير المستقل . ولكن اذا ما اراد أحد أن يفسر ما يحدث من تفاوتات فى الطبقة الاجتماعية (مثلا ، لماذا يكون بعض الافراد من الطبقة الدنيا والبعض الآخر من الطبقة الوسطى) ، فهذا الامر الاخير سوف يعتبر بمثابة متغير تابع . ومن المتغيرات التى قد يفترض نظريا أنها تفسر حالات التنوع فى الطبقة الاجتماعية ، هو التحصيل العلمى ، وهو الذى سيعتبر الآن بمثابة متغير مستقل .

ومعظم الظواهر التى يقوم علماء الاجتماع باستقصائها تدعو الى اجراء تقييم للتأثيرات الناجمة عن المتغيرات المستقلة العديدة على واحد أو اكثر من المتغيرات التابعة . ويحدث هذا لان أحد المتغيرات المستقلة عادة لا يفسر سوى قدر معين من جوانب التنوع فى المتغير التابع ، وأن المتغيرات الاكثر استقلالا لا بد من طرحها لكى يتم تفسير المزيد من التنوع . فمثلا ، عندما تتم دراسة المشاركة السياسية باعتبارها متغير تابع ، فان الطبقة الاجتماعية تفسر السبب فى أن بعض الناس يشاركون فى الامور السياسية أكثر من غيرهم ، وان كان هذا التفسير غير كامل لان هناك أسبابا أخرى بجانب الطبقة الاجتماعية تفسر جوانب التنوع فى المشاركة السياسية . ومن أمثلة هذه المتغيرات المستقلة الاضافية ، السن ، الجنس ، الاهتمام بالامور السياسية ، والفاعلية السياسية (أى المدى الذى يعتقد به الافراد فى أن مشاركتهم السياسية سوف تؤثر على النواتج السياسية) .

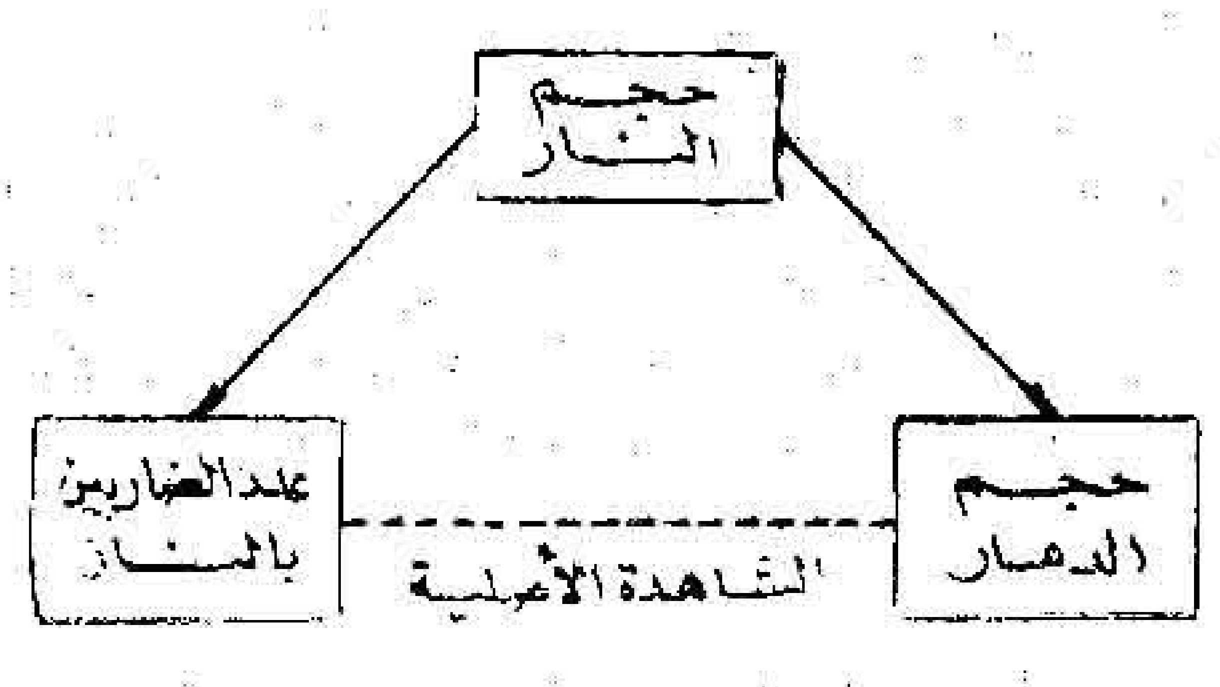
متغيرات الضبط :

ان الوظيفة التى تؤديها المتغيرات الضابطة فى مجال البحث التجريبى هى التقليل من المجازفة باضفاء قوة تفسيرية على المتغيرات المستقلة والتى هى « فى الحقيقة ليست » بمسئولية عن حدوث التنوع فى المتغير التابع . فالمتغيرات الضابطة تستخدم لاختبار لدى الاحتمال فى أن تكون العلاقة المكنة وليست الملحوظة تجريبيا بين أحد المتغيرات المستقلة وآخر تابع هى علاقة « زائفة » . والعلاقة الزائفة هى علاقة يمكن تفسيرها بالمتغيرات الاخرى . وبعبارة أخرى ، أنه اذا ما تم استبعاد التأثيرات الخاصة بجميع المتغيرات المتعلقة بالموضوع (أو تم ضبطها) وتم الابقاء على العلاقة التجريبية بين المتغير المستقل والمتغير التابع ، فحينئذ تكون العلاقة غير زائفة . وهذا الامر يوحى بوجود رابطة سببية ملازمة بين المتغيرات وأن العلاقة الملحوظة لا تعتمد على صلة عارضة ببعض الظواهر المتزاملة .

ولنفترض أن الانسان قد لاحظ أن عدد الضاربين بالنار يقترن بحجم

الدمار الذى تحدثه النار . فكلما ازداد عدد الضاربين فى موقع الضرب ، كلما ازداد حجم الدمار . ويتضح من هذا أن الضاربين بالنار ليسوا هم سبب الدمار . ووفقا لهذا ، لا يجب تفسير حجم الدمار بعدد الضاربين فى موقع الضرب ، ولكن يتم تفسيره بمتغير آخر ، وهو ، حجم النار . فالقدر الاكبر من النار يستدعى مزيدا من الضاربين ويتسبب أيضا فى مزيد من الدمار . وبذلك ، فان العلاقة الاصلية الملحوظة بين عدد الضاربين فى موقع الضرب وحجم الدمار الذى يحدثه الضرب هى علاقة زائفة ، وذلك لان هناك عاملا ثالثا ، حجم الضرب بالنار ، هو الذى يفسر هذه العلاقة . فى هذه الحالة ، يكون حجم النار اذن هو المتغير الضابط ، فبدون التأثير الذى يحدثه المتغير الضابط ، فلن تكون هناك علاقة يمكن ملاحظتها بين الضاربين بالنار (المتغير المستقل) وحجم الدمار الناجم عن الضرب (المتغير التابع) . وهذا الكلام يتضح من الشكل رقم (٤) .

ومن الامثلة الاخرى التى توضح معنى واهمية المتغيرات الضابطة ، هى العلاقة التجريبية الملحوظة بين المشاركة السياسية والانفاق الحكومى . فهل يكون حجم الانفاق الحكومى (متغير تابع) هو نتيجة تسببت عن مدى اتساع المشاركة السياسية (متغير مستقل) ؟ يبدو الرد على ذلك بأنه نعم . ولكن ، عندما قام هيوارد الكر Hayward Alker بتفحص التنمية الاقتصادية كمتغير ضابط ، وجد أن العلاقة التجريبية بين المشاركة السياسية والانفاق الحكومى قد تلاشت . فمستوى التنمية الاقتصادية يؤثر على « كل » من الانفاق الحكومى والمشاركة السياسية . وبدون تأثير التنمية الاقتصادية ، ما أمكن ملاحظة أى علاقة بين المشاركة السياسية والانفاق الحكومى . وبهذا الشكل تعمل المتغيرات الضابطة فى خدمة الغرض الخاص باختبار ما اذا كانت العلاقات الملحوظة بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة هى علاقة غير زائفة .



شكل رقم ٥

المتغيرات المستمرة وذات الوحدات المستقلة :

من الخواص الاخرى للمتغيرات والتى لها أهميتها ، هى أنها اما أن تكون مستمرة أو ذات وحدات مستقلة . وهذه الخاصة ، كما سوف نرى فى الفصول التالية تؤثر على عمليات البحث المتعاقبة ، خاصة بالنسبة لاجراءات عملية القياس ، وتحليل البيانات ، ومناهج الاستدلال والتعميم .

والمتغير يكون « مستمرا » اذا لم تكن له وحدة حجم متناهية الصغر . فالطول ، مثلا ، هو أحد أمثلة المتغير المستمر لانه ليس هنا وحدة حجم متناهية الصغر بالنسبة للطول . فقد يصل طول شيء معين الى ١٠ بوصات ، أو ٥ر١٠ بوصة ، أو ٥٤٣١٦٩٧ر١٠ ... بوصة . فمن ناحية المبدأ ، نستطيع أن نقول أن هناك عشر بوصة ، أو عشرة آلاف من البوصة ، أو عشرة تريليون من البوصة . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نقيس جميع القيم الطولية المختلفة الممكنة بدقة مطلقة (فان بعض القيم ستكون من الصغر بحيث لا يمكن تسجيلها بأى أداة قياسية) ، الا أنه من الممكن وجود أشياء بعدد لا ينتهى من الاطوال المختلفة .

وبعكس المتغيرات المستمرة ، نجد ان المتغيرات « ذات الوحدات المستقلة » لها وحدة حجم متناهية الصغر . ولو كنت تملك قدرا من المال مودع فى البنك فى هذه اللحظة . فان ذلك يعتبر مثالا على المتغير ذو الوحدة المستقلة وذلك لأن العملة النقدية لها وحدة متناهية الصغر . فمن الممكن أن يكون للانسان ٢١ر١٠١ دولار أو ٢٢ر١٠١ دولار ، ولكن ليس ٢١٨٤٣ر١٠١ دولار . والكميات المختلفة من النقود لا يمكن أن تختلف اذا كان هناك أقل من وحدة الحجم المتناهية الصغر . وبصفة عامة ، فان جميع الكميات الخاصة بالمتغير المتناهى الصغر هى أعداد مكررة لوحدة الحجم المتناهية الصغر . وعدد الاطفال فى الاسرة يعتبر مثالا آخر للمتغير ذو الوحدة المستقلة لأن أصغر وحدة موجودة هى الطفل الواحد . فالاسرة قد يكون لديها ثلاثة أو أربعة أطفال ولكن ليس ٥ر٣ طفل . فاذا كان هناك متغير ما له كمية لا يمكن تقسيمها الى أعداد أقل ، فالمتغير يكون ذو وحدات مستقلة .

العلاقات :

فى الفصول الاولى من هذا الكتاب رأينا أن التفسيرات والتنبؤات العلمية تتضمن رد الظواهر المطلوب تفسيرها (متغير تابع) الى ظواهر تفسيرية أخرى (متغيرات مستقلة) عن طريق القوانين العامة أو النظريات . ولكن ما هى العلاقة ؟

« العلاقة » فى البحث تعنى دائما علاقة بين اثنين أو أكثر من المتغيرات . فعندما يقول أن المتغير x والمتغير y ينتسبان لبعضهما ، فنحن نعنى بذلك أن هناك شيء « مشترك » عند كلا المتغيرين . فمثلا ، اذا قلنا أن التعليم والدخل يمتان الى بعضهما ، فمعنى ذلك أن الاثنين « يسيران معا » ، فيتغايران معا . اذن ، فـ « التغاير المشترك » هو ما يربط بين التعليم والدخل معا : الافـراد ذوو التعليم الاعلى يحصلون على دخول أعلى . وانشاء علاقة فى مجـال البحث التجريبى يشتمل على تحديد أى من القيم الخاصة بأحد التغيرات يتغاير مـع واحد أو أكثر من المتغيرات الاخرى . فالباحث يقوم نسقيا بعمل مزاوجة للقيم الخاصة بأحد المتغيرات مع القيم الخاصة بالمتغيرات الاخرى . فعلى سبيل المثال ، مجموعتا المشاهدات الموجودة فى الجدول رقم ١٠٣ يسجلان القيـم الخاصة بالتعليم (تم تعريفها عمليا بسنوات الدراسة) والدخل لستة افراد . والجدول يعبر عن وجـود علاقـة وذلك لان المزاوجـة قـد تمت بين مجموعتى القيم بطريقة منظمة ، فهما يتغايران معـا : التعليم الاعلى تمت مزاوجته بالدخل الاعلى ، والتعليم الاقل ، بالدخل الاقـل .

العلاقـة بين التعليم والدخل

المشاهدات	عدد سنوات الدراسة	الدخل
دان	١٦	٠٠٠ر٣٥ دولار
آن	١٥	٠٠٠ر٣٠ دولار
مارى	١٤	٠٠٠ر٢٧ دولار
جاكوب	١٣	٠٠٠ر١٩ دولار
فيليب	١٢	٠٠٠ر١٥ دولار
سوزان	١١	٠٠٠ر١٢ دولار

أنـواع العلاقـات :

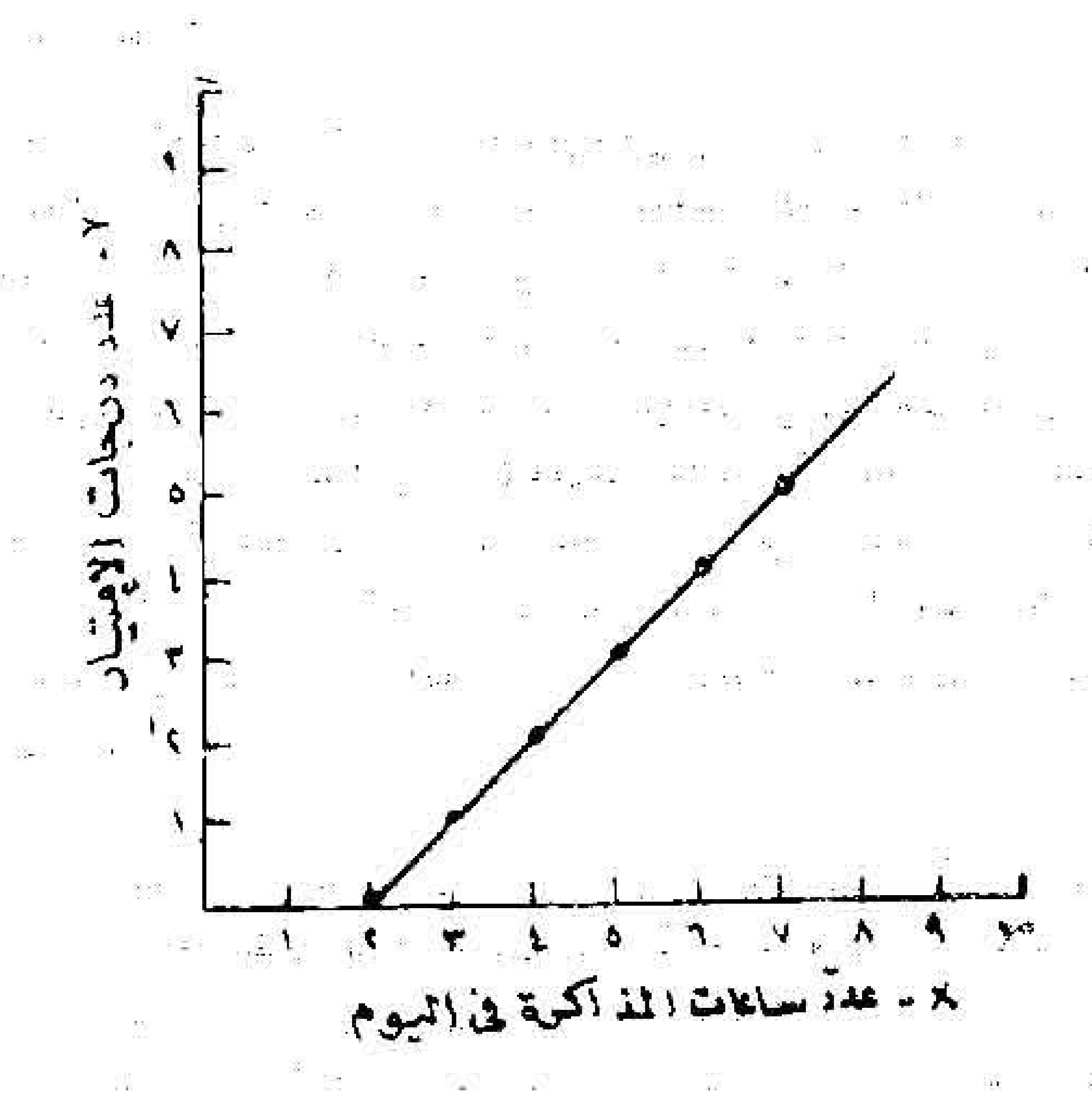
نحن نقول أن متغيرين يمتان الى بعضهما عندما تؤدى التغيرات فى قيـم أحدهمـا الى حـدوث تغيرات فى قيم الآخـر بطريقة نسقية . وفى المثـال الاخير رأينـا أن التغيرات الموجودة فى عدد سنوات الدراسـة قـد أحدثـت تغيرات فى الدخل ، وللعلاقات خاصتان تحظيان دائما بالاهميـة فى مجال البحث التجريبى ـ الاتجاه والحجم .

الاتجـــــاه :

عندما نتحدث عن « الاتجاه » فنحن نعنى بذلك أن العلاقـــات بين المتغيرات هى أما علاقات ايجابية أو سلبية . و « العلاقة الايجابية » تعنى أنه كمـــا أن القيم الخاصـــة بأحـد المتغيرات تزيد ، فان القيم الخاصـــة بالمتغير الآخـر هى أيضا تزيد . فمثلا ، العلاقـــة بين التعليم والدخل تعتبر علاقـــة ايجابية وذلك لان التزايد فى عدد سنوات الدراسة يؤدى الى مستوى دخل أعلى . كذلك هناك أيضا علاقـــة ايجابية بين الاهتمام بالامور السياســـية والمشـــاركة السياسية : فكلما أصبح الافراد أكثر اهتماما بالامور السياسية ، كلما ينحـون للمشاركة بشـــكل اكبر فى الانشـــطة السياسية . والعلاقة الايجابية كانـت موجودة أيضا بين التنميـــة الاقتصـــادية والانفاق الحكومى ، وذلك كمــــا أوضحنا فيما سبق .

أما « العلاقات السلبية » فهى تشير الى أنـــه كلما ازدادت القيم الخاصـــة بأحد المتغيرات ، فان القيم الخاصة بالمتغير الآخر تتناقص . وعلى سبيل المثال ، نجد أن سعر الفائـــدة على المنزل المرهـــون تمت بشـــكل سلبى الى عـــدد القروض لمنزل جديد : كلما ازداد معدل الفائـــدة ، كلما تناقص عدد القروض على المنزل الجديد . كذلك ، نجد هناك أيضـــا علاقـــة سلبية بين التعليم والتحزب العرقى : فكلما ارتفع المستوى التعليمى للناس كلما نحوا لكى يكونوا أقل تحـزبا . العلاقة السلبية أيضا موجودة بين البيروقراطيـــة والمشـــاركة السياسية : فكلما أصبح النسـق السياسى أكثر بيروقراطية ، كلما تهاوى مستوى المشـــاركة السياسية .

والعلاقة بين أحد المتغيرات المستقلة ومتغير تابع يمكن تصويرهـــــا بمساعدة المحورين المتعامدين فباتباع الحساب الرياضى ، فان x ، المتغـــير المســـتقل ، يمثلها المحور الافقى ، ، المتغير التابع مثلهـــا المحور الرأسى ؛ القيم الخاصـــة بـــ x توضع على المحور x ، وقيم Y توضـــع عـــلى المحور Y ومن الطرق الشائعة كثيرا فى مشاهدة وتفسير أحدى العلاقات ، هى أن نضع تصميما لكل من القيمتين x ، باستخدام محورى x و كاطـــار يمكن الاستشهاد بـــه . والآن لنفترض أنـــه فى أحـــدى الدراســـات الخاصـــة بالانجـــاز الاكاديمى ، كان لدينـــا مجموعتين من القيـــاس : x تقيس عدد الساعات التى يخصصهـــا الطالب للمذاكرة كل يوم ، تقيس عدد الدرجات الممتازة التى حصل عليها طالب فى فصل دراسى معين . والجدول رقم ١ يبين البيانات الفرضيـــة لتســـعة من الطلبـــة عن كـــلا القياسين ، أما القياسات فقد تم رسمها فى الشكل رقم (٥) .



الجدول (١) : عدد ساعات الدراسة فى اليوم وعدد الدرجات الممتازة (بيانات مفترضة نظريــا)

عدد ساعات الدراسة فى اليوم (x)	عدد الدرجات الممتازة (Y)
٨	٥
٧	٥
٦	٤
٥	٣
٤	٢
٤	١
٣	١
٢	٠
١	٢

والآن ، يمكن توضيــح العلاقة بين عدد ساعات المذاكـرة اليوميــة (متغير مستقل) وعدد درجات الامتيــاز (متغير تابع) : فالقيــم المرتفعــة على المحور x تمت الى ارتفـــاع القيم على المحور Y ، والقيم المتوســـطة على المحور x تمت الى القيم المتوسطة على المحور Y ، كما أن القيم المنخفضــة

على المحور x تمت الى القيم المنخفضة على المحور Y . أما العلاقة بين المتغير المستقل x والمتغير التابع Y فترتسم فى التوزيع المشترك للقيم . والخط المستقيم الذى يمر عبر النقط والذى يمثل كلا القيم فيشير الى اتجاه العلاقة . أكثر من ذلك ، أنه بمساعدة المعلومات المأخوذة عن صفات الخط المستقيم (ميله وانحصاره) ، يستطيع الباحث أن يتنبأ بالقيم الخاصة بالمتغير التابع وفقا للقيم الخاصة بالمتغير المستقل . (ولمعرفة المناهج الخاصة بحساب الميل والحصار ، أنظر الفصل ١٣) وبهذا ، اذا ما عرفت درجة الميل الخاصة بالخط المستقيم ، وكذلك القيمة الخاصة بالنقطة التى يتقاطع عندها على المحور x ، سوف يكون من الممكن التنبؤ بكم عدد من ساعات المذاكرة اليومية سوف يعطى كم من الدرجات الممتازة .

الحجم :

بالاضافة الى ان العلاقات بين المتغيرات تتصف بالاتجاه فهى ايضا تتصف بـ « الحجم » . وحجم علاقة ما هو القدر الذى يتغاير به المتغيرات معا ايجابيا أو سلبيا . واكبر حجم من العلاقة يعتبر « علاقة متكاملة » ، المعرفة فيها بالقيمة الخاصة بواحد أو أكثر من المتغيرات المستقلة هو الذى يحكم بالضبط القيمة الخاصة بالمتغير التابع . وتعتبر القوانين الطبيعية مثل $E = mc^2$ (قانون طاقة الكتلة لاينشتاين) أمثلة للعلاقات المتكاملة وذلك لانه ليس هناك استثناء من القاعدة . والمثال النظرى فى الجدول رقم ١٠٣ يعرض لنا العلاقة المتكاملة : انه ليس هناك أى استثناء من القاعدة بأن التزايد فى عدد سنوات الدراسة يحقق تزايدا فى الدخل .

وعلى الطرف الآخر ، هناك الحجم الادنى من العلاقة « علاقة الصفر » . وفى هذه العلاقة لا يمكن الكشف عن أى تغاير نسقى مشترك بين القيم الخاصة بأحد المتغيرات المستقلة ومتغير تابع ، أى أن ، المتغيرات لاتمت لبعضها ، فما يحدث من تغيير فى أحد المتغيرات لا يؤثر فى القيم الخاصة بالمتغير الآخر .

والغالبية العظمى من العلاقات التى تمت دراستها فى العلوم الاجتماعية تتراوح بين حجم الصفر والحجم الكامل . ولذا نجد أن العلاقة بين التعليم والدخل رغم انها ايجابية الا أنها ليست علاقة متكاملة : فالافراد الحاصلين على درجة أعلى من التعليم « ينحون » الى الحصول على قدر أعلى من الدخل ، ومع ذلك فهناك استثناءات كثيرة من هذه القاعدة . كذلك ، العلاقة بين التعليم والتحزب العرقى هى علاقة سالبة ولكنها ليست متكاملة : فليس كل الافراد الحاصلين على قدر أعلى من التعليم خالين من التحزب ، وليس كل الاشخاص الحاصلين على قدر أقل من التعليم بمتحزبين .

وقد انتهينا الآن من مناقشة المتغيرات والعلاقات ، أصبحنا فى وضع يتيح لنا أن نستكمل بشكل أدق فكرة وصفات الفرضيات النظرية .

الفرضيات النظرية :

الفرضيات النظرية هى ردود تجريبية على مشاكل البحث . والتعبير عنها يتم على شكل علاقة بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة . كما أن الفرضيات النظرية هى حدسيات تجريبية لان تقييم صحتها يمكن أن يتم « فقط » بعد أن يتم اختبارها تجريبيا . فعندما يقوم الباحث بطرح احدى الفرضيات النظرية ، لا يكون لديه ضمانة مؤكدة بأنه يمكن التحقق منها . والفرضية النظرية يتم تركيبها وبناؤها ، فاذا ما تم رفضها ، تتقدم غيرها ، واذا ما قبلت ، يتم ادخالها فى الهيكل العلمى للمعرفة .

والفرضيات النظرية يمكن استخراجها من النظريات بطريقة الاستنباط ، أو من المشاهدات مباشرة ، أو عن طريق البداهة ، أو بمزيج من هذا كله . كما أن المصادر التى يستمد منها الباحثين فرضياتهم النظرية ليست ذات أهمية كبيرة بالمقارنة بالوسيلة التى يرفضون بها هذه الفرضيات . ولذلك ، هناك من يؤمنون بأن التفاحة التى سقطت من الشجرة هى التى جعلت نيوتن يطرح فرضيته النظرية عن الجاذبية . ومع ذلك ، فلم تكن هذه الواقعة هى التى حثت العلماء على قبول هذه الفرضية ، ولكنها البيانات التجريبية هى التى جعلتهم يقبلونها .

وفرضيات البحث النظرية تتقاسم فى أربع صفات مشتركة ، هذه الصفات هى « الوضوح » ، « حرية القيمة » ، « خاصية التحديد » ، « قابليتها للخضوع للاختبار التجريبى » بمناهج البحث المتاحة ، ولكى نساعدك فى وضع الفرضيات النظرية الخصة بك وجعلك قادرا على تقييم فرضيات الآخرين ، فسوف يكون من المفيد أن نتفحص هذه الصفات بمزيد من التفصيل .

الفرضيات النظرية لابد أن تكون واضحة . والوضوح يتحقق عن طريق التعريفات التصورية والعملية التى ناقشناها فى الفصل الثانى . فلكى يتم اختبار احدى الفرضيات بوسيلة تجريبية ، على الانسان أن يقوم عمليا بتعريف جميع المتغيرات فى الفرضية . وفى هذا الشأن ، يمكن للمادة المهنية وآراء الخبراء أن يكونا ذا فائدة عظيمة عندما يقوم المرء بوضع الفرضيات وتعريف المتغيرات . فمثلا ، اذا كانت الفرضية النظرية تقول أن التغريب يمت سلبا للمشاركة السياسية ، فعندئذ يكون التغريب هو

المتغير المستقل والمشاركة السياسية هى المتغير التابع . واذا ما تفحصنا المادة المهنية فسوف يساعدنا ذلك فى أن نرى كيف قام الباحثون الآخرون بتعريف المتغيرات . فمن بين هذه التعريفات سوف يجد الانسان ما يناسب فرضيات البحث الذى يقوم به . فاذا كانت التعريفات لا تشبع رضاء الباحث ، فهو يستطيع أن يبنى على تجارب الآخرين بينما يقوم بتعريف المتغيرات بطريقة تعبر عن فهمه الخاص . وعلى أية حال ، فان التعريفات العملية يجب أن تكون محددة ودقيقة بحيث تكون المشاهدة وتكرار التجربة عمليتان ممكنتان .

الفرضيات العلمية حرة القيمة . من ناحية المبدأ ، القيم الخاصة بالباحث ، تحيزاته ، واختباراته الذاتية ليس لها مكان فى اطار المدخل العلمى . ومع ذلك ، فمع العلم بأن البحث فى مجال العلوم الاجتماعية يعتبر الى حد ما من النشاطات الاجتماعية التى تتأثر موضوعاتها بالمحيط الذى تقع فيه ، الا ان الباحث لابد أن يدرك ويكون على علم بتحيزاته الشخصية ويجعلها واضحة بقدر الامكان . وطبقا لما كتبه ميردال Myrdal فى هذا الشأن :

« ان المحاولة لاستئصال جوانب التحيز ومحاولة ابعاد التقييمات نفسها لهو مخاطرة يائسة وخاطئة الاتجاه . . . وليس هناك وسيلة لاستبعاد مظاهر التحيز من العلوم الاجتماعية الا بمواجهة القيميات وتقديمها كمقدمات للقيمة بأكبر قدر من البيان الواضح ، والمحدد ، وبما يكفى من الدعامة المادية » .

الفرضيات النظرية ذات خاصية محددة . على الباحث أن يبسط ويشرح العلاقات المتوقعة بين المتغيرات من حيث الاتجاه (أى موجبة أو سالبة) والظروف التى سوف تنشأ تحتها هذه العلاقات . فالفرضية التى تقول بأن x تمت الى Y هى فرضية غاية فى العمومية . فالعلاقة بين (x) و (Y) يمكن أن تكون علاقة موجبة أو سالبة . أكثر من ذلك ، أن العلاقات ليست بمستقلة من ناحية الزمان أو المكان ، أو وحدة التحليل . وكما رأينا من قبل ، أن العلاقات الملحوظة بين المتغيرات قد تتلاشى عندما تتغير وحدة التحليل (كالخداع البيئى ، على سبيل المثال) . ولذلك ، فان العلاقات بين التعليم ، مثلا ، والمشاركة السياسية يمكن دراستها سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ، فهذين المستويين المختلفين من التحليل يتطلبان تصورات مختلفة وتعريفات عملية مختلفة . والفرضية النظرية سوف تعبر عن العلاقات المتوقعة بين

المتغيرات وكذلك الظروف التى يكون من المنتظر للعلاقات أن تعبر عن نفسها تحت ظلها . وهنا تصبح النظرية ذات أهمية خاصة فى خلق فرضيات نظرية مثمرة قابلة للبحث .

الفرضيات قابلة للبحث بالمناهج المتاحة . من الممكن للانسان أن يصل الى فرضيات واضحة ، حرة القيمة ، وذات خاصية محددة ثم يجد انه ليس هناك مناهج بحثية لاختبارها . فكيف ، مثلا ، نتمكن من اختبار الفرضية بأن الشىء أ أطول من ب دون مقياس ؟ أو كيف يمكن لنا أن نختبر الفرضية بأن الافرازات الخاصة بالميكروب ج لها علاقة موجبة مع المرض د دون جهاز يسمح بالتعرف على الميكروب ؟ أو كيف نتمكن من اختبار العلاقة بين التعليم والمشاركة السياسية دون أن يكون لدينا أجهزة تشاهد هذه المتغيرات بطريقة نسقية ؟

ان بساطة هذه الامثلة يجب أن تؤكد دعوانا بأن تقييم الفرضيت النظرية يعتمد على وجود المناهج التى يمكن اختبارها بها . وفى الحقيقة ، فان تحقيق التقدم فى مجال العلم يرتبط بشكل وثيق بتطور مناهج البحث الجديدة ، ومناهج المشاهدة ، وتجميع البيانات ، وتحليل البيانات ، والتعميم .

وهناك بعض علماء الاجتماع الذين لا يعطون قيمة كبيرة للمناهج خشية الوقوع فى أسرها . وبطبيعة حال ، من الممكن للانسان أن يقع أسيرا لبعض مناهج البحث اذا استخدمها دون روية ، ودون اعتبار لمشكلة البحث التى بين يديه ، أو اذا ما اعتبر المنهج غاية فى حد ذاته . بل وحتى الفرضيات النظرية التى تفتقر الى مناهج الاختبار قد تجد لها مكانا فى المدخل العلمى اذا ما كانت لها صفة الابتكار . ومع ذلك ، فان عملية التحقق منها تعتمد على القدرة على اختبارها ، وهو الشىء الذى يعتمد ، بدوره على توافر مناهج البحث .

نماذج من المشاكل والفرضيات النظرية :

ان المشاكل هى مسائل تدور حول العلاقات بين المتغيرات ، والفرضيات النظرية هى ردود تجريبية ، مادية ، وقابلة للاختبار . وعدة أمثلة قليلة سوف توضح لنا الفارق بين المشاكل والفرضيات النظرية والمشاكل ما هى الا تساؤلات عامة تدور حول العلاقات بين المتغيرات . وفيما يلى نماذج من هذه التساؤلات البحثية :

* من هو الذى يحكم أمريكا ؟

* ما هو سبب التضخم ؟
* لماذا تهدد البيروقراطية الديموقراطية ؟
* هل قانون تحديد السرعة بـ ٥٥ متر فى الساعة يحقق غرضه ؟
* هل التكامل العنصرى فى المدارس يرفع من قيمة التحصيل العلمى ؟
* ما هى العوامل التى تحكم عملية التحضر ؟
* ما هو سبب العنف السياسى ؟

مثل هذه التساؤلات العامة تم ادخالها فى سلسلة من الفرضيات النظرية . فمثلا ، التساؤل الخاص بالعنف السياسى . هذا التساؤل رد عليه « تيدجير » Ted Gurr بسلسلة من الفرضيات النظرية اشتملت على مايلى :

* الاحتمال للعنف السياسى يتزايد كلما تزايدت شدة ومدى الحرمان النسبى بين أعضاء التشكيل الجمعى .
* الاحتمال للعنف السياسى يتفاوت بشدة مع شدة ومدى المسوغات المعيارية للعنف السياسى بين أعضاء التشكيل الجمعى .
* الاحتمال للعنف السياسى يتفاوت بشدة مع شدة ومدى التبريرات النفعية للعنف السياسى بين أعضاء التشكيل الجمعى .
* الاحتمال للعنف سياسى بصفة خاصة يتفاوت بشدة مع الاحتمال للعنف السياسى بصفة عامة .
* حجم العنف السياسى يتفاوت بشدة مع الاحتمال للعنف السياسى .
* شدة الحرمان النسبى تتفاوت بشدة مع متوسط درجة ادراك التباين بين توقعات القيمة وقدرات القيمة .

ومن الامثلة الاخرى لبناء الفرضية النظرية ، هى الدراسة التى قام بها جيبس ومارتن عن أسباب التحضر . وقد افترض المؤلفان أن :

* درجة التحضر فى مجتمع ما تتفاوت مباشرة مع تقسيم العمل .
* تقسيم العمل فى المجتمع تتفاوت مباشرة مع انتشار مع حاجات الاستهلاك .
* درجة التحضر فى المجتمع تتفاوت مباشرة مع التنمية التكنولوجية .
* التنمية التكنولوجية تتفاوت مباشرة مع انتشار حاجات الاستهلاك .

مصادر المشاكل والفرضيات النظرية :

المشاكل والفرضيات البحثية من الممكن استنباطها من النظريات ، أو من المشاهدات مباشرة ، أو عن طريق الحدس ، أو من مزيج من هذا كله . ولكن لربما كان اكبر مصدر للمشاكل والفرضيات هى المادة المهنية . والباحث بقيامه بعملية استعراض نقدية لهذه المادة المهنية قد يتعرف على حالة المعرفة ، على المشاكل والفرضيات التى درسها الآخرون ، وعلى المفاهيم ، والنظريات ، والمتغيرات الرئيسية ، والتعريفات التصورية والعملية ، وعلى مناهج البحث المستخدمة . وهذا سوف يسهم أيضا فى الطبيعة التراكمية للمعرفة .

وحيث أن هناك الآلاف من المقالات والكتب التى تنشر كل عام فى مجال العلوم الاجتماعية ، فمن الافضل البدء فى اى بحث بواحد من دليل المادة المنشورة . فمثل هذا الدليل أصبح يخضع بشكل متزايد لعمليات البرمجة الاحصائية وصار يضم البيبليوغرافيا ، والفهارس ، والملخصات .

البيبليوغرافيا ، والفهارس ، والملخصات :

البيبليوغرافيا والفهارس المفيدة فى أدب المادة المهنية فى مجال العلوم الاجتماعية هى ما يلى :

- بطاقة تبويب المكتبة ، دليل الموضوع .
- بطاقة تبويب الاتحاد القومى .
- البيبلوغرافيا العالمية للعلوم الاجتماعية
- دليل علم الاجتماع .
- النشرة الاعلامية فى الشئون العامة .
- التنويه بعلم الاجتماع .
- فهرس : دليل الموضوع .
- دليل السيرة .
- دليل عرض الكتب .
- الفهرس الجامع للكتاب
- دليل التعليم .
- دليل الصحف الاقتصادية .

هذه القائمة بالبيبليوغرافيا والفهارس تمثل تنويها كاملا وضروريا للعثور على أدب المادة التى يبحث عنها الشخص . وبجانب هذا ، هناك ملخصات تشتمل على خلاصات قصيرة للعمل المذكور . والملخصات المفيدة فى هذا الشأن تضم ما يلى :

- المبحث العالمى للملخصات .
- الملخص العالمى لعلم السياسية .
- ملخصات تاريخية .
- ملخصات سوسيولوجية .
- ملخصات سيكلوجية .
- ملخصات الادارة العامة .
- جريدة الملخصات الاقتصادية .
- ملخصات SAGE للدراسات الحضرية .
- النسق الشامل للمراجع : علم السياسة .
- سلسلة الحكم والسياسة العامة .

الصحف المهنية :

لقد صارت الصحف الخاصة بعلم الاجتماع من الكثرة اليوم بحيث أصبح لابد من الاستعانة بالملخصات ، والفهارس ، وغيرها من الوسائل التى يسترشد بها الانسان للوصول الى مكان المادة التى تهمه . ومع ذلك ، فلغرض الاحاطة ، فيما يلى قائمة ببعض الصحف الرئيسية فى هذا الشأن :

علوم سياسية :

— المعرض الامريكى للعلوم السياسية .
— الجريدة الامريكية للعلوم السياسية .
— الفصلية الامريكية للشئون السياسية .
— دراسات سياسية مقارنة .
— جريدة أوربا فى البحث السياسى .
— صحيفة الشئون السياسية .
— علوم سياسية .
— فصلية الشئون الحضرية .
— الفصلية السياسية الغربية
— صحيفة الدراسات السياسية .
— فصلية العلوم السياسية .
— نظام الحكم .
— الادارة العامة .
— الصالح العام .
— فصلية الرأى العام
— شئون السياسة العامة
— شئون السياسة العالمية .

سوسيولوجى :

— الجريدة الامريكية للسوسيولوجيا
— العلاقات البشرية .
— الجريدة الدولية للسوسيولوجيا المقارنة .
— جريدة السوسيولوجيا الرياضية
— جريدة القضايا الاجتماعية .
— الكشاف الامريكى السوسيولوجى
— القوى الاجتماعية .
— المسائل الاجتماعية .
— الفصلية السوسيولوجية .
— السوسومترى .

علم النفس :

— العالم السلوكى الامريكى .
— جريدة البحث التطبيقى فى السلوك .
— جريدة علم النفس التطبيقى .
— جريدة علم النفس الاجتماعى التطبيقى .
— النشرة السيكولوجية .

ادارة وقيـــادة :

— جريدة أكاديمية القيادة .
— فصلية علم الادارة .
— الادارة والمجتمع .
— جريدة القيادة المتقدمة .
— علوم القـــرار .
— التقويـــم .
— فصلية التقويم
— كشاف هارفارد فى مجال العمل .
— علم القيـــادة .
— كشاف الميدويست للادارة العامة
— كشاف الادارة العامة .
— الادارة الشخصية .

اقتصاديـــات وعمـــل :

— الكشاف الاقتصادى الامريكى
— جريدة بل لعلم الاقتصاديـــات والادارة .
— المقياس الاقتصادى .
— الجريدة الاقتصادية .
— الثـــروة .
— جريدة الاقتصاد السياسى .
— الجريدة الفصلية للاقتصديات .
— الكشاف الاقتصادى والاحصائى
— علـــوم التخطيط الاجتمـــاعى الاقتصـــادى .

مصادر احصائية :

من بين المصادر الاحصائية المفيدة تماما ، يجىء فى مقدمتها ما يلى :

✻ « أحصائيات تاريخية عن الولايات المتحدة : من العصور الاستعمارية الى ١٩٥٧ » ، عن المكتب الامريكى للاحصائيات الســكانية . وهو ملحق يحوى ملخصات احصائيـــة . قام بطبعه دار الطباعـــة الحكومية الامريكية : واشنطن العاصمة ، ١٩٦٠ مرتب فى ستة وعشرين فصـــلا تضم : الســكان ، الاحصائيات الحيوية والرعايـــة الصحيـــة والطبيـــة ، الهجرة ، العمل ، الاسعار ومؤشرات الاسعار ، الدخل القومى والثروة ، دخل المستهلك وجوانب الانفاق ، احصائيات اجتماعية ، الارض والميـــاه ، المناخ ، الزراعـــة ، الغـــابات والصـــيد ، المعادن ، التشييد والاســكان ، الصناعات ، النقـــل ، الاتصـــال ، الطاقـــة ، التوزيع والخدمات ، التجارة الخارجية والمعاملات الدوليـــة الاخرى ، العمـــل الاستثمارى ، الانتاجية والتنميـــة التكنولوجية ، البنـــوك و المـــال ، الحكومة ، احصائيـــات استعمارية . وفهرس للاسماء والموضوعات .

✻ « احصائيات تاريخية عن الولايت المتحدة : من العصور الاستعمارية الى ١٩٥٧ — ثم حتى ١٩٧٢ وتنقيحات » . ملحق يحوى ملخصات احصـــائية . دار الطباعة الحكوميـــة الامريكية ، ١٩٧٢ ، واشـــنطن العاصمة . مرتـــب فى جزئيين : استطراد لسلسلة » الاحصائيـــات التاريخيـــة ، ومراجعة لسلسلة « الاحصائيات التاريخية » .

* « ملخص احصائى عن الولايات المتحدة » ، ١٩٧٩ . الطبعة المائة ، المكتب الامريكى للاحصائيات السكانية دار الطباعة الحكومية الامريكية : واشنطن العاصمة ، ١٩٧٩ . وهو مرتب فى ثلاثة وثلاثين قسما : السكان ، الاحصاء الحيوية ، الصحة والتغذية ، الهجرة والتجنس ، التعليم ، فرض القانون ، المحاكم الفيدرالية ، والسجون ، المساحة ، والجغرافيا ، والمناخ ، الاراضى العامة ، المنتزهات ، النشاط وتجديد القوى ، والسفر ، القوة العاملة . العمالة والتكسب ، الدفاع القومى والشئون الحربية ، الضمان الاجتماعى وخدمات الرفاهية ، جوانب انفاق الدخل ، والثروة ، الاسعار ، الانتخابات ، الشئون المالية والعمالة فى الحكومة الفيدرالية ، الشئون المالية والعمالة فى الولايات والحكم المحلى ، البنوك ، والمال ، والتأمين ، العمل الاستثمارى ، الاتصالات ، الطاقة : العلم ، النقل — الارض ، النقل — الهواء والمياه ، الزراعة — المزارع ، والارض ، والتمويل ، الزراعة — الانتاج ، والتسويق ، والتجارة ، الغابات ومنتجات الغابات ، صيد الاسماك ، التعدين والمنتجات المعدنية ، التشييد والاسكان ، الصناعات ، التوزيع والخدمات ، التجارة والمعونة الخارجية ، المناطق المتطرفة الخاضعة لسلطة الولايات المتحدة ، احصائيات دولية مقارنة . هذا بجانب ثلاثة ملاحق ، وفهرس للاسماء والموضوعات .

* « الاحصاء السكانى للولايات المتحدة حسب الولايات » . واشنطن العاصمة : دار الطباعة الحكومية الامريكية ، ١٩٧٣ .

يتضمن المعلومات التالية عن أكثر المناطق حضرية والتى تضم ٢٫٥٠٠ نسمة أو أكثر : حجم السكان طبقا للجنس ، المجموعات المهنية طبقا للجنس ، لون السكان حسب الجنس ، عمر السكان حسب الجنس ، سنوات الدراسة ، الحالة الاجتماعية للذكور والاناث ، من أربعة عشر عاما فما فوق ، دولة الميلاد للبيض من المواليد الاجانب (ينشر كل عشر سنوات) .

* « الدليل العالمى للمؤشرات الاجتماعية والسياسية » ، بقلم تشارلس ل . تايلور Chares L. Taylor وميشيل سى . هودسون Michael C. Hadson طبعة ثانية منقحة . نيوهافن : جامعة ييل ، ١٩٧٢ . وهو تصنيف موسع لخمسة وسبعين متغيرا لـ ١٣٣ دولة ومستعمرة على اساس مؤشرات تغطى موارد الثروة البشرية ، الحكم والشئون السياسية ، الاتصال ، الثروة ، الصحة ، التعليم ، الاسرة والعلاقات الاجتماعية ، توزيعات الثروة والدخل ، والدين .

والكتب الارشادية عن المدينة غالبا ما تفيد فى اعطاء حلقة واسعة من المعلومات الخاصة بالصناعات والتنظيمات الاجتماعية فى المجتمع . وهى تضم قوائم بالاشخاص مرتبة حسب الحروف الابجدية وقائمة نمطية بمهنة وعنوان كل شخص بالغ .

* « كتاب المعلومات عن المقاطعات والمدن » . واشنطن العاصمة : دار الطباعة الحكومية الامريكية . وهو يحوى عدد كبير من الجداول لكل مقاطعة وللمدن التى يسكنها ۲٥٫۰۰۰ أو أكثر . كما يتضمن جداول عن مجالات مثل القوى العاملة ، الدخل ، الانتخابات ، البنوك والمال ، مشروعات العمل ، التعليم .

* « الكتاب السنوى للمجالس البلدية » . شيكاغو : الاتحاد الدولى لمديرى المدن . (يطبع سنويا) . وهو مرجع رسمى لحكومات المجالس البلدية . ويضم الحقائق المتاحة عن دور الحكومات المدنية (بما فى ذلك التعليم ، الاسكان ، الرفاهية ، الصحة) ويتيح امكانية مقارنة أى مدينة بالمدن الاخرى وفقا لمئات المتغيرات .

ـ هولر ، فريدريك Holler, Fredrick « مصادر المعلومات لعلم السياسة » . سانتا بربارا ، كاليفورنيا : المركز الامريكى للببليوغرافيا ـ Clio Press ، ۱۹۷۱ .

ـ هوزلتيز ، بيرثول Hoselitz, Berthol . « دليل القارىء للعلوم الاجتماعية » . نيويورك : Free Pres ، ۱۹۷۰ .

ـ كالفلاجم ، كارل Kalvelagem, Carl. ومورلى سيجال Mroley Seagal وبيتر أندرسون Peter Andrson « دليل البحث فى العلوم السياسية لطلبة السنوات النهائية » . موريس تاون ، نيوجيرسى : General Learning Press ، ۱۹۷۲ .

ـ ماسون ، جون براون Mason, John Brown « مصادر الباحث : الدليل المفسر للعلوم الاجتماعية » . المجلد رقم ۱ ، ۱۹٦۸ ، والمجلد رقم ۲ ، ۱۹۷۲ ، سانتا باربارا ، كاليفورنيا : المركز الامريكى للبيبلويوجرافيا ـ Clio Press ،

ـ ميريت ، ريتشارد ل . Merrift, Richard L. وجلوريا ج . بايزكا Gloria J. Pyszka « كتاب الطالب للعالم السياسى » . كامبريدج ، ماساتشوستس : Schenkman ، ۱۹٦۹ .

— ميللر ، ديلبرت س . Miller, Delbert C « كتاب تصميم البحث والقياس الاجتماعي » . الطبعة الثالثة . نيويورك : Mckay ١٩٧٧ .

— وايت ، كارل م . White, Carl M. « مصادر المعلومات في العلوم الاجتماعية » ، شيكاغو : اتحاد المكتبات الامريكي ، ١٩٧٣ .

ملخص :

ان مشكلات البحث هي محرضات فكرية تتطلب الاجابة عليها على شكل استقصاء علمي . والمشكلات التي تقبل الخضوع للبحث يكون لها اساس تجريبي ، واضح ، ومحدد . وفي المرحلة التي تتكون فيها المشكلة ، على المرء أيضا أن يضع اعتبارات جدية لوحدات التحليل . وهذه الوحدات هي بمثابة الكيانات التي ترجع مفاهيمنا اليها والتي تؤثر على عمليات البحث المتتالية . وهناك حالتان من الخداع ، الخداع البيئي والخداع الذاتي ، من الممكن حدوثهما ، وذلك عندما يقوم الانسان بتحليل وحدات معينة ولكنه يصل الى استدلالات تتعلق بوحدات أخرى .

ولكي يتم الإنتقال من مستوى التصور الى مستوى المشاهدة ، يتم تحويل التصورات الى متغيرات وذلك بوضعها في مجموعة من القيم . والمتغير هو خاصية تجريبية تأخذ شكل قيمتين أو أكثر . ولفرض البحث ، يجرى التمييز بين المتغيرات المستقلة ، والتابعة ، والضابطة . والمتغير المستقل يعتبر هو السبب المفترض لحدوث المتغير التابع ، والمتغير التابع هو الناتج المفترض عن المتغير المستقل . أما المتغيرات الضابطة فهي تخدم غرض الاختبار للعلاقات الملحوظة بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ، فيما اذا كانت علاقات زائفة أم لا . كما أن المتغيرات من الممكن أيضا أن تكون متواصلة أو تكون متغيرات منفصلة قائمة بذاتها . والمتغير القائم بذاته له وحدة حجم ذات حد ادنى ، أما المتغير المتصل فليس له وحدة حجم ذات حد ادنى .

والعلاقة في مجال البحث التجريبي تعني دائما العلاقة بين متغيرين او أكثر . ونحن عندما نقول أن هناك صلة بين متغيرين ، فاننا نعني بذلك أن هناك شيء ما مشترك بينهما . والعملية التي يتم فيها انشاء العلاقة ، تشتمل على تحديد لما هي القيم الخاصة بأحد المتغيرات التي تتغاير بشكل مشترك مع القيم الخاصة بالمتغيرات الاخرى . وهناك خاصيتان للعلاقات يجب التأكيد عليهما : الاتجاه والحجم . وعندما نتحدث عن الاتجاه ، فنحن نقصد بذلك ان العلاقة بين المتغيرات اما تكون موجبة أو سالبة . أما حجم العلاقة فهو المدى الذي تتغاير فيه المتغيرات بشكل مشترك ايجابا أو سلبا .

والفرضيات النظرية هى اجابات تجريبية على مشكلات البحث . والتعبير عن هذه الفرضيات يتم فى شكل علاقة بين المتغيرات المستقلة والمتغـــيرات التابعة . وفرضيات البحث تكون واضحة ، حرة القيمة ، ذات خاصية محددة ، وتخضع للاختبار التجريبى بمناهج البحث المتاحة .

والمشكلات والفرضيات النظرية للبحث يمكن أخذها من النظريات ، أو عن طريق المشاهدة مباشرة ، أو عن طريق الحدس ، أو بمزيج من هذا كله . ولكن المصدر الأكبر للمشكلات والفرضيات هو أدب المادة المهنية . ولا بد للانســـان من أن يكون على معرفة بوسائل الارشاد الرئيسية التى تهدى الى الابحـــاث المنشورة ، وهى تضم البيبليوغرافيا ، والفهارس ، والملخصات ، والصحف ، وكتب المصادر الاحصائية .

عرض للمصطلحات الاساسية :

مشكلة البحث	Research Problem	متغيرات منفصلة	Discrete Variables
وحدات التحليل	Units of analysis	متغيرات متصلة	Continuous Variables
الخداع البيئى	Ecological Fallacy	علاقات	Relations
المتغير المستقل	Independent Variable	حجم العلاقة	Magnitude of a relation
المتغير التابع	Dependent Variable	فرضية نظرية	Hypothesis
المتغيرات الضابطة	Contral Variables		

قراءات اضافية :

ـ آبل ، بيتر Abell, Peter **« بناء النموذج فى علم الاجتماع » . لندن :** Weiden feld & Nicholson : **١٩٧١ .**

ـ دوبن ، روبرت Dubin, Robest « مغامرة البحث » . نيويورك : Randon House ، ١٩٧٢ .

ـ جراهام ، جورج . ج Graham, George J. « الاسس المنهجية للتحليل السياسى » . Waltham, Mass : Xerox College Publishing, 1971.

ـ هانان ، ميشيل ت . Hannan, Michael T. « الاجمالى والتقسيم فى علم الاجتماع » . Lexington, Mass. : Lexington Books ١٩٧١

— ميرتون ، روبرت ك . Merton, Rabest K. « العثور على المشكلة فى علم الاجتماع » ، فى « علم الاجتماع اليوم » ، اعداد روبرت ك . ميرتون ، ليونارد بروم ، وليونارد كوتريل . نيويورك : Basic Books ١٩٥٩ .

— بولانى ، ميشيل Polanyi, Miehael « المعرفة الشخصية » . نيويورك : Harper & Row ١٩٦٢ .

— رينولدز ، بول د . Rynolds, Paul D. « مبادىء فى تكوين وبناء النظرية » . نيويورك : Bobbs — Merrill ١٩٧١ .

— سميث ، مافيوس Smith, Mapheus « الفرضية مقابل المشكلة فى الاستقصاء العلمى » . فلسفة العلم ، ١٢ (اكتـــوبر ١٩٤٥) : ٢٩٦ — ٣٠١ .

الفصل الرابع

مراحل البحث العلمي

منهج البحث العلمي

لعل من أبرز خصائص البحث العلمي أنه يحرر العقل من قيود النقل والتقليد ويطلقه فى ميادينه الواسعة ، معتمدا على قوته التى يظهر انها لا تحد وعلى اختباره العلمي الراهن وهذا هو تعريف « جبرائيل جبور » ومما قاله ويليام بيفردج W. BEVERIDGG « ان غبطة الاكتشاف والمعرفة الاعظم مكافأة تقدمها الحياة للباحث كما أنها أعظم لذه اعترف بها العالم بأسره .

تعريف شامل للبحث : ــ

البحث هو الحقيقة « التى لا يخضع حكمها لذات أو لمكان أو لزمان » وهو ما يتمثل فى محاولة البحث عن اكتشاف المعرفة والتنقيب عنها وتنميتها ، وفحصها ، وتحقيقها ، بتقصى دقيق ، ونقد عميق ثم عرضها عرضا متكاملا بذكاء وادراك ، لتسير فى ركب الحضارة العالمية وتسهم فيه اسهاما انسانيا حيا وشاملا .

ومن حيث صفات الباحث الاصيل كما ذكرها جاك « بارزان » . Jacqu Es. BARzun فى كتابه الباحث الحديث .

من هذه الصفات : ــ

الدقة فى جميع مظاهر البحث ، ومحبة النظام والتنظيم والتحلى بالمنطق والامانة ، والشعور بالمسئولية ، والقدرة على التأمل والتفكير . .

ويشبه بارزان البحث بالتمثال والباحث بالمثال الذى يعالج تمثاله ويصلح من هيئته ولا يرفعه الى قاعدة عالية الا بعد أن يرضى عنه .

منهج البحث : ــ

منهج البحث فى جميع حقول المعرفة واحد . والهدف هو التوفيق بين النشاط الذاتى المبدع والمعلومات الاولية والوسائل التى تظهر فى سياق البحث . على أن فضائل البحث عامة فضائل متصلة بالتكوين السليم للانسان ومن ثم بالانسانية جميعا .

المقومات الثلاثية الاساسية للبحث : ـــ

أولا : ـــ المقومات الذاتية : The Subjective MoDe

وتعتمد هذه المقومات على : ـــ

١ ـــ قوة الابتكار والتجديد .

٢ ـــ الرغبة الملحة فى الاستمرار .

٣ ـــ المثابرة على العمل أو التقصى الدقيق فى البحث .

وهذا هو ما نعنيه بمنهج التفكير عند الباحث .

ثانيا : ـــ

المقومات الموضوعية The Objective MoDe.

ونعنى بها توظيف هذه المقومات الذاتية والمهارات الخاصة توظيفـــا موضوعيا سواء فى معالجة الفكرة أو النظرية أو التطبيق وفى حيدة ومنطـق وتسلسل واضح . « تماما كما نجد أن القيادة الميكانيكية السليمة للسيارة شىء والالتزام بقواعد المرور فى الطريق وموضوعيتها شىء آخر » .

ثالثا : ـــ

مقومات البناء أو الاسلوب : The Stylistic MoDe

وأساليب البناء أو التعبير هى التى تربط بين المقومات الذاتية والموضوعية ربطا وثيقا . واللغة لها دورها المهم هنا ، وهى تمثل رمزيات التفاهم وينبغى أن يتمكن الباحث من معانيها الدقيقة ومفرداتها المتبادلة ، « أى أسلوب السائق الخاص تطبيق المهارات الخاصة والمعلومات الميكانيكية للقيادة وآداب الطريق ومتابعة الجديد والمتغيرات فى هذا الصدد بدقة » .

تنوع البحوث : ـــ

اذا كانت البحوث لا تخلو من هذه المقومات الثلاثة فانها قد تختلف باختلاف الحقول التى يجرى فيها البحث ، فأساسيات الزراعة لا تختلف ولكنها تختلف فى الفرعيات المتصلة بكل نوع من التجار على حدة .

وتدور أهم تصنيفات البحوث فى هذه النوعيات : ـــ

البحوث التجريبية والتاريخية والوصفية والتحليلية والفلسفية والاجتماعية والتطبيقية والمقارنه ـــ والثقافية والفنية .

هيكل أو شكل البحث : ــ

وقد أمكن اطلاق تعريفات وأسماء معينة على البحوث وفقا لقصرهـــا وطولها .

المثال العلمى : ــ

فالبحث القصير وهو ما يطلق عليه بالانجليزية لفظ TERM PAPER
والرسالة الطويلة : Thesis

فالبحث الذى يطول ويتقدم به الطالب لنيل درجة البكالوريوس مثـــلا B.A. Bachelor of Arts. أو درجة الماجستير M.A. Master of Arts.

أما البحث الطويل أو الاطروقة : ــ

وهو الذى يطلق عليه فى الانجليزية لفظ Dissertation
وتعنى تقرير طويل أو خطبة طويلة فى معناها الحرفى تطلق على بحوث الدكتوراه بصفة خاصة . وجميعها ألفاظ أكاديمية .

والآن لنذكر كلمة موجزة عن كل اصطلاح على حدة .

المقالة : ــ

فهى قصيرة أو فى حجم الفصل من الرسالة وهى تتيح للطالب أن يضيف بعض الشىء على ما يكون قد أفاده من المحاضرات الفصلية وما تيسر له قراءته من المؤلفات فى الموضوع الذى اختاره وهى أشبه بتدريب على جميع المعلومات وترتيبها ترتيبا منطقيا وتحمل قدر من المسئولية والدقة فى النقل . وليس المطلوب منه أن يضيف اكتشافا جديدا مبتكرا وذلك : ــ

لقصر الوقت المتاح ونقص الالمام العميق بالموضوع وقد يستطيع كاتب المقالة أن يفتح آفاقا جديدة فى مقالة أو يكتشف اكتشافا جديدا ولكن هذا يحدث نادرا وبصفة استثنائية .

الرسالة : ــ Thesis

ويستغرق اعدادها وقتا أطول من المقالة وأعمق منها ولا تقل عن عـــام دراسى ، ويتوخى الباحث فيها شيئا مبتكرا أو ترتيبا جديدا لموضـــوع ما أو اكتشاف لم يسبق اليه باحث . ويمكن نشرها فى عداد الكتب الثقافية .

الاطروقه :ــ Dissertation

فهى كالرسالة . Thesis من حيث تحديدها وهدفها ، ولـــكن نطلقها بعض الجامعات فى الغرب لنيل درجة الدكتوراه ويرى البعض أنه يمكن اطلاقه على درجة الدكتوراه بما يفرق بينها وبين بحث الماجستير والبكالوريوس .

أهداف البحث :ــ

وهذه الاهداف تخص كافة أنواع البحوث ويمكن تلخيصها فيما يلى :ــ

١ ــ استنباط طريقة جديدة فى معالجة بحث ما .

٢ ــ تحقيق بعض المواضيع القديمة او التراث تحقيقا علميا دقيقا .

٣ ــ اكتشاف حقائق جديدة .

٤ ــ بعث جديد للماضى ومشكلاته بعد فهم الماضى .

ولعل لذة البحث والاكتشاف لا تدانيها لذة أخرى أو غبطة بالنسبة لعنـــاء البحث وشـــعور الاستاذ بانتصـــار تليمذه واكتســـاب المعـــرفة آفاقا انسانية جديدة .

مؤهلات الباحث :ــ

ومهما كانت صفة الباحث فيلزم أن يتحلى بفضائل بذاتها . وقد ســـبق العرب وضع مواصفات للباحث كما حدث فى علم الحديث « أيام الامام مـــالك بن أنس عام ٧٩٠ هـ . وذلك عندما طلب الا يؤخذ الحديث الا عن أربعة :ــ

١ ــ لا يؤخذ الحديث من معين (يقابلها تحمل المسئولية) .

٢ ــ لا يؤخذ من صاحب هوى (الموضوعية) .

٣ ــ لا يؤخذ من كذب على الناس (الدقة والصدق) .

٤ ــ لا يؤخذ من شيخ له فضل وصلاح اذا كانت ظروف العمر قد جعلته لا يدرى بما يقول (تجنب الاخطاء غير المقصودة والدقة فى اختيار الموضوع) .

ويمكن القول بأن الصفات التى يجب ان يتحلى بها الباحث فى عصرنا الحديث يتصل بجانبين هما :ــ

١ ــ صفات أخلاقية تتعلق بانسانية الباحث .

٢ - صفات علمية تتعلق باختيار الباحث لموضوع بحثه ومراجعته ومعرفة البحث ومنهجه والقدرة على النقل والتحليل ، ثم التنسيق والتبويب واللغة والاسلوب التعبيرى .

٣ - موسوعية المعرفة : -

فالباحث يحتاج الى العلوم واللغات التى تساعد الباحث على قراءة كل ما يتعلق بموضوعه وفهمه فهما صحيحا .

المنهج العلمى فى تدوين مواد بحثه : -

وقد شرحها ريدر REEDER فى كتابه : كيف تكتب بحثا أو رسالة ويمكن تلخيصها فيمايلى : -

١ - يجب الا يبدى الباحث آراءه الشخصية دون أن يعززها بآراء لهـا قيمتها .

٢ - لا يوجد رأى لا يقبل الجدل والمناقشة حتى ولو كان صادرا من عالم متخصص . فلا توجد حقيقة - راهنة بذاتها .

٣ - لا يعتبر الباحث الآراء التى يحصل عليها بالقياس أو المشابهة لا تقبل المجادلة .

٤ - أى أن القياس والمشابهة لا تعنى صحة الراى بلا مناقشة .

٥ - عدم التعرض لراى من الآراء والسكوت عليه لا يعنى انه حقيقة لا يقبل الجدل .

٦ - لا يجوز حذف أى دليل أو حجة أو نظرية لا تتفق مع رأى الباحث أو مذهبه .

٧ - ضرورة الدقة فى الاعتماد على الروايات أو الاقتباسات أو التواريخ غير الواضحة أو غير الدقيقة .

٨ - ضرورة الدقة فى شرح المدلولات التى يسوقها الباحث .

وهكذا ينبغى أن يتحلى الباحث بالصبر على ما قد يبعثه البحث أحيانا فى النفس من شعور بالغربة والوحشة وما قد يعنيه من وحدة وانعزال وتأمل . .

وصدق الله اذ يقول انما يخشى الله من عباده العلماء وهذا يؤكد مكانة الباحث ورسالة الخدمة الانسانية .

مستويات المعرفة : ـــ

وليست جميع أنواع المعرفة على مستوى واحد فهى تختلف باختلاف ما يتميز به من دقة ومن أساليب للتفكير وقواعد المنهج وليست كل معرفة معرفة علمية . فالمعرفة العلمية تختلف عن المعرفة العادية فى أنها بلغت درجة عالية من الصدق والثبات وأمكن التحقق منها والتدليل عليها فالمعرفة العادية علم ؛ والمعرفة العلمية هى التى يتم تحقيقها بالبحث والتمحيص ولكن العلم هو المعرفة المصنفة التى تتسق فى نظام فكرى System of thought له مفاهيمه ومقاييسه الخاصة من مبادىء وقوانين ونظريات .

والمعرفة انواع : ـــ

١ ـــ **المعرفة التى تعتمد على الحواس** والخبرة الذاتية المشتركة أى ما يميز المعرفة الانسانية عند الانسان العادى ورجل الشارع .

٢ ـــ المعرفة الاستنباطية التأملية : التى تعتمد على التأمل العقلى والفلسفى وتميزت بها الحضارات الفكرية وقتا طويلا .

والمعرفة العلمية يتميز بها التطور العلمى المعاصر فى حضارتنا القائمة وكان آرسطو هو أول من لفت الانظار الى اهمية البحث المنظم والملاحظة الموضوعية ومنطق آرسطو هنا يسمى المنطق الصورى ويرتكز على افتراض ثلاثة مبادىء هى : ـــ

١ ـــ الذاتية : أى أ هى أ . فأى شىء يحتفظ بذاتيته بصرف النظر عن السياق الذى يوضع فيه ، فالانسان مثلا له مواصفات بيولوجية عامة وما ينطبق على الفرد ينطبق على الباقى .

٢ ـــ مبدأ التناقض او عدم التناقض : أى أن الشىء لا يتصف بصفة ونقيضها فى آن واحد أى لا تكون أ هى ـــ أ فى نفس الوقت فلا يمكن القول بأن الانسان فان وبعض الناس غير فانين فالنقيضان لا يصدقان معا .

٣ ـــ **مبدأ البدائل** : أى انه ليس هناك ثالث أو وسط بين أ ولا أ أى أن النقيضين لا يكذبان معا .

فالشىء اما مربعا أو غير مربع ولا ثالث لهما . . أى أن البدائل هنا لا يكونان معا . . واذا كذب بديل أو قضية من هذه البدائل كانت الثانية صحيحة فاذا لم يكن الانسان غير فان اذن فهو فان .

ولكن يلزم هنا التأكد من صحة المقدمات او القضايا التى يعتمد عليها القياس . الذى ينقسم عادة الى ٣ قضايا .

كل انسان فان .. فلان انسان ... اذن فلان فان . أما المعرفة العلمية لا تعتمد على حس فقط ولا على مقدمات .

قد تكون احتمالية خاطئة كما فى الاستنباط العقلى .

وتعتمد المعرفة العلمية أساسا على الاستقراء كمكمل للتفكير الاستنباطى .. فهى تستقرىء جميع الادلة التى تساعد على اصدار تعليمات محتملة الصدق وفيه يبدأ الباحث بملاحظة الجزئيات (وقائع محسوسة) ومن ثم يصدر نتائج عامة عن الفئة التى تنتمى اليها هذه الجزئيات .

وهنا نصل الى حقيقة كبرى استقرائية يمكن استخدامها اذن كمقومة استدلالية استنباطية عقلية .

والاستقراء نوعان : استقراء تام . واستقراء ناقص .

استقراء تام : اى ملاحظة وتحليل جميع الجزئيات (وان كان الباحث فى معظم الحالات لا يستطيع فحص جميع الحالات الجزئية) .

٢ ـ **استقراء ناقص :** ـ الاكتفاء بدراسة عينة أو بعض النماذج بهدف الكشف عن القوانين التى تخضع لها جميع الحالات المتشابهة ودقة الاستقراء الناقص تعتمد علا دقة تمثيل العينة المختارة للدراسة . وهذا يخضع لقوانين احصائية قياسية .

اختيار مشكلة البحث العلمي أو موضوع البحث

يعتبر بعض المهتمين بالبحوث أن تحديد المشكلة انما يمثل نصف البحث وتحديد مشكلة البحث يأتي بعد اختيار المشكلة ذاتها فالتحديد مرحلة أخص من مرحلة الاختيار ويمكن تسميته اختيار الاختيار .

فالتحديد الدقيق يساعد على امكانية الوصول الى افتراضات علميـــــة سليمة .. كما يبلور نوع البيانات والوثائق المراد معرفتها .. وما الى ذلك ... أى منهج البحث العلمى المراد تطبيقه .

وبصفة عامة فلا يزال العقل الانسانى قاصرا عن الالمام حتى بالهم ميادين البحث والمعرفة التى يجدر به أن يدركها أى أن البحث العلمى مجالاته لا تنتهى .. ورغم ما قد يبدو من صعوبة اختيار الطالب لموضوع أو مشكلة البحث إذ أن هذه الصعوبة ترجع الى قصور الباحث وليس الى قصور البحث .

وتعتمد سهولة اختيار مشكلة البحث على :ـ

١ ـ المام الباحث بالبحوث التى أجريت فى ميدان تخصصه .

٢ ـ القدرة على التحليل والرؤية المنهجية اكثر تمكنه من كشف الثغرات التى لم تتكشف بعد .

وقد يكتشف الباحث هذه الثغرات بنفسه وقد تتمثل هذه المشكلات كعلامات استفهام اثارها غيره من الباحثين . كما أنه توجد دوريات ونشرات تحتوى على قوائم طويلة بالموضوعات أو مشكلات البحث التى لا تزال فى حاجة الى دراسة . وقد يطلع على مقالة تفتح أمامه مجالا للبحث .

وقد تتأتى المشكلة من التجارب التطبيقية التى يعيشها الباحث ذاته .

٣ ـ مدى ميل الباحث نفسه الى بحث مشكلة بذاتها .

ولكن ينبغى ألا يكون هذا الميل أو حب الاستطلاع سببا فى اختيار مشكلة ما دون الادراك الكافى بأبعادها . فحب الاستطلاع هنـــــا يلزم أن يسبقه سعة الاطلاع وهـذه مشكلة غالبا ما يقع فيهـــا الباحث المبتدىء .

٤ ـ الهدف الذى يسعى اليه الباحث من وراء بحثه :

وهل يسعى الباحث الى تكوين نظرية جديدة ... الى اختراع مادى معين يسد حاجة ما ... أو حتى تهيئة وسيلة أدق فى مجالات

البحث بما يحقق نتائج افضل كاختراع ميكروسكوب اكبر وابعد وكلاهما يحدد أن اتجاهات الجمهور نحو نشاط بذاته أو جهاز فنى واعلامى معين ... امكانية الحياة على سطح القمر .

٥ — مدى توافر مصادر البيانات والمراجع المطلوبة .. كالكتب والمقالات والبيانات الاحصائية ودوائر المعارف .. والكتب والادلة السنوية التى تظهر فى صورة مستخلصات . ABSTRACTS وهى فى حد ذاتها عمل علمى يسهل متابعة البحوث وتدقيقها .

مقومات المشكلة العلمية الجيدة : —

ان عملية البحث ليست مجرد ميل أو هوى . فهى عملية مكلفة تستنفذ من أعمارنا ومجهودنا النفسى الكثير ولذا فالى جانب العوامل التى تساعد على سهولة البحث توجد عوامل ومقومات تحدد صفة البحث الجيد ومنها : —

أولا : أن يضيف جديدا الى المعرفة الانسانية : —

أى فليسأل الباحث نفسه : ما هى نوعية هذه الاضافة وما قيمتها ومن المشكلات مالا يحتاج حلها الى تجشم عناء البحوث الشاملة . ويمكن تحديد أهداف البحوث العلمية عموما بهدفين اساسيين : —

١ — الهدف العلمى :

وذلك عندما يتحقق الباحث من نظرية أو قانون وهو ما يمكن أن نسميه بالبحوث النظرية PURE RESEARCH وهو ما يشتمل على كثير من البحوث الاساسية اى النظرية التى يعتمد عليها .
TFUNDAMEXNTAL RESEARCH
وهو ما يعرف بالبحوث التطبيقية APLIED RESEARCH أو البحوث العلمية
ACTION RESEARCH

هذا ويمكن أن تدخل البحوث التطبيقية اذا اردنا ان نفرق بينها وبين البحوث المعملية فى مجال الدراسات الاساسية بينها وبين البحوث المعملية فى مجال الدراسات الاساسية التى يقوم عليها العلم . اما الدراسات المعملية فهى أضيق نطاقا .. على أن كلمة امكانيات البحث وضيق العنصر الزمنى اللازم يجعل أغلب البحوث التطبيقية تدخل فى نطاق البحث المعملى المحدود . فكل بحث تطبيقى معملى ولكن ليس كل بحث معملى تطبيقى أو يطبق كقانون عام . فالبحث التطبيقى قد يتضمنه اكثر من بحث معملى فرعى دفعة واحدة .

وبصورة متكاملة وبصفة لا غنى للبحث العلمى عـــن البحـوث النظـــرية والتطبيقية معا .

فالبحث التطبيقى يمكن أن يعتمد على عدة نظريات سابقة والبحث التطبيقى يمكن أن يكون أساسا لتكوين أن لبلورة نظرية جديدة .

ثانيا : **أن تكون مشكلة البحث جديدة الى جانب كونها مصـنفة** وليس المقصود بالجدة مثلا طرق مشكلة جديدة تماما . كشرط أساسى ولكن طرق جانب او جوانب من مشكلة سبق بحثها أيضا .

على أن اعادة بحث نقطة أو جانب بذاته أيضا قد يأتى باضافة علميـــة جديدة فى الموضوع ــ فالمهم الا يكرر الباحث مشكلة سبق بحثها وتم التوصـــل الى نفس نتيجته أو نتيجة مشابهة لها ولا يصح أن يقول الباحث هنا بأنه لم يكن يعلم بأن هذه المشكلة سبق دراستها وتوجه لذلك قوائم عالميـــة بما سبق انجازه من البحوث .

ولعل تعريف كلمة البحث ذاتها على هذا الضوء ــ كما جاءت فى قاموس WEBSTER تعنى بأن البحث يلزم ألا يكون منقولا أو اعادة أو اخـــراج أو ترجمة وغير مقتبس أو يمثل حتى اضافة ثانوية جديدة .

ثالثا : ــ
قابلية المشكلة للبحث : ــ

فمن المشكلات ما قد تبدو مثيرة وشائقة فى بحثها ولكن يصعب بحثهـــا لعجز الباحث عن الوصول الى الحقائق والمعلومات المتصلة بالمشكلة . لاسباب سياسية مثلا أو لعدم استقرار العوامل المتصلة بها . . أو لصعوبة الفرضـــية العلمية التى يضعها . فليس أى سؤال يمكن أن يصبح مشكلة . . . كمحـــاولة اثبات أن مخلوقات حية تعيش فى المريخ أو حتى فى الشمس . . فمرق بين التخمين البحثى وامكانية البحث .

رابعا : ــ وجود اهتمام عام بمشكلة البحث : ــ

فالميل وتوافر المعلومات والجدة والامكانية قد لا تكتمل إلا بوجود حاجة أو ضرورة لاتمام هذا البحث . فليسأل الباحث . . ما جدوى أن أعرف حقيقة هذه المشكلة ؟ أى يلزم ترتيب نوعيات ومشكلات المعرفة واذا كان ليس كل ما يسمع يقال فليس ما يجهل يعرف .

خامسا : الحق الادبى للبحث : ــ

أى الا يبدأ الباحث دراسة مشكلة او بحث من حق جهة أخرى اتمامه لانها بدأته أو يمثل اختراعا خاصا مسجلا لها .

وفضلا عن احترام الجانب الاخلاقى للباحث هنا فان هذا يمنع من تكرار الوصول الى نتائج مشابهة ومكررة وقوائم بحوث الدوريات المتخصصة خير مرشد فى هذا المجال . ولا يصح أن يبدأ الباحث ببحث مشكلة يقوم بها زميل آخر ويحاول سرعة انهائها على حساب الدقة العلمية لمجرد ان يسبق بشرف بحثها .

سادسا : ــ الاصالة فى معالجة المشكلة : ــ

اى الا يكون البحث مجرد نقل لافكار وآراء الباحثين الاخرين فى قوالب جديدة سواء أقام الباحث بالاشارة فى مراجعه الى هذه الافكار او تعمد اغفالها ويلزم التفرقة هنا بين ان يسوق الباحث آراء الاخرين كأساس لبناء آرائه هو ويصوره مشاعر على تطور المشكلة وتمكين الباحث من التوصل الى الجديد فى المشكلة فرق بين ذلك وبين الاكتفاء بمجرد التلخيص أو السرد . ودقة التلخيص مهمة والتصنيف مهمة . ولكنها ليست هدفا متفردا لبحث العلمى بل عاملا مساعدا ولعل ضرورة أن يكون البحث مرتبطا بمشكلة جديدة مما يخفف من وقوع الباحث فى طائلة التلخيص والتكرار ولعل صفة « الجدة » لا تعنى أيضا ان يختار الباحث مشكلة تافهة على أنها جديدة ولم يدرسها . فقد يكون عزوف الباحثين عنها لتفاهتها .

سابعا : ــ وبالاضافة الى ذلك توجد مقومات أخرى خاصة بالباحث المبتدىء والتى قد يكون الباحث المتمرس على دراية بتفاديها ومنها : ــ

١ ــ تفادى الموضوعات أو المشكلات التى تعتمد على وثائق أو معلومات متميزة وغير موضوعية .. أو فى حاجة لكثير من الموازنة والقياس والتقييم بما يفوق قدرة المبتدىء .

٢ ــ تفادى المشكلات التى تمثل درجة كبيرة من التخصص الدقيق والمقومات الفنية والتى قد يؤدى عجز الباحث المبتدىء عن تمحيصها الى اسلامه لليأس وفقد الثقة .

٣ ــ تفادى الموضوعات الغامضة وكثيرة التفريع . أو التى قد لا تكون حقائقها ومعلوماتها الاساسية فى غير متناول يده .

٤ — وبصفة عامه يلزم للباحث المبتدىء أن يضع عدة عوامل أخرى جانبية فى اعتباره : —

(أ) امكانيات الباحث العلمية (الى جانب امكانية المشكلة ذاتها للبحث — كما أشرنا) .

(ب) الفترة الزمنية المقررة للبحث (وضرورة اختيار المشكلة فى هذه الحدود) .

(ج) ألا يفقد الباحث المبتدىء الثقة فى نفسه بالدرجة التى تجعله يقع فى محظور اختيار موضوعات للبحث تصلح كمقالة أو دراسة عابرة .

تحديد مشكلة البحث : —

واذا كان تحديد مشكلة البحث يمثل — كما أشرنا — اختيار الاختيار أو تحديد التحديد — فهذا يعنى أن الباحث حدد طريقا ضمن مجموعة طرق اختار أن يسير فيها فالاختيار مفترق طرق . والتحديد اشارة خضراء للسير وليس على الباحث هنا الا أن يسير حتى يصل الى هدفه . فأكداس المعلومات فى هذا الصدد يلزم أن تتحدد تجاه ناحية بذاتها .

ويمكن أن نتبين على تحديد مشكلة البحث بما يلى : —

١ — مدى اتساع الموضوع وتعدد أطرافه : —

وهو ما يتطلبه من الباحث — حتى الفهرس — وقتا طويلا قد ينتهى بعدم تمكنه من التوصل الى معلومات ممكنة أو منسقة .

ويكون هنا أن يركز الباحث على فرع متخصص دون الشمول المتشابك فان ندرس أثر الكلمة المطبوعة فى تغيير الاتجاهات أدق نتيجة وأيسر من أن ندرس أثر رسائل الاعلام فى هذا الصدد .

ويجدر أن يوجه الباحث الى نفس بعض الاسئلة مثل : —

أ — ماذا يتوقع الباحث الكشف عنه ؟

ب — ما هى المشكلة التى يسعى الى حلها على وجه التحديد ؟

يلزم الا يتخاذل الباحث اذا وجد الاجابة اكثر تعقيدا ولكن فليدفعه هذا الى دقة تحديد موضوعه . . كفاية منهجية أساسية ويستحسن هنا أن نعرض أفكارنا فى صورة سؤال لان السؤال غالبا يعنى اجابة محددة .

٤ — ضرورة تحديد معنى المصطلحات المستعملة فى صياغة المشكلة : —
أى دلالات وحدود الالفاظ والتعبيرات المستخدمة من التعميم الى التخصيص من التوافق والتباين من الحدة والتطرف أو عدم التطرف .. فاذا مكنـا تغيير الاتجاهات فأى درجة فى التغيير وأى اتجـاهات وبالنسبة لاى سن أو ظروف اجتماعية .

وهل الباحث يعامل مصطلحاته بالقياس أو بمعنى واحد محدد وهـذا يلزم لكى لا يستخدم الباحث المصطلح بمعنى فى فصل ثم يستخدمه بمعنى مخالف فى فصل آخر من بحثه .

والملاحظ انه لا بد من الفصل بين كشف السبب الذى من أجـله قامت الدراسة وبين شرح موضوع الدراسة ذاتها .. أى التفرقة بين لماذا .. وماذا .. بالنسبة للدراسة .

صياغة فروض البحث

فى كل علم من العلوم مجموعة قوانين ومبادىء ونظريات تفسر العلاقات الوظيفية بين ظواهره المختلفة وهذه كلها كانت مجرد افتراضات بدأت فى ذهن الباحث ثم برهن عليها وحققها من خلال دراسته قبل التحقق من خطئهـا أو صوابها .

ولعل الباحث هنا — كما يقول البعض — أشبه برجـل البوليس الذى يسعى لاكتشاف الحقيقة التى تتصل بالجريمة من حوله ، فتجرى ويجمع القرائن ويفسرها تفسيرا منطقيـا ويجرى وراء خيط يوصـله للحقيقة بعيـدا عن كل الشكوك .

هذا وان كانت الحقيقة ليست شيئا ثابتا أو ثوابت — ولـكنها حقـائق مدعمة بالادلة ليس غير .. أى أن الحقيقة العلمية يمكن أن تتغير اذا ثبت بطلان الادلة التى تقدم عليها بعد فترة من الزمن .

مثل (نظرية بطليموس فى الاجرام السماوية) .

مثل (نظرية نيوتن فى الذرة) .

والبحث عن الحقيقة ذاتها يبدأ دائما : —

بالتشكك فى النظريات السابقة وهو ما نعنى به الشعور بالمشكلة وبعـد

ذلك تبدأ مرحلة الفروض العلمية التى يبنيها الباحث على البيانات والمعلومات المتاحة والتى تتيح تفسيرا أكثر قبولا من الافكار السائدة .

هذا وان كانت الافتراضات العلمية القديمة كانت تعتمد على الانسان أو الاستنتاج المنطقى قبل الاختيار العلمى والتطبيقى والمعملى للافتراضات كما هو منهج البحوث العلمية الحديثة .

بين النظرية العلمية والفرض العلمى : ــ

ان كل نظرية فرض علمى . . لكن ليس كل فرض علمى نظرية .

واذا كنا نطلق على بعض الفروض العلمية الجيدة لفظة نظرية فذلك يعتبر تجاوزا .

١ ــ فاذا فسرنا النظرية قلنا . . انها نتيجة بحث علمى متكامل يتوفر فيه جميع شروط البحث العلمى ولهذا فهى قادرة على تقديم التفسير السليم لمشكلة من المشكلات وان الكشف عن العلاقات الوظيفية بين ظواهر معينة وتفسير هذه الظواهر والمبادىء والقوانين المنظمة لها .. ولكن ليس بالضرورة أن توضح النظرية كل جوانب الموضوع بل ان النظرية السليمة التى تغرى دائما بمزيد من البحث للكشف عن مجالات جديدة من المعرفة .

٢ ــ ومن مواصفات النظرية العلمية أيضا أنها تكون على جانب كبير من الصدق والموضوعية كما يظهر من خلال استخدامها عمليا وتطبيقيا .

٣ ــ ارتباط النظرية بشىء يخضع للملاحظة والقياس لتتمثل فيها الصفة العلمية التى تعين على التوقع والاستنتاج بما يحدد مكونات الظواهر التى تفسرها .

٤ ــ تتسم النظرية العلمية السليمة فى البحث العلمى عادة بالبساطة ، والبعد عن التعقيد بالقدر الذى يسمح به الموضوع نفسه (اذ قد يكون الموضوع نفسه على درجة من التعقيد أو التشابك الذى يستحق المزيد من الانتباه والتدقيق) .

ما هو الفرض العلمى : ــ

لاول وهلة يعنى الافتراض العلمى بانه نظرية لم تثبت بعد صحتها فى بداية البحث ولكن من جهة أخرى فان النظرية هى نفس الافتراض العلمى الذى ثبت صحته فى نهاية البحث . فالنظرية افتراض تجريبى أو قابل للبرهان من الاساس .

أى أن الفرق بين النظرية والفرض العلمى انها يعتمد على مدى كفاية البراهين ودرجة الصدق فيها .

ونتائج البحث بهذا المفهوم النظرى أو الافتراض قد تسمى نظرية أو قانونا أو استنتاجا أو تعميما والمصطلحات المستخدمة فى البحث يلزم تفسيرها وفق هذه الاستنتاجات والقوانين ... وفرق أيضا بين النظرية وبين الاستنتاج . فالاستنتاج يتسرب على نتائج بحث معين أو على نتائج احدى خطوات البحث .

فالافتراض العلمى هنا أقل تأكيدا من الحقيقة العلمية وهو أقل تأكيدا لان الافتراض ذاته لا ينبت من فراغ بل نتيجة بيانات ومعلومات مؤكدة سابقة استنبط الباحث افتراضه منها .

وفرق من جهة أخرى بين الفرض العلمى والتخمين : ذلك أن التخمين لا يتعدى مجرد أفكار مبدئية تتولد فى أذهاننا عن طريق الملاحظة العابرة بعيدا عن الحقائق المقررة .

هذا وان كان التخمين ذاته مرحلة ضرورية فى بداية البحث تفتح الطريق أمام الافتراضات العلمية .

بل يمكن القول هنا بأن التخمين الذى يسبق الافتراضات العلمية يمكن اعتباره افتراضا تخمينيا أو مبدئيا للحلول المحتملة . وتظل هذه التخمينات تتزايد أو تقل .. تقوى أو تضعف نتيجة ما يصحبها من أدلة وبيانات تدخل بها فى مرحلة الفروض العلمية ثم النظرية التطبيقية وهكذا ...

وفى الحديث عن الفرق بين الباحث المبتدىء والباحث المتمرس هنا يمكن القول بأن الباحث المبتدىء يتسرع فى تبنى بعض الافتراضات التخمينية وأنها بلغت مرتبة الفرض العلمى أو حتى النظرية فى بعض الاحيان وهو ما ينعكس على تخبطه فى جميع بياناته واختيار فروضه .

أهم مقومات البحث العلمى للوصول الى الفروض العلمية الجيدة : —

١ — تجميع تمهيدى للبيانات التى يعتقد أنها ترتبط بمشكلة بحثه وما قد يستخدمه من استنتاجات استنباطية للوصول الى افتراضات هنا وقد يصل الى ذلك عن طريق عمل بحث استطلاعى حول المشكلة وكما يحدث هذا كثيرا فى الدراسات السلوكية والاعلامية والاجتماعية عموما . ويمكن للباحث أن يقسم المشكلة الى عدة افتراضات علمية يقوم باثباتها وذلك أجدى من الفرض الواحد المطول الذى يضم عدة نقاط .

٢ ــ أن يصوغ الباحث افتراضاته العلمية فى صيغة المضارع الذى يعنى فى نفس الوقت ما سيكون .

على أن قيمة البحث العلمي لا يعنى ضرورة اثبات صحة الفروض العلمية التى ساقها الباحث بل ان اثبات عدم صحتها أيضا يعتبر اضافة علمية . طالما ان الفرض العلمى أو المشكلة جديرة بالبحث من البداية كما اشرنا ايضا .

٣ ــ يقرر الباحث ما يجب أن يترتب على فروضه العلمية من ناحية تحديد نوعية البيانات لاثبات افتراضـــــه أو العكس . وذلك عن طريق التعليـــــل الاستنباطى .

٤ ــ وبعد طرح الفرض العلمى وتجميع البيانات المطلوبة نبدأ مرحــلة اختبار الفرض ويلزم هنا ان يراعي الباحث عاملين يؤثران على تحديد منهـــج البحث عموما وهما .

أ ــ البعد الزمني للبحث (هل هو يتصل بالماضى أو الحاضر او المستقبل)

فاذا كان البحث يتصل بالماضى يسلك الباحث الاتجاه التاريخى فى اختبار فروضه .

ــ واذا كان البحث يتصل بالحاضر يلجأ الى الدراسات والابحاث الميدانية

ــ أما اذا كان البحث يتصل بالمستقبل .. وتغيير واقع معين ــ فالمألوف هنا ان يلجأ الباحث الى الاتجاه التجريبي .

ب ــ تحديد الغرض من البحث :ــ

ــ فاذا أفتقد البحث على الجانب الكشفى .. فيعتبر بحثا استطلاعيا .. تسجيليا .. توثيقيا .. مثلا .. ولا يتضمن هذا البحث افتراضات علميـــــة معينـــة .

ــ أما اذا كان الهدف أو الغرض من البحث ــ المقارنة او التعميم أو تغيير واقع بذاته وما الى ذلك .. فيعنى هذا الربط بين شكل او بآخر .. بين البعدين الزمنى والفرضى ... وما هو يستلزم اكثر من نوع من انواع البحث معا بدرجات متفاوتة .

٥ ــ وضع اكثر من فرض للمشكلة واختبار كل من هذه الفروض وذلك ، رغم اعتراض البعض على ذلك بان فيه مضيعة للوقت والجهد .. ولكنه يضمن حيدة الباحث كما ان التمسك بفرض واحد .. قد يعد نوعا من التحيز الذى يرفضه البحث العلمى تماما .

المقومات الاساسية للفرض العلمى

١ ــ التحديد : ــ

أى صياغة الفرض العلمى بشكل واضح ومحدد ــ والعناية بدقة لتفسير المدلولات العائمة ــ كما أشرنا .. فاذا قلنا أن الاحباط يؤدى الى العدوان .. فيلزم أن نحدد معنى الاحباط والمواقف التى تؤدى اليه وما المقصود بالعدوان، والفرق بين العدوان وبين السلوك الغضبى أو الغضب .. أى الانفعال .

٢ ــ قابلية الفرض العلمى للاختبار والتنفيذ .

أ ــ اذ أن بعض الفروض الفلسفية مثلا وكذلك الاحــــكام والقوانين الاخلاقية من النوع الذى يستحيل اختباره فى بعض الاحيان .

ب ــ ولعل هذا مما يقضى أن تضع فى الاعتبار توفر الاساليب والادوات التى تساعد عى اختيار هذه الفروض .

حـ ــ ضرورة أن ترتبط الفروض بالنظريات التى سبق اثبات صحتها .. اذ يلزم الا تكون الفروض العلمية منعزلة عن تنظيم فكرى ومجال علمى معين ومثبوت .

٣ ــ تحديد الفئة المراد اجراء البحث عليها .

وذلك بالنسبة للبحوث السلوكية والاجتماعية عموما .. فكثير من هذه البحوث تجرى على فئات معينة من الجمهور أو القراء أو الاحداث من المنحرفين أو المراهقين .

٤ ــ يلزم الا يكون الفروض فى البحث متعارضة .. وفرق بين الفرض المتعارض وبين الشواهد المتعارضة أحيانا فى نطاق واحد .

٥ ــ اذا كان الفرض العلمى ليس مفروضا كما ذكرنا فى الدراســـات الكشفية التسجيلية التوثيقية كالسير وتواريخ البلاد والافراد ... الا أن هذه الحقائق التى قد تسوقها هذه الدراسات الكشفية قد تصـــبح مصدرا علميـــا للفروض العلمية فيما بعد بالنسبة للدراسات الاساسية المتكاملة التى قد تدخل هذه الدراسات الكشفية فى نطاقها .

الفصل الخامس

المناهج الأساسية : البحث العلمى

١ ــ منهج البحث التوثيقى

ويهدف هذا المنهج الى التوصل الى الحقائق والمبادىء الجديدة من خلال دراسة الوثائق والسجلات . ويستخدم هذا النوع من المناهج على نطـــاق واسع فى كثير من الموضوعات الاكاديمية وان كان أكثر استخداما بصفة خاصة فى دراسة التاريخ والادب واللغويات والانسانيات عموما . بل انه من كثـــرة ما استخدم هذا المنهج التوثيقى فى دراسة أحداث الماضى فقد اقترن هذا المنهج باسم « المنهج التاريخى » وان كان هذا المنهج قد أفاد كثيرا أيضا فى دراســة الاحداث الجارية .

مثال : متابعة المراحل التوثيقية لموضوع ما يجرى حاليا ــ كدراسة فك رموز الشفرة مثلا ــ أو دراسة وثائق تنظيم معين يجرى تنفيذه ولكن هــذه الطريقة التوثيقية تعتبر من أقدم مراحل البحث ومنها ما قدمه أرسطو عندما قدم دراساته المثيرة عن الدراما والشعر اليونانى وان كانت قد لحقها فى العصر الحديث تغييرات كثيرة ــ كما سترى ــ جعلتها أكثر دقة .

ويعتمد البحث التوثيقى أساسا على تجميع الحجج المستخلصة من الوثائق والسجلات بهدف تكوين استنتاجات قد تؤدى الى : ــ

١ ــ تدعيم وابراز حقائق مجهولة فى الوقت الحاضر .

٢ ــ تقديم تقسيمات تتعلق بالاحداث الماضية أو الحاضرة وبالدوافــع والخصــائص المتصــلة بالافكار البشرية وهــو ما يفيــد فى دراسة حاضرنا ومستقبلنا عموما .

وعلى أية حال فقد برزت الحاجة الى الدراسات التوثيقية بفضـــل حب الاستطلاع .

فالوثائق اذن لا تتمثل قيمتها فى مجرد أنها قيمة أثرية أو تراث فقط ولـــكن لدورها فى استنباط الحقائق ووضع تعميمات وافتراضات تزيد من قدرتنا على التحكم فى الطبيعة وفى السلوك الانسانى .

ويلزم التنبيه الى ان الباحث فى المنهج التوثيقى على غير الوضع بالنسبة للباحث التجريبى أو المسمى — مقيد بوثائق وبيانات قائمة وموجودة فعلا لا يمكنه التحكم فيها او اخضاعها للمؤثرات المختلفة فعلا ، وعليه أن يقوم بتفسيرها ولكن هذا لا يعنى أن يتقبل الباحث تقبلا لا نقاش فيه ، أية وثيقة (خطية أو مكتوبة) كما هى . ومهما كان كاتبها قد ذيلها بشروح وتفصيلات . بل ان عليه ان يضيف جديدا الى تفسير هذه الوثائق والنصوص والوقائع التاريخية وفقا للفروض العلمية التى يعنيها .

أنواع المصادر التوثيقية :ـــ

وعموما فانه يمكن ان نحدد نوعيات بذاتها من مصادر البحوث والدراسات التوثيقية .

١ — روايات الصحف : فالصحف بكل ما فيها من آراء ووقائع واخبـــار وتفسيرات قد تتفق وقد تختلف . يمكن أن تقدم لنا صورة عن الاطار العام الذى يعيشه المجتمع . ويمكن أن ندرك بعض الحقائق ومعالم التطور الهامة من خلال الدراسات الاعلامية لهذه الدوريات اذا ما قارنا بين اتجاهاتها والصيغ التى تكتب بها الواقعة الواحدة والدوافع التى تحرك سياسة الصحيفة وأفكار الكاتب . مع حرصنا على فصل المادة الخبرية والوقائع المجردة عن التعليقات والانطباعات التى تحاول الصحيفة أو كاتبها أن يغمس فيها الواقعة ذاتها ويضمنها معـــانى وتعريفات تخدم سياسة الجريدة واتجاهاتها وبالذات فى الوقت الحاضر الذى زادت فيه نســـبة التضمين أو ما يسمى (بنسج الخبر) فى الفن الصـــحفى الحديث .

ولكن كل هذا لا يمنع من ان توثيق المادة الصحفية يساعد على اعطائنـــا صورة حية قد لا نجدها فى كتاب . بالنسبة الى أن المادة الصحفية تنقل الباحث الى نفس الجو التاريخى والاجتماعى ويعنى دراسته وينظر الى الظاهرة الواقعة من خلال العصر الذى تأثرت به وأثرت فيه . ولا خوف هنا من تبـاين الآراء واسلوب سرد الاحداث فى الصحف فمن طبيعة الصحف ان تختلف فى عــرض موادها وفى تفسيرها . والمهم فى حالة دراستنا الاعلامية لاى تطور فنى أو تاريخى من خلال الصحيفة أن ندرس ظروف العصر وظروف سياسة كل جريدة ومحرريها وأن نعقد المقارنات بين الصحف المختلفة بالنسبة للرواية الواحـــدة . وحتى بالنسبة للصحف الموجهة فانه يمكن القيام بعملية تكرير اعلامى لها وفصل الخبر عن التعليق من التضمين وتمييز الواقعة الدقيقة عن المحرفة .

وهذا فن آخر من فنون الاعـــلام فى الفن الصحفى فان تنسج أخبـــارك فن .. وأن تعود نسيج الخبر الى خيـــوطه ووثائقه الاســاســية الاولى والمجردة فن آخر .

٢ ـ السجلات والتقارير الرسمية : ـ

ونعنى بها المستندات الرسمية .. مثل محاضر جلســــات البرلمانات او ما يسمى بالمجريات النيابية والمحاكمات الهامة والمراسيم التشريعية والحكومية والحربية . وسجلات الهيئات الاجتماعية والعلمية عامة والوثائق القوميــــة التاريخية فى العصور المختلفة التى تمر بها الامة .

٣ ـ روايات شهود العيان للاحداث التاريخية والهامة : ـ

فقد يضيف الباحث جديدا الى بحثه وبسبب ما يكتشفه الرواة المعاصرون للفترة التاريخية التى يبحثها وقد يكونون ابطالا او اطرافا فى هــذه الاحــداث وما زالوا أحياء يرزقون . وعليه اما أن يسجل بأصواتهم ما يروونه عن تجاربهم ومشاهداتهم او أن يحصل منهم على تقرير مكتوب عن الوثائق التى يذكرونها . اذ يلزم توثيق هذه الذكريات الشفوية مع مقارنتها ايضا بروايات لمعــاصرين آخرين ويمــكن بتحليله وتفســيره أن يقع القارىء أمام اقــرب المعــلومات الى الحقيقة .

٤ ـ المذكرات العامة والمراسلات الشخصية أو الســـير والتراجم الخاصة : ـ

ولما كانت هذه المذكرات الذاتية يحرص كاتبوها على ان يسجلوها دون ان يقصدوا نشرها فى حينها فقد تحوى وقائع هامة وأكثر صراحة وتفصيلا بــل وادق أبعادا لتفسير الاحداث الراهنة بعصرهم . وهم حريصون على ان يذكروا جديدا فى نصوصها أكثر ن مجرد الوقائع المعروفة والتى تعرض على الجماهير والتى قد يجدون انها مضللة ، وانهم انما يسجلوا فى هذه المذكرات من اجــل الحقيقة . ولكن يلزم الا ينحرف الباحث امام بعض المبالغات والصفات التى يحب بعض كاتبى المذكرات أن يضفوها على انفسهم ويبرئو ذواتهم او غيرهم مــن مسئوليات حضروا فيها . أو حتى الباحث أن يكون جزءا من عــدم الملم رواة بعض كاتبى هذه المذكرات أحيانا بالوقائع التى جرت فى عصرهم والمطلوب هنــا ومع أى نوع من المصادر التوثيقية أن يقارن الباحث بين أكثر من وثيقة واحــدة وبين أكثر من نوعية من نوعيات هذه المصادر .

٥ ـ الدراسات والكتابات التاريخية : ـ

ونعنى بهذه الدراسات انها تعتمد أصلا على نصوص ووثائق بذاتها وعلى الباحث أن يستقرىء الوقائع ويستعين بالتفسيرات الخاصة فى هذه الدراسات فى تأكيد جوانبها أحيانا او فى استنباط أفكار تفسيرات جديدة وهى تعين فى حالة عدم وجود الوثائق الاصلية ويلزم الاسترشاد بها حتى فى وجود هذه الوثائــق

الاصلية بل انه فى حالة افتقاد الوثيقة الاصلية سواء أكانت نصا أو صحيفة فان الدراسة الوصفية التى كانت قد أجريت حول هذه النصوص الوثائقية تصبح هذه الدراسات التاريخية وثائق بذاتها يعتد بها .

٦ ــ الكتابات الادبية والفلسفية : ــ

ونتمثل فائدة الدراسات التوثيقية لهذه الكتابات أن هذه الكتابات تعكس طبيعة العصر الذى نعيش فيه أيضا ذلك أن الادب والفلاسفة لا يكتبون من فراغ بل هم يعبرون عن عصرهم ويعتصرون عواطفهم وأفكارهم تأثرا به وتأثيرا فيه . ورغم ما قد يذكره البعض من أن هذه الكتابات تعبر عن ذاتية صاحبها والذاتية هنا لا تعدو أن تكون وجهة نظر أو رأى آخر معارض أو متوافق ويلزم احترامه وتحليله على أية حال .

٧ ــ المخلفات الاثرية والتحفية : ــ

٨ ــ ويمكن أن يدخل تحت هذه النوعيات من الوثائق أصناف وثائقية أخرى وفق ما تمليه طبيعة البحث كالاستفادة من النصب التذكارية فى تحديد تواريخ ومواصفات بذاتها والمؤلفات ونصوص الاناشيد القديمة التى تعكس روح العصر وغيرها .

ولا يخفى هنا أهمية الآثار التاريخية ونصوصها فى تعديل او تأكيد كثير من التواريخ والوقائع النظرية للمؤرخين عموما .

ــ ويلزم هنا أن يراعى الباحث التوثيقى تحديد واختيار الوثائق المتصلة بموضوعه أو قد لا يكون من السهل العثور عليها وتحتاج لجهد وبراعة من الباحث للوصول اليها وعليه الا يضيع فى تية خيال بل يحدد المجال الذي يرجح أن يجده بوثائقه وحججه المطلوبة من البداية ، وبلا تداخل مع مجالات أخرى .

ولكن تقع على الباحث هنا أيضا بعض المحاذير :

بالنسبة لضرورة وحرصه على الوثيقة الاصلية أولا ما أمكن ذلك قبل أن يكتفى بمجرد صورة لها . ذلك أن النسخ الخطر بالذات قد يتضمن بعض الاخطاء المحتملة رغم الدقة المعلنة فى نسخها وبالذات بالنسبة للوثائق الرئيسية التى تشكل مؤثرات أساسية على مجرى البحث وفروض البحث الاصلية .

بل انه يلزم أيضا التنبه الى ان المادة التى يقتبسها كاتب فى بحث ما ثم يجيء باحث آخر ليقتبس نفس المادة فلا يمكن أن يجزم بان هذه المادة المقتبسة هى نفس المادة الاصلية ، الا اذا رجع الى نفس المادة المقتبسة فى نصها الاول أو بصورها الام وذلك ما لم يذكر الكاتب المصدر الثانى الذى استقى منه مادته وعلى ذلك فالمواد التى تذكرها الكتب والتقاويم السنوية ودوائر المعارف والمختصرات العلمية والادبية التى تقدمها دور النشر ، هذه المواد عموما لا تعتبر مواد اصلية لانها حصيلة اقتباسات ممتزجة ومشتركة . هذا وان كان يمكن ذكرها مع النص على مصدرها فى الموسوعة او التقويم اذ انها لا تعبر عن رأى كاتب بذاته اللهم الا اذا نصت دائرة المعارف على صاحب الرأى أو وجهة النظر وذكرت مصدرا أصليا لنشر هذا الرأى . وفى هذه الحالة يمكن ذكر المصدر الاصلى والمصدر الثانى ويصبح البحث الجديد مصدرا ثالثا للمادة الاصلية ذاتها تساعد على توثيقها اذا ما اختفت المادة الاصلية . وفرق هنا طبعا بين الاقتباس النصى والاقتباس العام التضمينى للفكرة أى فرق بين اقتباس الفكرة بنفس أسلوب كاتبها واقتباس الفكرة بأسلوب المقتبس .

واقتباس الافكار بأسلوب أصحاب البحوث وليس بأسلوب كاتبها الاصليين أشبه بالاشاعة التى قد تزيد أو تنقص أى تتعرض لعوامل غير دقيقة .

وذكاء الباحث هنا فى القدرة على ارجاع الفكرة المقتبسة بقدر الامكان الى أسلوب كاتبها الاصلى ولو بالمقارنة الحذرة مع أسلوب الكاتب الذى يقتبس منه أو الرجوع الى النص الاصلى للكاتب — كما ذكرنا — وبصفة عامة يلزم للباحث أن يكون ملما بكيفية معاملة الوثائق القديمة — ضمنا أو نصوصا عامة — والتى قد تكون فى حالة ترميم أو تآكل وهذا يتطلب أن يلم ببعض قراءة الوثائق المتآكلة واستنتاج اقرب الكلمات الى الصواب ومقارنة اجزاء الوثيقة أو الصحيفة ببعضها .

نقد الوثائق :

وبعد جمع الوثائق تبدأ عملية تقييمها وتتخذ أسلوبين هما :

أولا — التقييم الخارجى :

ويعتمد على محاولة معرفة اصالة وصحة وثيقة معينة ولعل الاحجار والتحف الاثرية والمخطوطات القديمة لا تخدعنا بمظهرها القديم وكتاباتها او لغتها السالفة فتصدق فورا انها قطع أثرية أصلية بنت عصرها وأن المخطوط مكتوب فى عصره وبخط كاتبه فمثلا اذ يحتمل ان يحتاج هواة

الآثار وتجارها بمثل هذه المقطوعات الاثرية والمخطوطات القديمة . ويتقنوا نحتها وفق المعايير القديمة وذلك للترويج لافكار معينة تحملها مسمومة مثل اكتشاف مجموعة من المراسيم البابوية المزورة التى تمت فى ق ٨ الميلادى لتخويل البابا سلطات طاغية واكتشفت فى ق ١٥م ولهذا هناك فرق بين القطعة الاثرية الاصلية والنموذج الخاص بها . فرق بين المخطوط المنسوخ باليد وبين النسخه المطبوعة لهذا النص (طبق الاصل) .

ومن أشهر القضايا بالنسبة لاكتشاف الوثائق الاصليون من الوثائق المزورة الفضيحة العلمية المثيرة التى كشفها كل من « جون كارتر » و « جراهام » بالنسبة لبعض الكتب التى كتبها مؤلفون بريطانيون مشهورون والتى يعتقد أنها نشرت فى طبعات محدودة أو بأعداد ضئيلة فى حوالى أواسط القرن الـ ١٩ والتى قام بتزويرها بائع كتب ماهر اذ طبعها فى وقت لاحق على أنها نسخ أولية أصلية بنفس مواصفاتها القديمة وذلك لبيعها بأسعار خيالية فعلا .

ويدخل ضمن الوثائق الهامة .. الطبعات الاولى النافذة من الكتب الهامة والنسخ الاصلية من الخطابات والمذكرات والآثار الخاصة بكبار الزعماء والقادة المشهورين فى شتى المجالات .

وطبعا تقييم الوثائق الذى نعنيه يجرى على الوثائق الجديدة التى لم يتم تأكيدها بعد . أما الوثائق القديمة التى تأكدت اصالتها فقد انتهى أمرها واكتشاف الوثائق الخطية الاصلية من دون الوثائق المزورة عملية باتت تخضع لفنون وتقنيات بارزة . فظهر خبراء الخطوط المعروفين ومنهم أرثر ج كريك خبير الخطوط فى محكمة العدل بايرلندا . والذى أخرج لنا مرجعا هاما فى اكتشاف الخطوط المزورة أساسا والوثائق عموما . ولعل المقارنة بين النصوص المختلفة المكتوبة بخط الكاتب او المؤلف قد يساعد على تمييز النص الاصلى من المزورة اذا ما توافر ذلك .

وحتى بالنسبة لاعداد المجلة أو الجريدة القديمة فانه قد يحدث أن توضع صفحات مكان صفحات كصفحات الغلاف فعلا وهنا يلزم الحذر ومقارنة الاسلوب الطيبوغرافى للصحيفة عموما وبحيث لا يلحظ تحيزا أو انحرافا ليس له ما يسوغه فى تطور هذا الاسلوب .

ويلزم أيضا أن ننبه الى ضرورة ملاحظة من يقومون بترميم لبعض الوثائق القديمة أن يراعوا نوعية الخط والشكل الطباعى عموما الى جانب نوعية

المواد وتطورهـــا انهم يرممون بعض الاجـــزاء المتآكلة وقـــد يحدث ان يضـــع بعض المرممين غير الدقيقيين أجـــزاء مغلوطـــة مـــكان أخرى اذا ما اتســـقت فى شـــكلها الخارجى دون التدقيق فى مضمونها واتســـاق معـــانيها تمـــاما . وهذا هو ما يقضى بأن يدقق الدارس ى الوثائق القديمه (الخطيات والصحف) وتحليـــل مضامينهـــا .

وبصفة عامة فانه يمكن مراعـــاة جوانـــب بذاتهـــا للتأكـــد من صحـــة الوثيقـــة الى جانب ما ذكرنا مثل :

فحص التواريخ والتوقيعات .

وليسأل الباحث نفســـه وهو يفحص وثيقـــة مـــا : من هو المؤلف ؟ وهل عـــلاقته طبيعيـــة بالوثيقـــة موضوع البحث .. وهل اعتـــاد المؤلف تنـــاول كل هذه الموضوعات التى تعالجها الوثيقـــة .

وهل من الممكن ان يكون فى نفس الزمان والمـــكان المحددين فى الوثيقة . وهـــل المـــادة أو المعلومات التى ســـاقتها الوثيقـــة من خلقـــة اى أصليـــة بالنسبة لصاحب الوثيقة أم انه اقتبســـها من شخص اخر واكثر من ذلك هـــل مستوى الكتابة الادبيـــة او التحليـــل العلمى يتصف بالاتســـاق وذاتية المستوى والذكـــاء والخبرة والطبـــاع فى جميـــع بنـــود النص أو الوثيقـــة .

ثانيا : التقييم الداخلى :

وإذا كان التقييم الخارجى يبحث فى مدى صـــدق الوثيقـــة المطروحـــة فان التقييم الداخلى هو الاستماع او البحث فى مضمون الوثيقـــة فى داخلهـــا بعد التأكد من هويتهـــا . أى ماذا تقـــول الوثيقـــة اذن ؟ كمصـــدر للمعلومات وصلة هذه المعلومات بالدراســـة التى نحن بصددها .

ومعنى ذلك ان يلزم التحقق من معنى الـــكلمات والرموز . وفهم البيانات الواردة فى الوثيقة .. ويلزم أن يدرك البـــاحث نرـــيـــة اللغـــة التى كتبت بها الوثيقـــة .. ســـواء أكانت لغـــة أجنبيـــة أم لغـــة متميزة برمـــوز وقوالب اسلوبية بذاتهـــا .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الموثقين فى الدراســـات التاريخيـــة قـــد يعتمد على التحليل الكيمائى والفزيائى لمـــادة الورق ذاتهـــا التى صنعت منها الوثيقـــة لاثبات صلتهـــا بالوثيقـــة الاصلية ذلك ان صناعـــة الورق وتركيباتها بالنسبة لوثيقـــة معينـــة أو فتـــرة زمنيـــة محدودة لا تأتى بتطـــور كبير أو شاســـع .

ومن الطريف ايضا ان البعض شكك فى مؤلفات شكسبير وقال أن كاتبا آخر هو الذى كتبها له ووقعها باسمه .

بل أنه بالنسبة للوثائق المكتوبة على الآلة الكاتبة فانه يمكن التمييز بين نوعية الحروف . وحتى فى نطاق نفس نوعية الحروف فانه يمكن التمييز بين طريقة الكتابة ذاتها ومراعاة الاخرى المكسورة والمتآكلة أيضا ويمكن الاستعانة فى ذلك بالعدسات المكبرة والمجاهر وآلات التصوير مثلا .

واكثر حداثة من ذلك . فقد استخدمت الاشعة فوق البنفسجية لكشف التعديلات أو عمليات المحو لبعض الكلمات او الاسطر .

ولعل من الحوادث المشهورة فى هذا الصدد ما قامت به زوجة أحد أساتذة الجامعات مسز جونورن الذى كان يعمل استاذ اللغة الانجليزية بجامعة فاندر بيلت عندما كشطت بطريقة واضحة بعض أجزاء من مذكرات زوجها بعد وفاته والتى حققت منها عن تعليقات المؤلف على بعض الاشخاص والاحداث لتبدو أكثر دقة وكانت الكتابات الاصلية التى ظهرت تحت الاجزاء المكشوطة نقيض الكتابات الظاهرة .

والوثائق عموما بالنسبة للباحث أشبه بشهادة الشهود فى المحكمة بالنسبة للمحامى أو القاضى الذى يريد أن يثبت من هوية الشاهد وجديته وصدقه ليبنى بعد ذلك حكمه .

ولعل شمبليون (واسمه بالكامل جان فرانسوا شمبليون) قد ساعد البشرية مع قراءة وثيقة حجر رشيد عام ١٨٢٠ بعد اكتشافه فى مصر ابان الحملة الفرنسية وذلك بفك الغاز هذه الوثيقة التاريخية الهامة فى لغتها الهيروغليفية المصرية القديمة ولكن لعل تفسير وقراءة الوثائق الادبية والفلسفية والاعلامية والفكرية عموما يحتاج من الباحث الى جهد مضاعف بالنسبة لتفسير التفرينات والتعليقات والاستعارات الخفية التى يلزم استيعابها وما يعنيه ذلك احيانا من ضرورة فهم طبيعة الجو الإجتماعى والفكرى عموما لعصر المؤلف بهدف الوصول الى اقرب التفسيرات دقة ووضوحا . وذلك على ضوء تغير هذه المفاهيم أيضا من عصر الى عصر ولا يخفى ان يضاعف من مسئولية الباحث أن سوف يبنى على ما ورد فى الوثيقة التى يدرسها أو الاخبار التى يحققها تفسيرات وتقييمات جديدة وذات دلالات هامة .

ثالثا : التقييم العام للوثيقة :

وبعد التأكد من صدق الوثيقة وهويتها فيما اسميناه بالتقييم الخارجى ثم ان عملية التقييم الداخلى لفك رموز وتحليل معانى الوثيقة

تبدأ بمرحلة التقييم العام أو الشـامل بالنسبة لتقييم هذه الوثيقـة فى اطـار ما يجب ان تكون عليـه ومدى جديـة صلتها بموضوعهـا وتعمقها فى فهمـه والمـام كاتبها بعصره .

اذن ليست كل وثيقـة أصليـة ذات قيمة وليست كل وثيقـة مفهومة ذات أهميـة تاريخيـة أو حضاريـة الا فى حـدود دقـة وشمول معالجتها لموضوعها وعمق تغطيته على لسـان كاتبهـا ومدى انصافه وتقصيه للشواهد من حولـه .

وقـد تختلف وثيقتان فى تفسيرهما وتعليقهما حول لحادثـة واحـدة .. لاختلاف الوجهة التى يرى فيهـا مؤلف الوثيقـة الاحـداث من حوله وقـد يكون احدهما أكثر عمقـا أو الماما بالحادث من حوله .

وعلى الباحث أن يفرق بين الخبر وبين التعليق عليه وأن يجرد الاحداث فى أيـة وثيقـة من ملابسـات تفسـيراتها حتى يصل الى الوقائـع المجـردة وتسلسلها دون افسـاد والمقـارنة هنا ضرورية للحـكم على مدى الثقـة والاهميـة فى الوثيقة ذلك أن الاخطاء البشرية وهوى النفس قـد يتسرب الى الى كل ما يخرج من هذه النفس اذا ما أرادت وهوت وعلى ذلك فلا يصح أن نجزم بصحة وثيقـة صحـة مطلقـة ومهما كانت ــ ولكن يمكن الحكم بأنهـا أقرب الوثائق والنصوص المتاحـة تعبيرا عن عصرهـا ووثوقا بهـا .

وعموما فمهما كانت تفسيرات الباحث فلا يصح أن يشـط فى خيـالات وتأويلات لا تقف على ارض صلبة من الواقـع والشـواهـد الفعليـة وهنـا تكون قـد حققنـا ميزة الفرضيـة العلميـة الخياليـة وميـزة الشواهد العملية المقارنة .

ذلك أن حتى القيـام بافتراض علمى معين عمليـة يلزم ألا تنبـع من فـراغ فالافتراض العلمى السليم كما ذكرنا يلزم أن يدعمـه برهـان مسـتقل بعيـدا عن مجرد الفرض التالى التـام أى ضرورة وجـود حـد أدنى مـن جدية وعلمية البحث ليتم دورته .

فمثلا عندما أفترضوا أن الذى كتب مسرحيات شكسبير هو فرانسيس بيكون أوكرستيتوفرمارلو ، أو أى شخص آخر على قدر كبير من التعليم اذ لا يعقـل أن يكون شكسبير وهو الممثل الذى حصل على قـدر ضئيل من التعليم وقـد ظل هذا الفرض مجردتخمين لا تدعمه حقيقـة حتى الآن .

وبصفة عامة يمكن أن نقول أن مشاكل استخدام الوثائق مشكلتان أساسيتان وهما :

١ — عدم كتابة البيانات فى داخل الوثيقة ذاتها أو التى تكفى لاثبات صحة وثيقة أو رفضها (كما رأينا فى محاولة تحديد شخصية شكسبير) .

٢ — عدم التوفيق فى اختيار نوعية او جزئية بذاتها من البيانات التى تتضمنها الوثيقة وهو ما يسمى (بالاختيار الخاطىء للحجج) .

وقد يتمكن الباحث اغفال جوانب من الحجج فى الوثيقة ، والتى لا تناسب أفكاره وافتراضاته وفى هذا افساد للبحث ولقيمة الوثيقة ذاتها .

المجالات التى يستخدمها فيها منهج البحث التوثيقى :

الى جانب فائدة المنهج التوثيقى فى الدراسات التاريخية المتعددة فان هناك مجالات عصرية وأكاديمية أخرى يمكن ان تعتمد على هذا المنهج التوثيقى فى ذلك كل مجال أكاديمى لا يخلو من دراسة تاريخية تتصل به ومن هذه المجالات التوثيقية .

١ — السيرة .
٢ — تاريخ المؤسسات والمنظمات .
٣ — مصادر المعلومات .
٤ — فن الكتابة الادبية والصحفية عموما .
٥ — تاريخ الآراء والنظريات المختلفة .
٦ — البليوجرافيا .

واذا فصلنا هذه النوعيات نقول بأننا نعنى بالسيرة هنا أن يقدم الباحث عرضا وتقريرا أمينا للحقائق الاساسية عن حياة شخص ما ومنجزاته . وفى أى من المجالات وفى مجال الاعلام نهتم بالرواد فى المجال الصحفى والدراسات والنظريات العلمية الحديثة مثلا .

والحقائق اللازمة للحكم عى سيرة شخص مثلا لا يمكن جمعها باستخدام المنهج التجريبى أو منهج المسح ودراسة الحالة مثلا وقد ظهرت الحاجة اكثر الى دراسة السير والتراجم الخاصة فى العصر الحديث على وجه الخصوص بعد أن تميز الانسان تجاه نفسه وتجاه العالم بالرومانسية التى ترى العالم ديناميكيا متغيرا ولذلك بعد مرحلة من الكلاسيكية او الانتظامية التى ترى العالم ساكنا .

وهذا ما يفرض على الباحث ضرورة متابعة المتغيرات المحيطة بكل عصر وبالذات بالنسبة للباحث الاعلامى الذى يواجه تغيرات عالمية لا تنتهى واذا كان منهج البحث التوثيقى يستخدم بصورة أقل فى مجالات العلوم البحتة قبل البيولوجيا والكيمياء والرياضيات والفزياء أو فى مجال الاقتصاد

والتربية والجغرافيا الا انه يستخدم بصفة اساسية فى الدراسات مثل الفنون والبحوث الاعلامية والتاريخ واللغويات والعلوم السياسية والفلسفية .

اهمية الفروض فى البحث التوثيقى :

يلزم التنبيه هنا الى انه ليس معنى المنهج التوثيقى الاقتصار على ابراز الحقائق فقط . وانه يخلو أمرضية العلمية التى هى اساس كل بحث . ذلك أن اكتشاف الحقائق جزء من منهج البحث التوثيقى ليس غير ، ولكن التعميمات أو المبادىء التى تستخلص من البيانات الواقعية شىء اساسى فى هذا المنهج . ولا يخفى هنا أن الباحث حتى وهو يقوم بالتقييم الداخلى والخارجى أو الشامل لوثيقة يمر بسلسلة من الافتراضات العلمية بحثا عن الحقيقة فى نطاق ما يهدف اليه من بحثه والتى يقوم الباحث بفحصها وتحقيقها .

خطوات البحث :

ونوجز هنا الخطوات التى يمر بها البحث التوثيقى والتى تتمثل فى خطوات اساسية :

١ — ضرورة تقرير ما اذا كانت مشكلة البحث تتطلب دراسة توثيقية أم لا وهو سؤال تقليدى بالنسبة لضرورة تحديد نوعية منهج البحث بأى موضوع يتم بحثه .

٢ — تحديد نوع المعلومات التى يتطلبها البحث . وعلى الباحث هنا أن يميز بين سيل المعلومات التى يواجهها ويختار منها ما هو مرتبط ببحثه فعلا وباسلوب منظم .

٣ — البدء فى مرحلة جمع البيانات وتتضمن :

ا — الاعتماد على المعلومات المتوفرة والمطلوبة معا .
ب — التمييز بين المصادر الاولية والمصادر الثانوية .

٤ — كتابة تقرير البحث . ويسير هذا وفقا للاسلوب التقليدى فى كتابة البحوث ولكن الى جانب ذلك يلزم كتابة وصف تفصيلى للوثائق وكتابة تفسير لها مدعم بالحجج والبراهين المستقاة من بياناته .

٥ — الوصول الى تعميمات أو فروض مستقلة جديدة تثير الاهتمام بمشاكل جديدة فعلا بما يثرى البحث .

٦ — كتابة ملخص وخاتمة .

٧ — ملحق مصور بالوثائق ما أمكن ذلك .

٢ ــ منهج المسح الاجتماعى ودراسة الحالة

تستخدم البحوث بعامة والبحوث السلوكية والاجتماعية ومنها البحوث الاعلامية بخاصة على منهج المسح والدراسات الميدانية والمقارنة كمناهج رئيسية ، وذلك بما تتضمنه من بحوث كشفية ووصفية وتحليلية .

والفرق بين منهج المسح ومنهج التجريب أن الباحث فى المعمل أو التجربة يخضع الظروف أو الحالة أو المتغير لتحكمه وفقا لخطة ومقاييس معينة (أى ظروف صناعية) . أما المسح فيدرس التغيرات فى وضعها الطبيعى ودون تدخل من الباحث (أى ظروف طبيعية) ومنهج المسح أنواع :ــ

١ ــ المسح العام (كما يحدث فى التعداد السنوى للسكان مثلا) .

٢ ــ الدراسة الوصفية (وغالبا ما تكون توصيفا لحالات أشبه بالمسح العام)

٣ ــ الدراسات الكشفية والتحليلية (وبما فى ذلك عموما من دراسات متسببة مؤجلة أو دراسة عرضية لفترة محدودة .

٤ ــ واذا كان البعض يعتبر أن الدراسات المسحية ما هى الا دراسات وصفية فان هذه الدراسات الوصفية يمكن تصنيفها الى :ــ

أ ــ دراسات مسحية أساسا

ب ــ دراسات العلاقات المتبادلة

جـ ــ الدراسة التطورية أى (التطور)

ويمكن أن تتداخل هذه الدراسات معا فى دراسة أو بحث واحد .

تعريف منهج المسح والبحوث الوصفية :ــ

١ ــ المسح دراسة تنصب على الحاضر وتتناول أشياء موجودة بالفعل وقت اجراء الدراسة .

٢ ــ دراسة الظواهر الموجودة فى جماعة معينة وفى مكان معين .

٣ ــ دراسة عملية ميدانية يحاول فيها الباحث الكشف عن الأوضاع القائمة ليستعين بها على التخطيط للمستقبل بما يتفرض عنه من صياغة مبادىء عامة وتصميمات علمية .

فاذا كان المسح لا يحل مشكلة قائمة الا أنه يقدم حقائق دقيقة تساعد على حلها وتفادى تكرارها مستقبلا .

وقد أكد منهج المسح فائدته فى المجالات الاجتماعية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر عندما استخدم فى دراسة كثير من المشكلات الاجتماعية التى أثارت اهتمام الباحثين وبانت ملحة آنذاك .

ومن ذلك الدراسة الوصفية التى قام بها « جون هوارد » فى انجلترا كواحد من كبار الباحثين الاجتماعيين وحصل على الارقام والحقائق المتصلة بقطاعات المجتمع وعندما اعتمد أيضا على الملاحظة بالمشاركة وعلى المقابلة الشخصية فى الحصول على البيانات المطلوبة وقد بلغ الامر ببعض الباحثين العلميين وهو « جون هوارد » أن يعد بحثا ميدانيا عن كيف كان المرضى يعالجون من الطاعون فى أحد المستشفيات الاوروبية وأن عرض نفسه عن عمد للعدوى .. على أمل أن يقف على الظروف الحقيقية فى المصحات آنذاك)

ومن ذلك أيضا دراسات فردريك لبلاى . F. Leplay العالم الفرنسى الذى ركز على دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية وكان يتصل اتصالا مباشرا بالعائلات ليقف على أوجه ميزانيتها وصرفها واستمر على ذلك عشرين عاما حتى نشر دراسته فى هذا المجال عام ١٨٨٠ م .

وقد تطورت البحوث الوصفية أو المسحية فى الفترة ما بين الحربين تطورا كبير فى مجال الدراسات التربوية .

استخدام الدراسات المسحية فى توصيف وتقويم الرأى العام :ـ

وذلك بطريقة منظمة وأنشئت لذلك هيئات خاصة الى جانب أهمية متابعة الرأى العام بالنسبة للشركات ورجال الاعمال وخاصة فى عمليات التسويق .

والاستفتاء فى الواقع من أهم وسائل قياس الرأى العام والاستفتاء يلزم أن تراعى فيه دقة صياغة الاسئلة ونوعيتها فعلى ذلك تتوقف اجابات الافراد .

وأسئلة الاستفتاء ثلاثة أنواع :.

١ ـ أسئلة ذات اجابات مفتوحة (ولها قيمتها الكبيرة فى الكشف عن الآراء السائدة فعلا فى المجتمع) .

٢ ـ أسئلة مغلقة واجابتها على ب لا أو ب نعم ولها قيمتها لكشف المشكلات المحددة تحديدا واضحا .

٣ ـ أسئلة الاحتمالات المتعددة (ولها قيمتها عندما توجه لاحد الجانبين أو لكليهما فى مشكلة محددة بـ عدة احتمالات) .

ويلاحظ أن عمليات مسح السوق بناء على ذلك — هى استفتاء فى الراى العام يجرى عادة لتحديد أو لاختيار رد فعل الجمهور تجاه انتاج جديد .. او خلق رد فعل معين او جديد وتحديد التأثيرات النسبية لانتاج جديد مثلا .

الدراسات السببية (او المقارنة او التحليلية) فى منهج المسح : —

وهذا النوع خطوة متقدمة فى مجال النهج المسحى بعد ان كان يبدأ فى معظمه بالبحث عن ماهية الظاهرة والظواهر المختلفة فقط . اذن جاء التفسير بعد التوصيف عند المقارنة بين المتشابهات والمتغيرات فى مجال الدراسات الاجتماعية وان كان العلماء يعتمدون فى كشف السببية على التجريب فى مجال العلوم Sience

طريقة الاتفاق عند جون ستيوارت ميل : —

وطريقة الاتفاق فى البحث المقارن عند « ميل » ترتكز على انه اذا كان اشتركت حالتان أو أكثر من حالات الظاهرة المدروسة فى طرف مشترك واحد فقط ، فان الطرف الذى تشترك فيه وحده كل الحالات يكون هو السبب لتفسير الظاهرة ولعل بحوث انمليات القراءة وظروفها والارتباط بوسائل اتصال معينة يعتمد على بحوث دراسة الاتفاق هذه كثيرا وتجدر الاشارة بالبحوث الخاصة بتحديد ما اذا كان تدخين السجاير يتسبب فى الاصابة بالسرطان)

محاذير خاصة بالدراسات السببية المقارنة :

١ — ضرورة أن يحتاط الباحث أثناء اعداد خطة البحث من ان الخطة تشتمل على جميع المتغيرات أو العناصر أو العوامل والمعلومات التى تتصل بالظاهرة موضوع الدراسة .

اذ قد تكون بعض هذه الجوانب الخفية أو غير الموجودة ذات تاثير على تفسير أو سببية المشكلة .

هذا مع العلم بأن الاشياء قد تحدث معا أو توجد عوامل مشتركة لا تغنى عن العامل المشترك الاساسى الآخر الذى قد يكون سببا فى الظاهرة أى أن اتفاقها فى بعض العوامل المشتركة اتفاقا مرضيا .

واذا قال البعض بأن كيف تضمن الاحاطة بكل العوامل والحقائق العلمية تتغير من حين لحين فالرد على ذلك أننا نعنى كل العوامل المتاحة تماما بالنسبة

لاساسيات اعداد البحث — كما أشرنا — وفرضياته العلمية وما يستجد من عوامل أخرى يكون سببا آخر أو استكمالا للسببيات السابقة .

٢ — تميز الظواهر الاجتماعية عن الظواهر العلمية بأنها لا ترجع مثل الثانية الى عامل واحد مسئول وحاسم فى حدوثها وعدم حدوثها لتعقد الظواهر السلوكية .

٣ — بعض الظواهر قد تنتج عن سبب واحد فى حالة . ومن سبب آخر فى حالة أخرى

٤ — أن يضع الباحث فى اعتباره ايضا أن عينات المواقف الطبيعية أو السلوكية العامة لا يتم اختيارها بنفس درجة التحكم والضبط الدقيق كما فى التجريب العلمى .

وان كان التقدم الكبير فى الادوات والضوابط والاحصائيات التى تستخدم فى البحوث السلوكية قد أفادت كثيرا فى هذا الصدد .

البحوث الارتباطية السببية :ـ

وهى تعتمد على مدى ارتباط متغيرين أو أكثر ببعضهم وهى بحوث قريبة من البحوث السببية فهناك أسبابا ذاتية للحالة أو الظاهرة ذاتها ثم هناك أسباب ارتباطية خارجية تربط متغيراتها بحالات أخرى لها أسباب ذاتية مغايرة .

أى ليس شرطا أن تكون الظواهر الاجتماعية المرتبطة ببعضها كل منهما سبب فى حدوث الاخرى .

وارتباط الجمهور الامى بوسيلة الاتصال الاذاعى واضح ولكن الاتصال الاذاعى يمكن أن يرتبط بالجمهور المتعلم أيضا بدرجة من الدرجات . وهذا يقودنا الى الارتباط بين بعض الظواهر قد يكون .

تاما وهذا يحدث نادرا

أو يرتبط ارتباطا جزئيا (الى حد ما)

أو لا يرتبط على الاطلاق .

وذلك وفقا للزيادة أو النقصان فى المتغيرات ذاتها الموجودة والمشتركة فى الظواهر .

وتحديد درجات هذا الارتباط من الارتباط الموجب التام الى الارتباط السالب التام أى العكس وبينهما مرحلة من عدم وجود ارتباط لا ايجابى او سلبى .

واستخدام التحليل المنطقى فى تحديد الارتباط هنا ، يفيض أكثر من استخدام التقدير الاحصائى وهى تفيد فى دراسات التوقع والاسباب والنتائج بما يحقق نتائج طيبة فى عمليات تنسيق الافراد والاختيار والتوجيه .

الدراسات الطولية فى البحث المسحى : ـ

وتستخدم هذه الدراسات فى تتبع أحوال النمو والنشأة ومتابعة المتغيرات التى تحدث بفعل الزمن وذلك خلال فترة معينة قد تمتد شهورا أو سنوات . وقد استخدمت فى دراسة تطور الكائنات الحية وعلم النفس « دراسات جيزل فى النمو دراسات ترمان » وكذلك تطور وسائل الاعلام والاهتمامات الاعلامية وفنون الاعلام فالدراسة التاريخية تعتمد على تتبع الماضى والدراسة الطولية تعتمد على تتبع الحاضر والمستقبل أو التاريخ اللاحق ويرى بعض الباحثين (ومنهم أوزيل) بأن دراسة المواقف الطبيعية والبعد عن التجريب هو خير وسيلة لهذه الدراسات الطولية (ذلك أن التجريب يخلق جوا صناعيا لا يمكن أن يساعدنا مساعدة فعالة فى فهم عمليات النمو التى تحدث فى نطاق زمنى لا يمكن تجاهله) وتعتمد هذه الطريقة الطولية التاريخية على تتبع مبنى على الملاحظات المخططة والمنظمة للتكوين الجسمى أو النفسى عند الاطفال منذ ولادتهم مثلا أو عند الافراد فى فترات معينة أو حتى على تتبع بعض الظواهر الاجتماعية والاعلامية .

وهى طريقة تحتاج الى كثير من الجهد والمال كما تستغرق وقتا طويلا وتقضى اختيار عينات كثيرة تعوض ما قد يفنى أو يموت أو يفسد من العينات المذكورة خلال الفترة الزمنية الطولية التى تجرى فيها التجربة .

الطريقة المستعرضة أو الطولية الجاهزة :

وهى نفس الطريقة الطولية لتتبع النمو والنشأة ولكن بدلا من انتظار الباحث لمرور الزمن له والانتظار لتتبع النتائج وتندر العينات فانه يختار عينات وفئات من اعمار ومستويات مختلفة ـ سلوكية ومزاجية ثم يقارن بينها .

وهى وان كانت أقل جهدا من الطريقة الطولية الا أنها أقل دقة مما لو تتبعت الحالة ذاتها وتعتمد على المتوسطات والتقريب وهى جميعا طولية او عرضية دراسات وصفية مسحية .

الدراسات الاستطلاعية الكشفية : ـ

وهى لا تختلف فى جوهرها عن الدراسات المسحية الوصفية الا فى أغراضها فالبحث الاستكشافى يعنى البحث عن الموضوعات الجديرة بالبحث ذاتها . أى أن البحث الاستكشافى بحث مسحى أو وصفى مرحلى تمهيدى : يساعد على تحديد الفروض العلمية والاتجاه المباشر الى الحقائق العلمية والبيانات التى ينبغى البحث عنها .

وذلك بما يفيده فى مجال استطلاع حقيقة الموقف الفعلى الذى تجرى فيه الدراسة والامكانية المتاحة للبحث . وتتطلب هذه الدراسة الكشفية قدرا كبيرا من المرونة والشمول دون أن تتطلب تحديدا دقيقا .

وما يعنيه ذلك من قراءة كل ما يمكن للباحث الحصول عليه من معلومات تتصل بمشكلة البحث وبالميادين الاخرى المتصلة بالبحث للحصول على أفكار جديدة لها قيمتها واستشارة ذوى الخبرة والمهتمين بالموضوع للتعرف على آرائهم وخواطرهم بما لا يجده فى المادة المكتوبة عن الموضوع .

وهو فى ذلك يدرس دراسات الحالات والظواهر دون التزام بقواعد معينة لانه يهدف للتعرف العام على مجال المشكلة أساسا وعلى ذلك فيمكن تلخيص خطوات البحث فى منهج المسح بما يلى : ـ

١ ــ البدء بتحديد الغرض من البحث تحديدا واضحا . بما فى ذلك من تحديد للمشكلة والاعتبارات العلمية التى يبنى عليها هدفه .

٢ ــ رسم خطة لسير البحث وتشتمل على : ـ

(أ) تحديد العينة والمكان والزمان اللازم لتنفيذ البحث .

(ب) تحديد المساعدين الفنيين الذين نحتاجهم لجمع البيانات وتدريبهم تدريبا كافيا لضمان صحة البيانات .

٣ ــ جمع البيانات ويكون ذلك بوسائل عديدة .

(آ) المقابلة .

(ب) الاستفتاء والملاحظة .

(د) المقاييس المختلفة وفقا لكل حالة .

٤ ــ تحليل البيانات تحليلا احصائيا وتفسيرها عن طريق التحليل أو القياس المنطقى .

٥ – التوصل أو استخلاص النتائج مع تقدير ومطابقة الثقة فى النتائج الاحصائية المستخلصة على المجموع أو المجتمع الذى أخذت منه العينة .

ثانيا : دراسة الحالة .

ولعل الاختلاف بين المسح ودراسة الحالة أساسا يكمن فى أن الباحث فى المسح يقوم بجمع بياناته أو قياساته من عدد كبير من الوحدات الفردية أو الظواهر . فى حين انه فى دراسة الحالة يفحص بدقة وحدة أو اكثر من هذه الوحدات التى يطلق عليها مؤشر منفصل أو « دالة منفصلة » وذلك لما تبدو عليه هذه الحالات من كونها أكثر تمثيلا وتصويرا .

وهذا هو السبب فى أن طريقة دراسة الحالة تساعد على فهم أعمق للمواقف والعوامل المتفاعلة .

ودراسة الحالة المعنية هنا تكمل المسح الشامل فى البحث الاجتماعى والسيكلوجى . كما أن دراسة الحالة هنا تتطرق الى منهج البحث التوثيقى الذى يتتبع الحالة كلما سنرى .

فيمكن دراسة أثر التعليم والمستوى الاقتصادى على وسائل الاعلام وتطورها مثلا .. ثم دراسة حالة اقتصادية أو ثقافية فردية مكتملة لعمل دراسة حالة منفصلة للتوصل لنتائج ابعد . لانها أكثر تمثيلا .

فيمكن أن ندرس تطور نوعية من الصحافة بشكل عام ثم ندرس تطور حالة أو مجلة واحدة أكثر تمثيلا بصفة خاصة أو نختار وحدة أو مؤسسة صحفية بذاتها ضمن أهم المؤسسات الصحفية الاخرى .

ويلزم هنا أن تراعى ضرورة أن تكون هذه الحالة أو العينة الخاصة .. فى اطار اجتماعى وعلمى دقيق وتحدد طبيعة الحالة أبعاد الاطار .. وبحيث لا تكون مصطنعة أى ضرورة التعمق فى فهم العلاقات المتصلة بالحالة وليس مجرد دراسة الحالة فى حد ذاتها . فالانسان دائما يتفاعل مع مكونات بيئته وبحيث تكون نموذجية وممثلة لغيرها .

وقد يتطلب هذا اجراء مسح احصائى أولى – اذا امكن – أو تعرف شامل وقبل اجراء اى اختيار والبت فى دراسته فاختيار الحالات اذن لا يأتى اعتباطا أو عشوائيا بل على اساس نوع الفروض .. والموضوع المدروس . والمعرفة الواسعة لنوعية المجتمع الذى ستؤخذ منه الحالة والعلاقات الاجتماعية .

وكل ذلك فى حيدة وموضوعية تامة قدر الامكان وان كان البعض يــرى أن اختيار الحالة أو العينة لا يخلو من نوع ما من الذاتية وهذا الحد الادنى لا يقلل من قيمة دراسة الحالة فى التأكد من النتائج العامة .

ومن جهة أخرى فانه لا يصح تطبيق النتائج التى تؤخذ من عينات قليلة لا تمثل المجتمع الاصلى ما لم تكن الحالات والعينات نموذجية التمثيل المجتمـــع وللمجالات التى تتصل بها .

٤ ــ المنهـــج الاحصـــائى

اتفق المختصون على أن الاحصـــاء هو الاداة العلمية التى يعتمد عليهـــا المشتغلون بدراســـات المجتمعات الــكبيرة فى تعرف اتجاهاتهـــا وأحوالهـــا العامة والمقارنـــة بين بعضهـــا والبعض الآخـــر لا سيما وأن التطـــور الاجتماعى أدى الى زيـــادة هائلة من الســـكان وتركزت المشكلات الاجتماعية وتداخلت بحيث أصبح من العسير تحديدهـــا دون الالتجـــاء الى أســـاليب علمية ودراســـة فنيـــة وتقديرات موضوعيـــة ترتكز على الاحصـــاءات والبيانات الدقيقيـــة المستقاة من البيئة .

ولقد حاول كثير من المفكرين ان يجعلوا من الاحصـــاء علما له قواعـــده وقوانينـــه المستقلة ، وحاول فريق آخـــر أن يعتبره علمـــا تابعـــا للعـــلوم التجريبية ، واتجـــه التفكير الحديث الآن الى اعتبار الاحصـــاء اداة للقيـــاس ومنهج للبحث يقدم للباحثين والعلمـــاء المـــادة الخـــام التى تســـاعد فى اقامة النظريات وتحديد سير الاحـــداث .

وترجع أهمية الاحصاء الى الامور الآتية :

١ ــ يستطيع الباحث بعقله الحـــكم على الظواهـــر والمشـــروعات حكما موضوعيـــا مجردا عن عواطف الباحثين واهـــواء الحكام والقادة .

٢ ــ ينطوى الاحصـــاء على تقرير الحقائق ولا يتـــرك مجـــالا للتأويل وســـوء الادراك والفهم أو ســـوء النية والقصد .

٣ ــ يستطيع الباحث عن طريقة وضع القوانين فى صور كميـــة دقيقـــة بعيدة عن مرونـــة الالفاظ وعن التعبيرات اللغوية .

٤ ــ يكشف الاحصاء عن العلاقات الضرورية بين الظواهر . وهـــذا الكشف يكسب الباحث مقدرة على معالجة المشكلات الناجمة عنها دفعة واحدة .

٥ — بفضل الاحصاء يمكن للمسئولين وضع تقديرات تمويل المشروعات وتحديد مصادر التمويل تحديدا دقيقـا بعيـدا عن سـوء التقدير والارتجـال الضار .

٦ — بفضله يستطيع المسـئولون تقويم المشروعات وبرامج الاصـلاح وهنـاك احصاءات كثيرة تهم الباحث وأهمها :

١ — احصاءات السكان وما يتصل بها من التوزيع البدموجرافى والجغرافى

٢ — الاحصاءات الحيوية صحية وأسرية .

٣ — الاحصاءات الاقتصادية : احصاءات الدخول الفرديـة والقوميـة والاعمال الخاصة فى مختلف القطاعات .

٤ — الاحصاءات الجزئيـة ذات الاغراض الخاصـة (مثل احصـاء طلاب الجامعات والمدارس ، احصـاء المبانى والمتنزهات والحدائق العامـة احصـاء النسـاء العاملات) .

٥ — الاحصاءات الدولية ومقارنـة البيانات العالمية فى مختلف القطاعات .

٦ — الوقوف على وسائل الاعلام واتجاهات الراى العام وقياسـه بعدد التيارات السياسية والاقتصـادية والفكرية والقيم الاجتماعية سواء كان ذلك متعلقـا ، بالبيئة المحلية والقومية أو العالم الخارجى .

وهناك صعوبات فنية كثيرة تصادف القائمين بالعمل فى الميدان الاجتماعى عندما يريدون الاستفادة من تطبيق المنهج الاحصائى على دراسـة مشـكلات المجتمع ، والاستفادة منـه فى رسم برامج الاصلاح والانعاش الاجتماعى وأهم هذه الصعوبات :

١ — ضعف الوعى الاحصائى فمعظم افراد الشعب يجهلون قيمة الاحصاء ويتندرون على الذين يقومون بجمع البيانات الاحصائية لاى غرض من الاغراض ، ولذلك قلما يخلصون فى اعطـاء بيانات صحيحة .

٢ — جهل الطبقات الشعبية وانتشار التقاليـد والظواهـر التى لا تخدم اغراض الاحصاء . فمعظم الافراد لا يعرفـون كتابـة الاسـتمارات أو جـداول الاحصـاء ولا يفهمون المصطلحات الواردة بهـا وقـد يكلفـون غيرهم فى ملئهـا بدون دقـة .

٣ — الخوف من تشريعات الحكومة ورقابتهـا . فهناك أفراد يدركـون تماما قيمة العملية الاحصائية ويعرفـون مبلغ اثرهـا فى تخطيط برامـج الحكومة ، ومع ذلك يدلون ببيانات مزيفة وذلك تهربا من رقـابة الحـكومة واشرافها ، أو تهربـا من دفع الضرائب وما اليها .

٤ — عدم التعاون بين الهيئـات سـواء كانت حكومية أم اهلية فيمـا يتعلق بجهودهـا فى شـئون الاحصـاء . ولذلك نلحظ تكرار الجهود وتشابه المنشـورات الاحصائية ، فيبغى اذن تنسيق هذه لجهـود حتى نوفـر كثيرا من الوقت والجهد والتكاليف وحتى يمكننا أن نتوفـر على استكمال احصـاء القطاعات التى لم تجر فيها احصاءات من قبل .

هذه هى أهم الصعوبات التى ينبغى التخلص منها حتى يمكننا الاستفادة من المنهج الاحصائى على أفضـل وجـه لانـه الدعامة القويـة التى تركز عليها المسـح الاجتماعى .

قواعد المنهج الاحصائى

ينطوى المنهج الاحصائى على عمليـات كثيرة أهمهـا : جمع البيانات ونقدهـا وتبويبهـا وأخيرا مرحلة التحايـل وتقرير القضيا الكليـة والاحكام العامة التى يصل اليهما الباحث ..

اولا : عملية جمع البيانات

تجمع البيانات من المبحوثين عادة باحدى طريقتين أساسيتين :

١ — طريقـة يكمن ان يطلـق عليهـا اسـم الادلاء الفنى Convassing Methed ووسيلتها الاتصال الشخصى او المقابلة الشخصية Personal interview وأداتها كشف البحث Schedule وتتلخص فى أن يذهب الباحث أو أن يرسـل مندوبه الى المبحوث فيقابله ويتولى الباحث أو مندوبه ملء البيانات بنفسـه من واقـع ما يدلى بـه المبحوث اليـه فى الاستمارة المخصصة لذلك .

٢ — طريقة يمكن أن يطلق عليها اسم التسجيل Self-Fnumenation method وفيها يترك للمبحوث ان يسـجل البيانات بنفسـه عن نفسـه فى الاستمارة المخصصة لذلك والتى تسمى فى هذه الحالة صحيفـة استبيان أو استقصاء أو استقتاء Questionnaire ووسائلهما فى الاتصال بالمبحثين كثيرة متعددة فقد ترسـل الاسـتمارة الى المبحوث مثلا بالبريد وقد تنشـر فى الصـحف أو المجلات وقد تتلى تفاصيلها على المبحوث بطريق التليفـون أو الراديـو وقد تعرض عليه عن طريق التليفزيون أو السينما وفى كل هذه الحالات يطلب من المبحوث أن يستوفى البيانات المطلوبة فى الاستمارة ويرسلها بعـودة البريد الى عنـوان معين ومن هنا يطلق على هذه الوسيلة اسـم المراسلة Mail questionnaire

باعتبار أن سبيل العـودة للاستمارة هو البريد بغض النظـر عن الطريقـة التى أرسلت بهـا الاستمارة الى المبحوث . وقـد جرت العرف على أنـه اذا أرسلت الاستمارة الى المبحوث بالبريد ان يرفق بها خطاب Corering Letter يراعى فيه رقة الصياغة لكسب تعاون المبحوث ويشرح فيه الغرض من البحث ويبين فيه أهمية البحث وحيويته تعاون المبحوث معه كمـا يتعهـد فيه الباحث بالمحافظة على سريـة البيانات سرية تامة كاملة وقـد يستعاض عن كل هذه الوسائل بتسـليم الاستمارة للمبحوث يدا بيد أو تـرك الاستمارة لـه فى داره لكى يتولى هـو بنفسـه ملأها عن نفسـه ويعيد تسليمها للباحث أو مندوبه عند عودتـه لاستلام الاستمارة ، والواقـع أن هـذه الوسـيلة ما هى الا طريق وسط بين الاتصال الشخصى وعدمه اذ يتم فيهما الاتصال الشخصى فعـلا ولكن دون أن يتولى الباحث أو مندوبـه ملء البيانات بنفسه نيابـة عن المبحوث . وميزتهـا أنـه يمكن فيها للباحث أن يشرح للمبحوث ما قد يلتبس عليه فهمه من أسـئلة بشرط ألا يكون فى هذا الشىء تأثير فى المبحوث أو تحويله عن رأيـه الاصلى ، ولكن يعاب عليهـا أنهـا لا تفضل وسـيلة المراسـلة بصـورة تبرر ارتفاع تكاليفهـا بما يقرب من تكاليف المقابلة الشخصية البحتة .

ولكل من هاتين الطريقتين مزاياهـا وعيوبها وتعتبر مزايـا كل منهـا عيوبـا للاخر وبالعكس . فمن مزايـا الطريقـة الثانية (التسـجيل الذاتى) (Self-Fnumeration' Methed) انها أقـل نفقـة من الاولى / الادلاء الشـفهى (Canvassiny Mdhaf) اذ أنها لا تتطلب أكثر من ارسـال الاسـتمارات الى المبحوثين وانتظـار الرد عليها كما أنهـا تعطى فرصـة للمبحوثين للتفكير فى الاجابات ومحاولة الرد عليها بدقـة ، ويمكن استخدامهـا فى المسـائل الحساسـة أو الشـائكة التى قـد يتردد المبحوثين فى الادلاء بمعلوماتهم عنهـا لاى شخص بينما يدلون بها كتابـة اذا ما توفر شرط السريـة كمسـائل تعاطى الحشيش وما الى ذلك .

ولكن يعاب على هذه الطريقـة بطء الاستجابة من جانب المبحوثين وعـدم ردهم على الاستمارة اطلاقـا فى بعض الاحيان أما بسبب الاهمـال أو لصعوبة فهمهم لبعض ما يرد فى الاسـتمارة من أسـئلة ، كما أنهـا قـد لا تعطى نتائـج طيبة فى الدول التى لا يكون معظم أفرادها على جانب من التعليم .

ثانيا : اختيار العينـة

من الصعب اختيار النماذج والعينات التى تعتبر ممثلة للبيئـة موضـوع الدراسـة ، لان نجاح عمليـة الاحصـاء وبالتالى ضمان النتائـج الصالحة مرهون بالتوفيق فى اختيار العينات المثالية .

ومما يجدر ذكره أن استخدام العينات فى الدراسات الاحصائية ليس مجرد استخدام جزء من المجتمع حسبما اتفق بدلا من المجتمع كله وانما هو اختيار تراعى فيه قواعد واعتبارات علمية معينة لكى تكون نتائج العينة قابلة للتعميم على المجتمع الاصلى وكلما كانت العينة مختزة اختيارا سليما كانت النتائج لا تقل دقة عن تلك التى تسفر عنها طريقة الحصر الشامل وان اختلفت بالطبع النتائج بفعل اخطاء المعاينة العشوائية التي تتوقف على حجم العينة وعلى مكان مفرداتها المجتمع . فكلما كبرت العينة قل خطأ المعاينة وزادت الثقة فى النتائج .

أنواع العينات :

العينات أنواع كثيرة اهمها :

العينة العشوائية والطبقية والعينة المعتمدة :

١ ـ العينة العشوائية : ويتم اختيارها على أساس عشوائى أى على أساس اعطاء فرص متكافئة لجميع مفردات المجمع . والعينة العشوائية الجيدة هى التى تحتوى على أنواع المفردات المختلفة بنسب وجودها فى المجتمع الاصلى . ويجب الحذر الشديد عند استخدام هذه الطريقة حتى لا تبدو فيها صفة التحيز فى الاختيار .

٢ ـ الطريقة الطبيقية :

ويتطلب اختيار هذا النوع من العينة معرفة التركيب النسبى للمجتمع ودرجة الفروق الطبقية ومبلغ انطباعها على الحالة الاجتماعية .

٣ ـ العينة المعتمدة :

وهى العينة التى تتدخل فى اختيارها وفقا لمقاييس اجتماعية معينة نصطلح عليها فنبدأ بتطبيق هذه المقاييس على الوحدات الاجتماعية ونختار من بينها ما نرى مقيسه أكثر اقترابا من المقاييس العامة التى وضعناها للمجتمع . وعلى هذا النحو نحصل على عينات تتحقق فيها شروط معينة .

ثالثا : وسائل جمع البيانات

هناك وسائل كثيرة بفضلها يمكننا حصر وجمع البيانات التى يتطلبها المسح الاجتماعى واهم هذه الطرق ما يأتى :

١ ـ استمارات أو جداول الاحصاء Schedule وهى عبارة عن كشف أو استمارة لجمع البيانات فى موضوع معين . وتحتوى هذه الاستمارات

على مجموعة من الاسئلة يطلب من الافراد الاجابة عنها . اذ يقوم الباحث بمقابلة كل واحد من افراد البحث ويوجه اليه الاسئلة بحسب ترتيبها فى الكشف ويسجل الاجابات التى يحصل عليها ويجب أن تكون الاسئلة واضحة يفهمها الرجل العادى ، لان المفروض أن هذه الاستمارات توزع على جمهور الشعب ومنهم المثقف والجاهل . ويستحسن أن ترفق استمارة الاحصاء (بصحيفة تعليمات) تتضمن شرح المقصود من جميع الالفاظ التى قد تحتمل اللبس أو التأويل .

وينبغى أن تكون الاسئلة محدودة لا تدل الا على شىء واحد لذلك يجب أن تطلب الاسئلة اجابات مقتضبة ويحستحسن أن تكون الاجابة اما (بنعم أو بلا) .

وغنى عن البيان الا تكون الاسئلة جارحة للمسئول . بمعنى أنه لا يصح أن تعرض الاسرار العائلات او تمس الامور الخاصة ، بل ينبغى أن تكون بعيدة تماما عن مواطن الحساسية التى لا يمكن الادلاء فى صددها ببيانات رسمية أو شبه رسمية .

ومن مزايا جمع البيانت بطريقة الاستمارات او كشوف البحث انها تؤدى الى جمع بيانات موحدة من جميع أفراد البحث . هذا الى وضوح البيانات التى تحصل عليها . وذلك لان الباحث يقوم بتوضيح معانى الكلمات وشرح المقصود من الاسئلة كلما استدعى الامر ذلك .

٢ — جمع البيانات عن طريق المواجهه أى المقابلة الشخصية وتسمى أيضا طريقة الاستبار Interview

يلجأ الباحث الى هذه الطريقة لاستيفاء البيانات الموجودة فى جداول الاحصاء أو لاجراء عملية جمع بيانات جديدة لمقارنة الحقائق بعضها بالبعض الآخر وكشف وجوه التناقض بينها . وقد يكون التناقض مقصودا أو غير مقصود والباحث وحده هو الذى يستطيع تقدير ظروف الخطأ فى البيانات بعد اعادة الحصول عليها . وهذه الطريقة شائعة كذلك فى دراسة الحالات الفردية Ca se work methed ويقوم بها الاخصائى الاجتماعى ويسمى الشخص موضوع الدراسة « بالعميل » .

٣ — جمد البيانات عن طريق الاستفتاء (صحائف الاستبيان) Questionnaires وهو عبارة عن استمارات احصائية تتضمن قدرا من الاسئلة حول موقف معين . وترسل هذه الاستمارات الى الافراد الذين يصعب

الاتصال بهم أو مقابلتهم وجها لوجه ، ويراد استفتاؤهم والوقوف على آرائهم بصدد هذا الموضوع ويشترط فى أسئلة الاستفتاء الشروط التى سبق الاشارة اليها بصدد « جداول الاحصاء » وقد استخدمت هذه الطريقة بنجاح فى الوقوف على كثير من المشاكل الاجتماعية التى تعانيها المناطق النائيــة التى يصعب الاتصال بافرادها . وأدى البحث عن هذا الطريق الى وصف عالى بشكل يقلل من خطر المشاكل ويقضى على بعض أسبابها .

٤ — جمع البيانات من السجلات والوثائق والاطلاع على الكتب والنشرات والدوريات والاحصاءات الرسمية والاطلاع على البحوث والدراسات المقارنة ، ودراسة « مصادر الميدان » لان هذه الامور وما اليها تمد الباحث بطائفــة من المعلومات التى تفيده فى دراسة الحقل الاجتماعى .

٥ — جمع البيانات عن طريق الملاحظة الشخصية والعشوائية :

اذ يستطيع الباحث بفضل ما يشاهده وما يحصــل عليـــه من زيارة المؤسسات والجماعات والروابط وما يطلبه بنفسه ، أن يقرر طائفة من المعلومات اليقينية . هذا ، وقد يكون للملاحظة العشوائية (أى للصدفة المحضة) الفضل فى الحصول على بيانات مفيدة لم يسع الباحث فى الحصول عليها ولم تكن فى تقديره أو حسبانه .

رابعا : نقد البيانات الاحصائية

يجب أن تحاط عملية جمع البيانات بكثير من الحذر والانتباه ، وأن تكون مقرونة بالميل الى النقد والتحليل .

ويتطرق الفساد الى البيانات الاحصائية من منفذين :

أحدهما : سوء القصد والنية فى الادلاء بالبيانات . ومرد ذلك الى خــوف الافراد من تقرير الواقع . مثل خوفهم من التصريح بقيمة دخولهم الخاصـــة تهربا من زيادة الضرائب المفروضة عليهم . وخوفهم من التصريح بعــدد أفراد أسرهم خشية أن تخفض كميات التموين التى تصرف لهم شهريا .

ثانيا : الجهل بقيمة عملية الاحصاء والاستخفاف بمن يقومون بها . وهذا يؤدى الى التخبط فى البيانات وعدم استيفائها على النحو المرغوب فيه .

ولتجنب الاخطاء الاول يجب اختيار نماذج من الحالات واعادة جمع البيانات بصددها ومقارنة البيانات الاولى بالثانية . وفى ضوء هذه المقارنات يمكن كشف أسباب الخطأ المتعمد وسوء القصد .

خامسا : فرز البيانات وتبويبها

بعد جمع البيانات نجد فى أغلب الاحيان انها من الكثرة بحيث يستحيل فهم مغزاها أو استنتاج ما تتضمنه من حقائق . لهذا يجب فرز هذه البيانات وتبويبها وعرضها عرضا مبسطا يساعد على اكتشاف وادراك ما تتضمنه من انتظام وتتابع Uniformitier and sequences فمثلا قد يكون لدينا عدد كبير من الاستمارات بها بيانات عن درجة التعليم والسن ومدة الحياة الزوجية وعدد الاولاد وغير ذلك .

ومن الواضح أن قراءة هذه الاستمارات واحدة بعد الاخرى لا يمكن أن نلقى أى ضوء على هذه الظواهر المختلفة ولا تعطى أى فكرة عن العلاقات بينها . أما اذا فرزنا هذه الاستمارات وحصلنا منها على جداول احصائية فانه يكون من السهل تكوين فكرة مبدئية عن هذه الظواهر وما قد يكون بينها من علاقة أو ارتباط .

سادسا : عملية تحليل البيانات

ترتكز هذه العملية على وضع الفروض وتحليل البيانات السابقة تحليلا استنتاجيا ويتخذ التحليل شكلين :

التحليل الكيفى " Quan itative " ويلجأ الباحث فيه الى نقد الحقائق وعقد المقارنات وايجاد المستويات العامة ووضع الفروض المفسرة لسير الظاهرة موضوع الدراسة والبحث ، وصياغة القوانين فى صورة كيفية أى التعبير عنها بكلمات والفاظ .

والتحليل الكمى Quantitative ويلجأ فيه الباحث الى تفسير البيانات تفسيرا كميا ، بالاعداد والارقام مستخدما فى ذلك الطرق الرياضية الفنية فى ايجاد المتوسطات ويدخل فى هذا التحليل التعبير عن الظاهرة بالرسوم البيانية والهندسية وما اليها ويجب أن يتناول التحليل الاعتبارات الاتية :

١ ـــ تحديد طبيعة الظاهرة فى ضوء الاحصاءات والبيانات التى استخدمت فى خطوات البحث .

٢ ـــ محاولة كشف العوامل المؤثرة فى تحسين الظاهرة والارتقاء بها .

٣ ـــ دراسة أفضل الطرق التى ينبغى الالتجاء اليها للتخلص من العوامل الضارة التى تصل على زيادة خطر الظاهرة موضوع الدراسة .

٤ — يجب على الباحث أن يوسع دائرة مقارناته ولا بأس من أن يستأنس بالاحصاءات القومية والدولية التى تتصل بموضوع بحثه .

٥ — يجب على الباحث أن يكون موضوعيا ، أى يجب عليه الاعتماد على البيانات الثابتة والحقائق الموضوعية المستقاة من حقل التجربة أو من ميدان البحث فلا يغرق فى فرض الفروض النظرية ولا يحمل الحقائق أكثر مما تحتمل .

سابعا : وضع تقرير عن موضوع البحث

بعد أن يفرغ الباحث من دراساته ، يجب عليه أن يدون تقريرا ، بغض النظر عما اذا كان البحث شخصيا او بتكليف من هيئات خاصة ليست لها صفة رسمية أو بتكليف رسمى من السلطات القائمة وعليه أن يراعى استهلال التقرير بالحاجة الى دراسة المشكلة أو الظاهرة او البيئة التى يعمل فيها ويشرح الغايات والاهداف المرجوة من الدراسة والبحث . ثم يعرض للصعوبات التى صادفته فى الميدان أو فى حقل التجارب والى أى حد استطاع تذليلها والجهود التى بذلها فى هذا الصدد .

ثم يدون النتائج التى وصل اليها مؤيدة بوثائقه ومستنداته واحصائاته ، ولا بد أن يصوغها صياغة علمية دقيقة .

٥ — البحث التجريبى

هناك فارق بين أسلوب البحث العلمى ومنهجه المجرد من جهة ، وبين تطبيق هذا المنهج أو غيره أو الاخذ بأكثر من منهج فى دراسة موضوع من الموضوعات .

وبصفة عامة يمكن أن نركز على المناهج العلمية المجردة أو الاساسية التى نلمسها ونأخذ بها فى كشف المشكلات العلمية التى تواجهنا .

أولا : — المنهج التجريبى : —

والتجربة أو التجريب فى الحياة العامة يعنى أو يعتمد على الوصول الى الصواب عن طريق الخطأ التجريبى بمعنى أن الانسان يجرب لانه ليست لديه فكرة مسبقة صائبة أو يقتنع بها عن الموضوع الذى يعالجه . وذلك حتى تهديه التجارب الى حل أو صواب يأخذ به .

أما التجربة أو التجريب العلمى الذى يهدف الى البحث عن الحقيقة فيختلف فى المضمون والمقومات . ولعلنا نذكر دور العرب الرائد فى مجال الاعتماد على التجريب للوصول الى الحقيقة العلمية حتى أخذ الغرب بهذا المنهج وأدخلوا عليه الكثير من الاضافات والتعديلات الهامة وهو ما جعل المنهج التجريبى يتمتع بدرجة عالية من الصدق والثبت .

التجريب بالمعنى العلمى : ـ

ويعنى قياس تأثير موقف معين أو عامل معين على ظاهرة معينة . أى دراسة حالة واحدة تحت متغيرات متعددة . وهذه الحالة الواحدة هى الفرض العلمى ـ كما تحدثنا عنه ـ ثم يلاحظ الباحث نتائج هذا التعريض أو المؤثرات التى تتم بطريقة خاصة وقصد معين . وأخيرا يقوم بتحليلها بهدف التثبت من صحة الفرض العلمى أساسا وكشف العلاقات السببية التى تحدد وظيفة كل عوامل الحالة المتفاعلة .

مبادىء البحث التجريبى : ـ

ومن أبرز من تعرض لتحديد هذه المبادىء « جون ستيوارت ميل » فى كتابه A system of Logic الذى يمكن ترجمته باسم « طريق الى المنطق » وقد توصل الى مبادىء خمسة فى هذا الصدد التى تشكل قواعد البحث التجريبى والتى تستند الى ربط السبب بالنتيجة وتمتاز بمرونتها فى هذا الصدد .

المبدأ الاول : طريقة التوافق : ـ

أى مقارنة الامثلة المختلفة التى تحدث فيها الظاهرة . فاذا اشتركت الظروف المؤدية الى واقعة ما فى عامل من العوامل وتكرر هذا فى كل مرة عند حدوث هذه الظروف . فيحتمل أن يكون هذا هو سبب الظاهرة . وما دامت هذه الظاهرة لا تحدث دون وجوده . فالعامل المشترك بين وقائع معينة قد يكون مفتاحا لكشف أسبابها ويتطلب هذا وعيا كبيرا بالنسبة لفصل العوامل الاخرى المختلفة ـ لمعرفة هذا العامل المشترك . ولعل العلوم الاجتماعية والسلوكية الانسانية تقتضى اليقظة عند كشف عواملها المشتركة أى أنه لا يمكن أن يكون أى شىء سببا فى حدوث ظاهرة معينة أن تحدث هذه الظاهرة دون وجوده وعلى الباحث هنا أن يفرق بين السبب الظاهرى للواقعة والسبب الحقيقى لتفسيرها .

مثـال :

أ ـ الوباء الناتج عن شراء فراء رخيص الثمن ونشره للعدوى بين السيدات .

ب — جرحى الحرب شفوا بافراز يرقات الذباب الذى عفى على جروحهم صدفة وليس بأن الذباب وضع يرقاته كسبب ظاهرى . الافراز سبب حقيقى واليرقات سبب ظاهرى .

ثانيا : — طريقة التباين : —

ويعنى أن لو تشابهت مجموعتان او أكثر من الوقائع فى الظروف المحيطة بها من جميع الاوجه ما عدا عامل واحد . فمن المحتمل أن يكون هذا العامل هو السبب فى النتيجة . أى أن أى شىء لا يمكن أن يكون سببا لظاهرة ما ولا تحدث هذه الظاهرة فى حالة وجوده .

وعلى أية حال فقد وجه البعض انتقادات الى طريقة التباين هـــذه على أساس أن بعض العوامل الاخرى قد تتدخل فى صنع النتائج . وخاصـــــة فى الدراسات التى تجرى على الافراد أو الاحياء من الكائنات بصفة عامـــة ممـــا يؤدى الى صعوبة عزل العوامل المتداخلة .

ورغم وجاهة هذا الاعتراض فان كثيرا من البحوث الحديثة تعتمد عليــه وتتغلب على هذه الثغرة بواسطة استخدام أعداد كبيرة أو عينات كبيرة فى البحث واستخدام طرق التحليل لمعاملاتها المختلفة (التحليل العاملى) .

ثالثا : — الطريقة المشتركة : —

وتجمع بين طريقة التوافق وطريقة التباين معا .. وذلك بما يمكن معــه تفادى الانتقادات التى توجه الى أى من الطريقتين وقد سماها « ميل »
Ioint Method

والطريقة المشتركة تبدأ أولا بطريقة التوافق للبحث عن العامل المشترك ثم الطريقة المتباينة للبحث عن العامل الاستثنائى غير المشترك بما يسمح بمراقبة العوامل التى يحتمل ان تؤثر فى النتيجة .

(امثلة لقد استخدم لويس باستير هذا الاسلوب فى تجاربه الخاصـــة عن المادة العضوية فى الجراثيم والاتربة والهواء الناقل للجراثيم) .

رابعا : طريقة المتخلفات : —

وتستخدم بعد فشل الطرق الثلاثة السابقة على أســاس أنه اذا كانت هناك ظاهرة ذات ثلاث جوانب أو أربعة مثلا وعرفنا العوامل المسببة لهـــذه

الجوانب فان معرفة الاسباب الثلاث لجوانب ثلاثة أو لعدة جوانب منها يعنى أن السبب المتخلف هــو الذى يفسر الجانب المتخلف المقابل بعد حذف الجوانب الاخرى وأسبابها .

خامسا : طريقة المتغيرات المتلازمة : ـــ

وتصلح هذه الطريقة فى الحالات التى يفشل فيها استخدام الطرق التجريبية السابقة وتتلخص فى أنه عند تغير شيئين أو ظاهرتين بصفة متوافقة أو متلاحقة فان المتغيرات التى تحدث فى احداها سببها التغيرات التى تحدث فى الاخــرى واما أن التغير الذى يحدث فى كليهما نتيجة عامل مشترك بينهما .

ويطبق هذا المنهج فى الحالات التى يتعذر معها اخضاع عامل من عوامــل الظاهرة للتجريب مثلا كما هو الحال عند تفسيرنا لتاثير جاذبية القمر على ظاهرة المد والجزر مثلا حيث لا يمكن اخضاع القمر للتجربة وهنا لا تصلح طريقة التباين أو التوافق وما بينهما .

ولذلك تصبح طريقة التغيرات هى المثلى .. عندما نقارن مثلا المتغيرات التى تحدث فى عملية المد والجزر بالمتغيرات فى موقع القمر بالنسبة للارض مثلا .. فقد تكون سببا لبعضها البعض وأن تكون المتغيرات هنا وهناك ترجع لعامل آخر مشترك بينهما واذا كان هذا المبدأ الخاص يعتمد على الملاحظة وليس على التجربة فان هذا لا يبعدنا عن المذهب التجريبى اذ قد يكون هدف بعض التجارب معرفة مدى العلاقة بين تلازم المتغير فى ظاهرتين معينتين وبصفة عامة .. فان مبادىء « ميل » التجريبية الخمسة تتعلق بالعلاقة بين السبب والنتيجة .

واذا كان التجريب فى مضمونه العــام .. كما ذكرنا ـــ هو معرفة مدى تاثير عامل أو عدة عوامل على ظاهره معينة فان العامل المراد معرفة تأثيره يسمى ـــ العامل المستقل ـــ ووقائع الظاهرة المتأثرة بهذا العامل تسمى « المتغيرات المعتمدة » أى التى تعتمد على العامل المستقل فى حدوثها .

على انه من جهة أخرى فانه ليس من السهل تعميم التجــارب بالشــكل الذى أوضحناه وبما يفصل العوامل المتداخلة مع العامل المســتقل (بشــكل دقيق) « وبالذات فى العلوم الاجتماعية والسلوكية كما أشرنا وما يعنيه ذلك من ضرورة التحــكم فى العوامل المراد تأثيرها بدقة كركيزة علمية اساسية .

وتعرض فيما يلى الصعوبات التى تقابل المنهج التجريبى فى مجـــالات وظواهر الحياة المختلفـــة بما يمكن معه أن تضمن أقرب النتـــائج العلميـــة الى الحقيقـــة .

١ ـ التجارب المعملية :

وقد برزت فـــكرة المعمل أصـــلا لضمان خلق منـــاخ مناسب يتم فيـــه التحكم فى التأثيرات الخارجية المشوشـــة وعزلهـــا عن المتغيرات المختلفـــــة وبحيث يتم تجهيز المعمل بالاجهـــزة والمعـــدات والمقاييس الدقيقـــة والكافيـــة وان كان التجهيز لا يعنى بالضرورة نجاح التجربة . بل المهم الالتزام بالقواعـــد العلمية . حتى ولو كانت الاجهزة مبسطة وأن يكون الباحث مدربا واسع التصرف والحيلة . ويعنى بكل ذلك .. المهم هـــو الانسان ؛ وانه لا غنى عنه مهما اختصرت الآلة ولم تعـــد الحاجة اليـــه .. ونعنى بالانســـان هنـــا فى البحث العلمى « العقل البشرى » هذا وان اقتضت بعض التجـــارب تجهيزات وأدوات بذاتهـــا .

أمثلة :أ ـ ومن ذلك ضرورة اســـتخدام جهـــاز تصوير حركة العين اثناء القراءة لاكتشاف أفضل الوسائل للقراءة .

ب ـ توفير أجهزة العرض الملون فى البحث عن ارتباط المشـــــاهد بالعروض العـــادية والملونة أو توفير النصوص المعينـــة من خـــلال وســـيلة اعـــلام بذاتهـــا لمعرفـــة مدى تأثيرها على الجمهور .

ومن الجدير بالذكـــر هنا أن هنـــاك ارتباطا كبيرا بين الاعـــداد المعملى السليم للتجربة وبين فروض البحث بذاتهـــا . كما أن بعض المشـــكلات المعقدة تتطلب تقنيات وحدات دقيقة وبالذات بالنسبة للعلوم الطبيعية .

أمثلة : الاجهزة الخاصـــة بقياس سرعـــة الضـــوء بالنسبة لحركـــة الارض فى الاثير كما تتحرك السفينة فى البحر .

هذا وان كان التجريب المعملى فى مجال العلوم الاجتماعية والســـلوكية لم يبدأ الا فى الربـــع الاخير من الزمن الماضى عندما أنشـــأ العالم الالمانى فونت Wunpr عام ١٨٩٧ أول معمل لعلم النفس وان التجريب المعملى فى السلوك الاجتماعى والاعلامى لم يتكثف الا بعد الربـــع الاول من القرن الحالى . وقـــد زاد الاعتماد عليـــه الآن بين علماء المعارف الاجتماعية والانسانية .

المنهج التجريبى فى دراســـة المواقف الاجتماعية والاشخاص :

وقـــد دخل المنهج التجريبى مجال العلوم الاجتماعية والاعلاميـــة متأخـــرا عن العلوم الطبيعيـــة ويرجع هذا فيما يبدو لسببين :

١ ـ وجود معظم العلوم الاجتماعية ضمن فروع الفلسفة وعلى ذلك كانت تعتمد على ما تعتمد عليه الفلسفة فى طريقة التأمل والقياس لبلوغ حقيقتها .

٢ ـ صعوبة التحكم فى العوامل المتداخلة التى تتألف فيها الظواهر الاجتماعية والنفسية لدرجة التحكم فى العلوم الطبيعية .. هذا وان كانت مهارة الباحث التجريبى تخفف من هذا التداخل الا انها لا تقضى عليه تماما .

أما بالنسبة للاشخاص على وجه التحديد :

فانه يكاد أن يكون اخضاع بعض الحالات الخاصة بالافراد فى المجال النفسى أمرا مستحيلا . وقد يرجع ذلك أيضا لسببين :

١ ـ التدخل فى الحرية الشخصية وضمانها للفرد . وما فى ذلك من اهدار للحقوق الانسانية .

مثال : ان نطلب من الافراد الموسميين تعاطى المخدرات أو دعوتهم للانحراف العاطفى لقياس تأثير ذلك على سلوكهم .

٢ ـ خطورة اجراء او تحقيق بعض الفروض العلمية فى المنهج التجريبى على صحة الافراد مثلا .

أمثلة : لا يصح ان نصيب فردا بمرض للتجربة عليه . كاستئصال المعدة وبعض أعصاب المخ لدراسة من أين أو أسباب احساس الانسان بالجوع . ومن هنا اتجه الباحث الى الحيوان .

هذا وان كانت حيوانات التجارب تحل الاشكال فى العلوم الطبيعية الا أنه لا توجد حيوانات تجارب اجتماعية ونفسية واعلامية تحل الاشكال الى حد كبير فى مجال العلوم الاجتماعية . ولعل هذا يكون سببا أيضا فى المعارضة التى تعرضت لها هذه العلوم الاجتماعية لفترة ما فى الثلاثينات من القرن العشرين الى أن استعانت هذه العلوم الاجتماعية منهجها التجريبى بعد منتصف هذا القرن .

وهذا هو ما يدعو الى ضرورة توافر مهارة خاصة فى باحث العلوم الاجتماعية وضرورة توخى مستوى أكاديميا مرتفعا .

واذا أردنا أن نضع المنهج التجريبى بالمعنى الذى أشرنا اليه فى معادلة موجزة وسهلة يمكن القول بأن علاقة المتغيرات المعتمدة **بالمتغيرات المستقلة هى :**

المتغير المعتمد « عوامل الظاهرة » = وظيفة العامل المتغير : أو المتغيرات المستقلة أو المؤثرة .

ويطلق على المتغير المعتمد DEPENDANT VARIABLE

أى العامل المراد قياسه أو الظاهرة أو الوقائع موضوع الدراسة .

ويطلق على العامل المستقل INDEPENDANT VARIABLE

ويطلق على المتغيرات المتداخلة أو المعترضة

INTERVENING VARIABIES

أى أن الظاهرة يعتمد تطورها على تأثير المتغيرات المستقلة . والمتغير المستقل او المؤثر تتمثل صعوبته فى تحديد عناصره المختلفة . وليس فى تحديده ذاته فالجديد فى دراسة موضوع من الموضوعات ليس الموضوع ذاته ولكن فرعياته او تفصيلاته الدقيقة وعناصره المختلفة .

ولكى نحدد ذلك أو نصل الى الجديد يلزم أن يلم الباحث ويطلع على الابحاث السابقة وكل ما كتب ما أمكنه ذلك حول موضوعه .

والدراسات الاجتماعية والمعارف العامة ومنها الصحافة والاعلام تتداخل عناصرها وتخضع لاكثر من عامل مؤثر مستقل وقد تتضمن المشكلة موضوع البحث عدة عوامل يصعب فصلها فصلا كاملا وقد أمكن التغلب على تحديد عوامل المشكلة بطريقة تحليل تأثير كل عامل من عوامل الظاهرة أو على الحقائق المختلفة التى تسفر عنها التجربة وهو ما أطلق عليه بعض الباحثين التحليل العاملى — ويمكن ايضاحه أكثر باسم « التحليل العملى للنتائج » أو تحليل نواتج العوامل .

ثانيا : — بين المتغيرات المعتمدة الظاهرة وفروض البحث : —

والفرق بين المتغيرات المعتمدة وفروض البحث . . أن الاولى تمثل الظاهرة وعواملها المتغيرة بشكل عام . . أما الثانية فتمثل العامل أو العوامل المراد قياسها بشكل خاص . . كما أن فروض البحث هى التى تحدد نوعية المنهج العلمى للدراسة ومسألة اختيار مشكلة البحث أو الظاهرة موضوع الدراسة أو المتغيرات المعتمدة يمكن تحديدها بوسيلتين : —

١ — وسيلة نظرية : —

التركيز على متغير أو عنصر واحد من عناصر المشكلة .

٢ ـ وسيلة اجرائية أو عملية :

توفير وسائل أو أجهزة قياس دقيقة لقياس التغيرات الحادثة فى الظاهرة موضوع البحث .

ولعل بعض طلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) يواجهون صعوبة فى ذلك لما يتطلبه مثل هذه البحاث من فنيين أو عمالة أو انفاقات باهظة أحيانا .

وجدير بالذكر أن الباحث قد يخضع الظاهرة أو المشكلة لمتغير مستقل أو أكثر . وقد تخضع التجربة أو المشكلة لاكثر من متغير مستقل أو لاكثر من مؤثر بما يمكن القول معه بأن العوامل أو المؤثرات المتداخلة ما هى الا عوامل أو مؤثرات مستقلة يقوم الباحث بتحديد تأثيراتها على حده . ولذا أطلق عليها بعض الباحثين المؤثرات أو المتغيرات التجريبية عموما .

ويلزم هنا أن يكون الباحث على يقظة تامة بالنسبة لتحديد مدى ارتباط كل مؤثر أو متغير مستقل بالظاهرة حتى لا تتداخل التأثيرات ويصعب بالتالى تحديد المؤثرات .

والمخلفات الاثرية بمثابة وثيقة غير مكتوبة ولكنها ملموسة . فهى أشبه بالنص أو الرسالة المكتوبة القديمة « فالتصميمات المعبية » تعكس ثراء المسرح ووجود اعداد صحيفة قديمة يعكس الى جانب الاستشهاد لصلب مادتها وشكلها الاخراجى والطباعى الذى يمكن الاعتماد عليه فى توثيق حكمنا على تطورها وكذلك بالنسبة للمخلفات الاثرية والمتحفية تساعد فى دراسة السير والتراجم والتقييم المادى الملموس عموما . حتى فى مجال العلوم فمخلفات الصخور القديمة مثلا تساعد على دراسة طبيعة التربة .

أمثلة : ـ اذا أردنا مثلا تحديد الميول القرائية وتأثرها بمستوى التعليم والسن . وجب أن نضع فى اعتبارنا المؤثرات أو العوامل المستقلة الاخرى بل تعمل على تثبيتها بالنسبة لمستوى التعليم والمستوى الاقتصادى وطبيعة البيئة والتراث الثقافى وما الى ذلك .

دراسة المجاميع ونوعياتها فى الدراسات التجريبية والاعلامية .

وتتمثل فى ثلاثة أنواع : ـ

١ ـ المجموعة الواحدة :

أى حالة أو ظاهرة أو مشكلة واحدة مع اجراء تجربة سابقة وأخرى لاحقة

عليها وذلك بتثبيت جميع عوامل المشكلة ثم اخضاعها لمؤثر واحد مع اجـــراء اختبار قبل التعريض للمؤثر .. واختبار آخر بعض التعريض لنفس المؤثر . ثم مقارنة النتيجتين معاً .

ومن أمثلة ذلك : مقياس معايير القراءة كأن تعلم الطلبة اسلوبا خاصـا فى تحصيل المادة المقروءة فنعرضهم لهذا الاسلوب المؤثر . مع اجـراء الاختبار بين السابقتين المشار اليهما .

ويلزم ــ كما أشرنا ــ رغم بساطة هذا الاسلوب التجريبى الحرص على عدم تداخل المؤثرات المختلفة .

ومن أوضح الامثلة على ذلك أن يتقدم تحصيل الطالب للقراءة ليس بسبب ما تأتى به طريقة التحصيل الجديدة ولكن لسبب خارجى تماما وهو كفاءة الدرس فى شرحها وحب الطلبة له شخصيا أوحى لهم للطريقة الجديدة .

٢ ــ المجموعة المتكافئة :

ونعنى بها اجراء التجارب على ظاهرتين أو حالتين أو مجموعتين متكافئتين فى كل الظروف وليس على ظاهــرة واحــدة والتجربة تعنى تعريض الظاهرتين لمؤثر واحد . ثم قياس تأثيره عليهما بعد ذلك أى أن التجربة هنا تكون لاحقة فقط وليس سابقة ولاحقة معا .

وان توفير هذا التكافؤ لا يتيسر كثيرا . ويلجأ الباحث الى عوامل مساعدة تعينه على تحقيق أكبر قدر ممكن من التكافؤ .. عن طريق الوسائل الاحصائية والمعلومات الخاصة السابقة بكل مجموعة .

ويطلق على احدى هاتين المجموعتين المجموعة التجريبية ــ التى تخضع لتأثير المؤثر .. ويطلق على المجموعة الاخرى المجموعة الضابطة ويقـارن بين المجموعتين بعد ذلك . أى أن مجموعة واحدة فقط هى التى تخضع للعـــامل المستقل أو المؤثر والاخرى للمقارنة أو الضبط والتغيير الناتج هنا يخضـــع للعامل المستقل المؤثر .

أمثلة : ــ اختبار طريقة جديدة لسرعة الكتابة على الآلة الكاتبة مجموعـة على الطريقة القديمة « ضابطة » وأخرى « تجريبية » على الطريقة الحديثـة « المؤثر » ثم المقارنة .

ولعل من مشاكل البحث التجريبى ــ فى المجموعة المتكافئة ــ أنه يصعب

تماما الحصول على مجموعتين انسانيتين متوازنتين لمجرد أن عدد الافراد واحد مثلا ذلك أنه يلزم قدر الامكان اختبار تكافؤ الافراد فى القدرات الخاصة باستخدام اختبار ذكاء مثلا .. وكذلك مدى تحصيل كل واحد من المجموعتين ولذلك يمثل هذا صعوبة رئيسية أو أزمة وليست صعوبة معقدة فحسب .

ومن مصاعب هذه المجموعات المتكافئة أيضا ضرورة أن يكون أفراد المجموعتين من الذين يمكن الوثوق بالمعلومات التى يمدوننا بها كما يلزم أن يكون عددهم معقولا بما يتناسب مع قدرة الباحث على الحصر والمتابعة ولكن ليس بالعدد الكبير جدا التى لا يمكن تناولها بصورة دقيقة . وليس بالعدد الصغير الذى يصعب قبولها كنتائج موثوق بها بما يتطلب تكرار التجربة مرات عديدة .

المجموعة الدائرية (أى أكثر من مجموعة)

ويعنى هذا الاسلوب استخدام مجموعات تجريبية وليس مجموعتين فقط . وهو ما يؤدى الى تحاشى الكثير من الاخطاء المصاحبة لطريقة المجموعة الواحدة وطريقة المجموعة المتوازية أو المتكافئة وبذلك تصبح كل مجموعة داخلة فى الدراسة مجموعة تجريبية وضابطة فى نفس الوقت .

وقد لا يلزم هنا التدقيق الكامل لضرورة تكافؤ هذه المجموعات الدائرية بنفس الدرجة المستخدمة فى الطريقة المتكافئة . ذلك أن تعدد المجموعات التجريبية يقوم بدور المراجعة المستمرة لتفادى الاخطاء والتداخلات . هذا ويمكن — من جهة أخرى تقسيم المجموعة الواحدة الى مجموعات دائرية اى الى اكثر من مجموعة داخل المجموعة الكلية وتعريضها للعامل المستقل « المؤثر » فى أوقات أو ظروف مختلفة .

محاذير هامة فى المنهج التجريبى : —

١ — يجب ألا يميل الباحث الى سرعة الثقة فى النتائج التى يحصل عليها بل يلزم تكرار التجربة للتأكد من نفس النتيجة وتلافى الاخطاء التى قد يكون قد وقع فيها .

٢ — قد يكون الخطأ الناتج فى تكرار التجربة راجعا الى عدم دقة الاجهزة المستخدمة فى قياس التجربة أو قوانينها ومقاييسها الاساسية . وقد يوجد فى الافراد الخاضعين للتجربة كما توجد فى الكيماويات المستخدمة فى تجارب العلوم الطبيعية .

٣ — يلزم هنا أن يتعرف الباحث على جميع العوامل المتغيرة التى قد تؤثر فى نتائج تجربة ما .

٤ — وتتمثل صعوبة عزل هذه المتغيرات فى التجارب الذى تجرى على الاشخاص فلو أجريت تجربة على شخص ما فى فترة تمتد شهر مثلا .. فمن يضمن لنا أن الفرد لم تتغير ظروفه خلال هذه الفترة .. كما يصعب مراقبة الافراد للمحافظة على نفس الظروف اللازمة لاجراء التجربة .

٥ — اذا كان من المستحيل عزل كل المؤثرات على تجارب الافراد فانه يلزم متابعة المتغيرات ذات التأثيرات الجذرية وعزلها . ولا خوف اذن من ترك المتغيرات ذات التأثير الواضح .

٦ — عدم الانزلاق الى تعميمات غير وثيقة . ومن ذلك اجراء تجارب على الحيوان مثل القدرة على التعلم وتعميمها بلا تحفظ على الانسان .

٧ — الدقة فى اختيار عينة البحث ومدى تمثيلها لمجتمع البحث كعينة الاطفال فى مدرسة من المدارس .

مثال : —

اثر اعطاء اللبن فى المدارس على التلاميذ وسوء الاختيار للعينة بين التلاميذ الاغنياء والفقراء .

٨ — وضع قدرة الانسان على الايحاء أو حماس الباحث وحماس افراد العينة غير العادى فى الاعتبار .. بما يحقق نتائج غير مضمونة دائمة أو نتائج متميزة .

٩ — يلزم الا يوحى الباحث لافراد العينة الافتراضية العلمية التى يقوم باختبارها . أو بما يصبغ استجابته بصبغة معينة .

وواضح أن المحاذير التى سقناها هنا بالنسبة للتجارب التى تجرى على الافراد وسلوكهم تتصل تماما بالمحاذير التى يلزم أن يتنبه اليها الباحث الاعلامى وهو يجرى تجاربه واستقاءاته ويحقق افتراضاته العلمية فى الدراسة العلمية الاعلامية التى يقوم بها .

تصميم تجربة البحث العلمى : —

يلزم لاى باحث علمى عموما أو اعلامى خصوصا ان يضع تصميما كاملا يشتمل على جميع الخطوات التى يمر بها البحث ونوع المنهج العلمى ...

والادوات المستخدمة .. من حيث العينة أو المكان .. أو الزمان .. ونوع البيانات المطلوبة لاختبار الفروض . والتصميم الاحصائى أى الطريقة الاحصائية المطلوب استخدامها .. والتصميم الميدانى ويعنى تصميم مواقف الملاحظة .

والتصميم الاجرائى أو التنفيذى ويقصد به ترجمة القرارات التى أتخذت فى مراحل التصميم السابقة الى وسائل واجراءات فعلية لقياس الظاهرة موضوع البحث .

هذا مع العلم فان تحديد صياغة الفرض يتطلب تعريف اصطلاحاته تعريفا اجرائيا .

كما يجب فى حالات التجريب على الافراد اعداد العينة اعدادا نفسيا للموقف التجريبى العناية الخاصة فى وضع التعليمات التى تجرى عليهم أثناء التجربة .

تسجيل البحث : ـ

ان التسجيل الجيد يمدنا بمعلومات تساعد على اثارة مشاكل جديدة وتغير فى النظريات القائمة .. والتسجيل هو وسيلة الاتصال العلمى بين المتخصصين .

وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار هذه الخطوات ونحن نسجل بحوثنا : ـ

١ ـ عرض موجز لما نشر عن الموضوع .

٢ ـ نوع العينة المستعملة والاجهزة والادوات والطريقة التى سار عليها البحث .

٣ ـ عرض النتائج التى حصل عليها الباحث .

٤ ـ مناقشة نتائج البحث .

٥ ـ الملخص العام للبحث .

٦ ـ قائمة المراجع المستخدمة فى البحث .

٥ ـ تحليل المضمون

يعد تحليل المضمون أداة رئيسية من أدوات البحث الاعلامى وقد استخدمت هذه الاداة المنهجية فى البحوث الاعلامية بهدف الكشف عن مضمون أجهـــزة الاعلام . وما تثيره هذه الاجهزة من قيم وأفكار ، ولقد ثار جدل بين الدارســين حول التكييف المنهجى لتحليل المضمون ، هل هو منهج يفى بمتطلبـــات البحث العلمى ، أم هو أداة أو أسلوب . فهناك من يرى أن تحليل المضمون منهج من مناهج البحث العلمى ، والبعض الاخر يرى أن تحليل المضمون أداة من أدوات جمع البيانات ، وفريق ثالث يذهب الى ان تحليل المضمون أسلوب من أســـاليب البحث يقف وسطا ، فهو لا يرقى الى مســـتوى المنهج ، كما انه لا يهبـــط الى مستوى الاداة .

ولعل أبرز تعريف يطالعنا فى مجال تحليل المضمون هو التعريف الذى قدمه بيرلسون Berelson حيث عرفه :

« بانه أسلوب بحثى للوصف الموضوعى والنســـقى والكمى للمضمون الظاهر لعملية الاتصال » .

وهذا التعريف يحدد المضمون الظاهر لعملية الاتصال باعتباره مجـــال الاهتمام الملائم لمن يقـــوم بتحليل المضمون ، ونفس هذا الموقف يردده كثير من البـــاحثين أمثـــال بـــود Budd وثورب ودونوهيو Thorp and Donohew حيث أوضحوا : « ان تحليل المضمون هو أسلوب منظم لتحليل مضمون الرسالة ومعالجة الرسالة ـ فهو يشكل أداة المشاهدة وتحليل سلوك الاتصال الواضح لمن يقومون بعملية الاتصال الذين تم اختيارهم » .

ومع ذلك ، فسوف يلاحظ ان هذا التعريف الاخير أكثر رحابة من تعريف بيرلسون ، من حيث انه يشير الى عملية معالجة الرسالة كموضوع منـــاسب للتحليل . بل أن التعريف الذى يقدمه هولستاى Holsti يتسع أكثـــر بحذفه لاى اشارة عن المضمون « الظاهر » أو « الواضح » ومن ثم يســـمح بامكانية ما قد يظهر للمحلل من رغبة لتناول السمات الكاملة أو الضمنية الخاصة بمضمون الاتصال موضع الدراســة ، فهو يقول .

« ان تحليل المضمون هو أى أسلوب فنى للاستقراء بتحديد خصـــائص الصفات المحددة للرسائل بطريقة موضوعية ونسقية »

ولسنا هنا فى مجال حصر شامل لما قدم من تعريفات فى مجال تحليـــل

المضمون وتقييم هذه التعريفات ، وانما ما نريده ، هو تقديم عرض محدد للسمات البـارزة التى تشـكل الاسس التى يقوم عليها المدخل . وقد قدم هولستـاى السمات الخاصة بهذا الاسلوب تحت ثلاثة عناوين هى الموضوعية ، التنظيـم ، والعمومية .

وما يطلبه هولستاى من الموضوعية يشترط أن اجراء البحث يجب أن يعتمد على « قواعد واجراءات ذات صياغة واضحة » . وهـذا يعنى أن ابواب التوصيف يجب تعريفها بشكل واضح مقدما ، وان تميز عن بعضها بدرجـة فعالة ، وأن مخطط التصنيف بمجرد أن يتم وضعه ، لا بد من طرح القواعـد واضحة لتخصيص عناصر المضمون (الكلمات ، الموضوعات .. الخ) بأبواب معينة . بعبارة أخرى ، أن هناك محاولة تتم للتقليل الى أدنى حد من الجوانب الشخصية فى فحص المحلل لوثيقة معينة .

ومن ناحية المطلب الخاص بان يكون التحليل منظما يعنى أن تحديد عناصر المضمون بتبويبات معينة يجب أن يتم وفقا لقواعد تطبق بشكل مناسب . أى أن من يقوم بعملية التحليل يجب أن يسمى عناصر أو وحدات المضمون بشكل مناسب ، لكى يتجنب افساد بياناته بالتحيز .

أما مطلب العمومية ، فهو ليس أقل اهمية من سابقيه ، على الرغم من أن له مغزى مختلف فهو ليس بالمطلب التقنى فى تحليل المضمون فى حد ذاته ، بـل هو أقرب لان يكون متطلب فى تحليل المضمون كأسلوب فنى للبحث فى نطـاق العلوم الاجتماعية . وباختصار ، هذا المطلب يحتاج أن يكون التحليل موصول بـ أو جزء من ، عملية أوسع للتنظيم حول العمليات الاجتماعية ، وهذا يوحى بأن وصف المضمون « الظاهر » أو « الواضح » من الصعب النظر اليه فى حد ذاته باعتباره نقطة النهاية فى الدراسة بل الاصح أن هذه الاوصاف لا يمكن أن يكون لها معنى الا فقط فى حدود اطار للتصور مكتمل الدقة بشكل ملائم . وبصفة عامة ينبغى أن نفهم أن المخطط السابق لا يذكر بصراحة ما هو اكثر السمات البارزة لتحليل المضمون ، وهو ما ينتج عنه من بيانات « كمية » .

وأيا كانت طبيعة سمات تحليل المضمون التى يؤكد عليها « هولستاى » فاننا نميل الى تعريف تحليل المضمون بأنه « طريقة من طرق البحث تستخدم فى الدراسات الاعلامية كأداة لجمع البيانات ، واستخدام لتحليل محتوى الرسائل الاعلامية » . وسوف نكتفى هنا بعرض بعض الجوانب المتصلة بهذه الطريقـة كتصميم البحث ، وتحديد العينة ، وتحليل البيانات ، ثم مناقشة بعض التطبيقات فى مجال تحليل المضمون .

١ ـ تصميم البحث :

هذه الخطوة المبدأية فى سياق العمل تتضمن وضع « خطة رئيسية » لمشروع البحث فى ذهن الباحث . ففى هذه المرحلة لا بد للباحث .ن أن يجلى ليس فقط المسألة أو المسائل التى يسعى للاجابة عليها ، بل عليه أيضا أن يجلى طبيعة البحث التجريبى الذى ينوى القيام به لكى يضع نفسه أمام المشكلة المعروضة . وبهذا ، يكون الغرض من التصميم أكثر من مجرد تصنيف لموضوع البحث ، بل هو أقرب لان يكون أيضا مخطط تتصل وتتسق فيه معا جميع الخطوات الاخرى فى عملية البحث . الاكثر من هذا ، أن جميع تصميمات البحث التى من هـــذا النوع ، كما يرى هولستاى ، تعتبر تصميمات « مقارنة » فى طبيعتها سواء بشكل ظاهر أو ضمنى . وهو فى الواقع يحدد مجالا كاملا من التصميمات لمقارنة التى تتوافر أمام الباحث .. ومن أمثلة ذلك ، أننا قد نرغب فى عقد مقارنة بين الرسائل القادمة من المصور « أ » فى الزمن ($ز_١$) والرسائل الناتجة عن نفس المصدر فى زمن لاحق ($ز_٢$) . هذه المقارنة قد تجىء على شكل فحص للمقالة الافتتاحية ، أو مضمون الاخبار فى صحيفة معينة فى أوقات مختلفة من الزمن . وبهذه الطريقة يمكن استخراج « تيارات » أو مسارات ذات مغزى فى مضمون الاتصال .

أو بدلا من ذلك ، من الممكن مقارنة الرسائل الناتجة عن المصدر أ فى حالة معينة ($ح_١$) برسائل ذلك المصدر فى حالة مختلفة ($ح_٢$) . فمثلا ، يمكن مقارنة التغطية الخبرية لزمن السلام وزمن الحرب فى صحيفة معينة ومقابلتها ببعضها ، ثم تبذل محاولة لتقويم وقع حالة معينة مثلا (كحالة الحرب) على مضمون ومعالجة الرسالة فى وسط معين من وسائط الاتصال .

ومع استمرار قيام المحلل بالتركيز على مصدر واحد فقط للرسالة ، فانه قد ينشد تقييم العلاقة بين المتغيرات المختلفة للمضمون وبعضها البعض ، فى الرسائل موضع الدراسة . فعلى سبيل المثال ، فى احدى التغطيات الخبـرية للجريمة فى صحيفة معينة ، قد يرغب المحلل فى بحث المدى الذى ترتبط به أنماط معينة من الاعتداء بأنماط معينة من المعتدين أو الضحايا .

وعلى العموم ، فمن الواضح تماما ، أن مدخل المقارنة فى حالات كثيرة سوف يشمل بحث المحلل عن أكثر من مجرد مصدر واحد للرسالة . ففى هذه الحـالة فاننا قد نرغب مقارنة المصدر أ بمصدر الرسالة ب من حيث واحدا أو أكثر من متغيرات المضمون . وبهذا فاننا قد نقوم بمقارنة مضمونى صحيفتان مختلفتان من حيث المقالة الافتتاحية ، التغطية الخبرية .. الخ . الاكثر من هذا ، أن هذا النوع من تصميم البحث قد يتضمن أيضا المقارنة أيضا بين مختلف أنماط وسائل الاتصال ، كتغطية الصحيفة مثلا لموضـــوع أو حادث معين ، وكذلك التغطيـــة التليفزيونية ..

وايا كانت طبيعة مدخل المقارنة الذى يأخذ به الباحث ، هناك قـــرار واحد له أهمية خاصة لا بد من اتخاذه فى وقت مبكر من عملية تصميم البحث . هذا القرار يتعلق بمسألة ما اذا كان البحث يجب النظر اليه على أنـــه بحث « تفســيرى » فى طبيعته (كالبحث عن وجـود سمات هامـــة لمضـــمون الصحافة) ، أم على انه اختيار لفرضية نظرية « يستهدف اختيار الصــياغات النظرية الواضحة التى تنطلق بهذا المضمون » .

٢ ـ تحديد العينة :

مع توافر حجم محدد من ناتج أجهزة الاعلام من الواضح تماما أن الباحث ، تحت الظروف العادية ، قد يضطر غالبا الى اللجوء الى التحليل المستفيض لعينة صغيرة فقط من المادة التى يهتم بها ، لان مدخل العينة يمكن أن يحقق نتـــائج مرضية . ولتحديد العينة ، هناك وسيلتان أساسيتان للقيام بذلك : (أ) لا بد للباحث أن يحدد بوضوح جماهير الموضوعات الصحفية التى يضع تقديراته لها ، و (ب) البنود التى تكون العينة التى ستخضع للتحليل المستفيض ، والتى على أساسها ستتم عمليات التقييم ، لا بد من اختيــارها عشوائيـــا من تلك الجماهير .

ولذلك ، لا بد لاسلوب الباحث فى تحديد العينة أن يجسم نسق ما يمكن أن يضفى هوية على كل عنصر فى الجماهير (كل مقالة تظهر فى عقد معين) ، ثـم بعدئذ يختار هذه العناصر عشوائيا ، لكى يمكن تجنب التحيز .

٣ ـ تحليل البيانات :

الفوائد :

ان من أكثــر الســمات اهمية لتحليل المضمون هى طبيعته « النسقية » ، وهى ما ينظر اليه على ان يشكل عنصر حمــاية حيوية ضد أنواع التحيز التى يمكن أن تنشأ من القراءة « الحدسية » أو « الذاتية » للوثيقة أو لمجموعــة الوثائق . وهنــا ، يضــع لاسويل ، وليرنر وبول أمامنا هـــذه التساؤلات الهامة :

> « هل يمكن أن نفترض أن الدارس يقوم بقراءة مصــادره بنفس الدرجة من العناية طوال بحثه ؟ هل يسمح لبصــره بالتجول عبر آلاف الصفحات التى تشمل الصحف والمجلات والمناقشات الاولية وغير ذلك من قائمة المصادر ؟ أم هـــو يستخدم نظام العينة فى تفحص بعض الصفحات بشكل مصطنع على الرغم من تركيزه على فترات معينة . هل كان نظام تحديد العينة بالنسبة لفرانكفورتر زايتونج يمـــكن مقارنته بذلك الخاص بمانشستر جارديان » .

لو كان تصميم البحث لدارسنا هذا قائم على اجراءات تحليل المضمون الشكلية ، فان هذه الاسئلة الجوهرية ، سوف يمكن الرد عليها جميعا بطريقة مثالية ، كما سيكون من السهل الحكم على عمله ونتائجه فى سياق المناهج والاجراءات الكامنة تحت نطاق هذه الاجراءات والفرضيات . الاكثر من ذلك ، أن تعديل المدخل لاستخدام « اجراءات العينة » القائم على نظرية احصائية دقيقة يجب أن يعنى ، اذا ما طبقت هذه الاجراءات بدقة ، أنه يمكن تحقيق استقراءات يعتمد عليها فيما يتعلق بمضمون قدر كبير جدا من ناتج الصحافة على أساس الدراسة المفصلة لاجزاء صغيرة جدا من النص الفعلى .

من المزايا الاخرى لهذا المدخل ، هو ما يتولد عنه من بيانات « نوعية » ، وهى بيانات ينظر اليها على أنها « أصعب » وأكثر « دقة » من التقويمات الذاتية البحتة .

أيضا الوظيفة « التفسيرية » لتحليل النص ، هى الاخرى احدى المزايا التى تقف فى صف المدخل . فعندما يكون ما لدى الباحث هو فقط مفاهيم غامضة وذاتية تتعلق بالسمات الهامة للنصوص التى يرغب فى دراستها ، فان تحليل المضمون ذو أسس ملائمة قد يتيح له القيام بتنقية وتوضيح أفكاره ، وبذلك يكون قد خطا خطوة نحو وضع اطار نظرى أكثر تماسكا وأفضل من حيث دقته واكتماله ، وهو الشىء الذى بدوره قد يعود به الى مصدر مادته وقد حصل على منظور أوضح عما هو ذلك الشىء بالضبط الذى يبحث عنه .

وأخيرا ، فان الطابع « غير الفضولى » لتحليل المضمون كاستراتيجية للبحث هو واحد من أقوى العوامل التى هى فى صالح المدخل . فالحقيقة بأن ما يريده المحلل هو عدم وجود اتصال مباشر على الاطلاق بواضعى النصوص التى يقوم بدراستها ، يعتبر ميزة ضخمة فى أى موقف (أ) حيث لا يكون مثل هذا الاتصال ميسرا ، أو (ب) حيث لا يكون مثل هذا الاتصال أمر مرغوبا ، وذلك خشية أن يكون وجود المحلل قد يؤثر على عملية أو مضمون الاتصال . فمثلا ، قد يكون هناك سلسلة كاملة من المواقف حيث الاتصال المباشر بالموضوع قد يكون مستحيلا لاسباب عملية . فقد تكون هناك حواجز اجتماعية أو نظامية لا يمكن التغلب عليها ، أو أن الباحث قد يكون منعزلا عن موضوعاته سواء من حيث المكان أو الزمان . ومع ذلك ، فباستخدام تحليل المضمون ، هذه المشاكل يمكن حلها ، بل وحتى المواد التاريخية يمكن ادخالها فى مشروع البحث .

بل وحتى أينما تتوافر القدرة على الدنو من الموضوعات ، فان محاولة دراسة المعتقدات ، والقيم ، والمعتقدات بتعمق كبير وللحظتها ، ربما فى حد ذاته

قد يعدل أو يؤثر على الآراء المطلوبة . فحيث أن تحليل المضمون يزيل بشكل فعال كافة « مؤثرات المراقب » التى غالباً ما يبتلى بها الشخص الذى يقوم بالعمل الميدانى ، وحيث أنه يسير بخطى المشاكل المتضمنة فى البحث والتى تحوى أى نوع من التفاعل بين الباحث والموضوع ، فان عدم الفضولية قد يكون أيضا هو الاساس لما يتمتع به هذا التكنيك من جاذبية شديده لرجل الاجتماع . ولذلك ، فان جميع المسائل التى تدخل فى نطاق الموضوع ، كالعلاقات مع السلطات أو بالموضوعات ، درجة وطبيعة مشاركة المراقب ، المسئوليات الاخلاقية تجاه المستجيبين ، الخ ، كلها أمور تطرح جانبا . والباحث الذى يستخدم مدخل تحليل المضمون فى دراسة الصحافة ، مثلا ، فانه ببساطة يوجه نفسه لكم من المواد الوثائقية التى نشرت من قبل بالفعل ، وسهولة الوصول اليها متاحة تماما .

القيود :

ان مجموعة المزايا التى عرضناها ، يبدو أنها توحى بأن مدخل تحليل المضمون يمثل أداة بحث بالغة الجاذبية لمن يقوم بدراسة وسائل الاتصال ، خاصة لمن يعملون فى مجال الصحافة ، حيث يتوافر قدر ضخم من المواد المطبوعة السهل الوصول اليها . ومع ذلك ، فان هذه المزايا يقابلها سلسلة من المشاكل الهامة التى تتصل بالتكنيك .

ربما كان أوضح هذه المشاكل هو ما يظهر من الافتراض بأن مضمون عملية الاتصال يشكل « أرضية مشتركة » بين من يقوم بالاتصال ، والقارىء ، والمحلل ، وهذا الافتراض ، بالطبع ، هو افتراض ذو أهمية بالغة للباحث ، اذ أنه طالما وضعه ، فهو يستطيع أن يستمر فى استخدام معرفته بالثقافة التى هى أساس الارضية المشتركة فى توجيه الاسئلة « الصحيحة » ويستنبط تصنيفات « ذات مغزى » يمكن منها وضع تصميم البحث .

بكلمات أخرى ، لا بد للمحلل من أن يعتمد على مصادر « فهمه » الخاصة به (وهى المتاحة له نتيجة عضويته فى مجتمع معين وفى لغة مجتمع معينة) لكى يخرج عمل متماسك . هذا الاعتماد على الفهم ويستوجب وجود أى مشاكل ، اذا ما كنا على ثقة من أن الارضية المشتركة التى من المفروض أن من يقوم بالاتصال والقارىء والمحلل يقفون عليها ، يمكن اعتبارها أرضية صلبة وثابتة . لكن بمجرد التسليم بامكانية أن هذه الارضية ليست صلبة بما يكفى ، وبأن ما أعتبر ثقافة مشتركة قد يكون فى الحقيقة أقرب لان يكون مزيج مضطرب من الآراء المتنافسة ، عندئذ تنشأ مشكلة تتعلق بالعلاقة بين المنظورات الخاصة بمختلف الاطراف .

لذلك ، اذا ما اعترفنا بأن تحليل المضمون .

« يستلزم وجود ثقافة مشتركة يمكن نقلها بشكل واضح وصريح الى اشكال مكتوبة » .

أيضا لا بد أن نعترف بامكانية وجود حالات من التباين بين مقاصد وادراكات أولئك الذين يقومون بالاتصال عن طريق الوسائل الاعلامية ، وأولئك الذين يستخدمون وسيلة الاتصال هذه ، وأولئك الذين يسعون الى تحليلها بطريقة نسقية . ومع ذلك ، فان عدد مشروعات تحليل المضمون الفعلية . يتضح فيها تجاهلها لهذه القضية .

غير هذا ، هناك مشكلة أخرى تختص بتحليل المضمون ، وهى المشكلة التى تتعلق بالاهمية التى يمكن اضفاؤها على النتائج الكمية التى تنتج عن التحليل . فكما رأينا من قبل ، أن النتائج التى تتحقق تعتبر ذات ميزة حيث أن مثل هذه النتائج تعطى نوع من « الدقة » لا تتوافر فى غيرها .

فخلف هذه النظرة التى ترى أن العدد الدقيق لمرات حدوث وحدات المضمون يمثل نتيجة لها أهميتها فيما يتعلق بالنص ، يكمن افتراض هام . هذا الافتراض هو أن عدد مرات حدوث بند معين يعد مؤشرا فعالا ويعتد به لمغزى وأهمية هذا البند . أى أننا نفترض أنه كلما كثر عدد مرات حدوث بند ما كلما ازدادت أهميته ، أو أنه يصبح محور اهتمام من يقوم بعملية الاتصال ، بدرجة اكبر . الاكثر من ذلك ، هو أننا نفترض أيضا أن عدد مرات الحدوث يكون بالفعل « مقياسا » لهذا الاهتمام ، والذى يعنى بدوره ، مثلا ، أن البند الذى يتكرر حدوثه بنسبة ٢٠٪ أكثر من غيره ، يمكن اعتباره ، بالمقارنة ، اكثر أهمية من ذلك البند الآخر .

وهذا الرأى هو نفسه النتيجة المنطقية للزعم بأن حساب عدد مرات التكرار يمثل عنصر الدقة . ولكن عند النظرة الفاحصة ، نجد أن الوضع يعطى نتائج غير معقولة . فهل نستطيع أن نستخلص ، على سبيل المثال ، انه بسبب قيام احدى الصحف بتغطية صحفية لاخبار الجريمة فى فترة زمنية معينة ، وان التقارير التى تفيد بوقوع جرائم الاعتداء على الملكية هى أكثر بنسبة ٢٠٪ عن التقارير التى تفيد بجرائم الاعتداء على الاشخاص ، معناه أن « الانشغال » بالجرائم الاولى أكثر بالفعل عن الانشغال بالثانية بـ ٢٠٪ ؟ لنا أن نفترض هنا هل هذا الافتراض معقول . هل من المعقول ، مثلا ، تصور اهتمامات من يقوم بعملية الاتصال أن تتم فى نطاق رقم شامل يحدد على أساس نسبة مئوية بالنسبة لاى قضية معينة ؟ وعلى

مثل هذه النظرة تلتقى مع اى نظرية كاملة عن الشخصية الانسانية ؟ ان مثل هذا الاساس النظرى لو وجد ، فيبدو أنه قد حظى بالاهمال فى مادة تحليل المضمون .

وهناك مشاكل أخرى مماثلة تنشأ عندما يتم تقدير « أثر » مضمون وسائل الاتصال على الجمهور . فلو أن مثل هذا المضمون فى امكانه أن يؤثر أو يشكل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أفكار مواقف أفراد الجمهور ، فهل يمكن النظر أيضا الى عدد مرات التكرار باعتبارها مؤشر دقيق لمثل هذه الآثار ؟ فلو تكرر حدوث بند ما بنسبة ٥٠٪ أكثر من غيره ، فهل يكون تأثيره أكبر بنسبة ٥٠٪ ؟ نقول مرة أخرى ، أن مثل هذه النظرة ليس لها أى تبرير نظرى ، بل ان حتى الدليل الامبريقى الموجود يبدو أنه يناقضها .

من المثير ، أن أحد أهم الاعمال فى مجال تحليل المضمون ، يبدو وقد اتخذ موقفا حذرا نسبيا من قضية التكرار :

« والآن ، ليس من المتضمن بشكل قاطع هنا ، أن عنصر الدقة الاكبر هو دائما شىء ضرورى أو حتى مرغوب فيه . فهذا يعتمد على المشكلة . ففى حالات كثيرة لا يهم ما اذا كانت النسبة هى ٦٠٪ أو ٧٠٪ أو ٧٥٪ أو ٨٥٪ ، لان كل ما يهم أن النسبة « عالية » .

هذه العبارة التى كتبها بيرلسون تبدو وقد تضمنت تعارضا مباشرا لقول هولستاى أن ما تعطيه البيانات الكمية من دقة واضحة ، هو شىء مرغوب فى حد ذاته . ونحن هنا نواجه فى الواقع تناقضا واضحا : فعند تفحص أسلوب البحث المصمم لاستخراج نتائج كمية منه ، فاننا نجد أننا غير قادرين على تقييم مغزى الارقام الناتجة دون غموض ، ومن ثم يكون من الافضل لنا أن نصيغ نتائجنا الكمية فى عبارات نوعية مثل « مرتفع » أو « منخفض » ! وفى الواقع فان هذا التراجع نحو « عدم الدقة » فى التعبير النوعى يؤيده جورج الذى يذكرنا بأن التحليل النوعى المضمون الظاهر للوثيقة هو فى أغلب الاحيان أكثر السبل وضوحا ومعقولية للحكم على الافكار والمقاصد الخاصة بالتحليل .

البحث الاجتماعى الاستقرائى وتحليل مضمون الصحافة :

ان استخدام أساليب تحليل المضمون ، خاصة فى دور « استكشافى » ، هو أمر يمكن النظر اليه على أنه مثال للبحث الاجتماعى الاستقرائى ،

حيث يحاول الباحث أن يستخرج سمات عامة من مجموعة من الحالات ، أو الاحداث ، أو الوقائع . وبهذه الوسيلة تتحقق التعميمات التى تأخذ منزلة « القوانين » .

ان ويللر وويللر Willer & Willer مثلا ، قد دللا على أن مثل هذا الاستقراء فى العلوم الاجتماعية يعتمد غالبا على ما يسمياه « الامبريقية النسقية » . وباستخدام هذا المدخل ، كما يرى المؤلفان ، فان الباحث يبدأ عمله بمجموعة من توصيفات المشاهدة المعقولة ، والتى يستخدمها عندئذ لاستخراج البيانات ، عادة على شكل نسب مئوية ، وحسابات ، وأرقام ، الخ . الخطوة التالية تتضمن المحاولة للكشف عن جوانب « الترابط » بين هذه التوصيفات ، وعادة ما يتم ذلك عن طريق استخدام أساليب احصائية أكثر أو أقل تعقيدا . وبمجرد اكتشاف جوانب الترابط الاحصائية الهامة (مثلا ، بين توصيفين مثل « الاثم » و « الطبقة الاجتماعية » ، فان جوانب الترابط هذه يتم رفعها الى مستوى التعميمات ، على الرغم من أنها من الناحية النمطية يعبر عنها باعتبارها اتجاهات أكثر منها قوانين ...

فالذى تتضمنه الامبريقية النسقية ، اذن ، هو تغيير البيانات فى مرحلة « ما قبل النظرية » لكى يمكن اكتشاف عوامل الانتظام الكامنة تحتها ، وبعدئذ التعبير عن هذه العوامل باعتبارها تعميمات امبريقية . ولكن الممارسون لهذا ، يرتكبون خطأ الخلط بين هذا الاسلوب والاساليب العلمية ، والاعتقاد بأن تعميماتهم الامبريقية هى تعميمات « علمية » . ولكن العلم ، من جانب آخر ، كما يرى آل ويللر ، يتضمن بناء مخطط متصل ببعضه من المفاهيم النظرية التى يمكن أن تتيح الظهور لجوانب المشاهدة الخاصة به وقياساته الخاصة لهذه الجوانب من المشاهدة أكثر من كونه محاولة لاكتشاف العلاقات بين التصنيفات الامبريقية .

تطبيقات فى مجال تحليل المضمون :

على الرغم من أن تحليل المضمون يستخدم دائما لتطبيقه على رسالة ما ، الا انه قد يستخدم فى الاجابة على تساؤلات تدور حول عناصر الاتصال . ولقد قام لازويل بصياغة للتساؤل الاساسى الذى يمكن أن يثيره الباحث : « من يقول ماذا ، ولمن ، وكيف ، وبأى نتيجة ؟ » . وبشكل أكثر وضوحا ، فان الباحث قد يقوم بتحليل الرسائل لاختبار الفرضيات

النظرية التى تدور حول الصفات التى يحملها النص ، أو « مقدمات الرسالة » أو « التأثيرات الناجمة عن الاتصال . وهذه الجوانب الثلاث تختلف فيما يختص بالتساؤلات الموجهة حول البيانات ، والبعد الخاص بعملية الاتصال التى تخضع للتحليل ، وتصميم البحث .

ولقد كانت أكثر الوسائل شيوعا فى تطبيق تحليل المضمون هى وصف الخواص المميزة للرسالة . فمثلا ، كان أحد جوانب الاهتمام فى البحث الخاص بـ « الثورة والتنمية فى الثورات العالمية » هو بعملية المسح للرموز السياسية . وقد تم وضع تصميمات البحث بحيث تتيح امكانية اختبار الافتراضات النظرية عن « الثورة العالمية » بالتعرف على المسارات المختلفة فى استخدام الرموز التى تعبر عن قيم الهدف الرئيسية للسياسات العصرية . فتم تحليل المقالات الافتتاحية التى نشرت فى عشر من الصحف التى لها مكانتها فى كل من الولايات المتحدة ، وانجلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، والاتحاد السوفيتى فى الفترة من ١٨٩٠ حتى ١٩٤٩ . بعد ذلك ، تم ادراج الافتتاحيات التى كانت تظهر فى اليوم الاول والخامس عشر من كل شهر كمقالات تحمل ٤١٦ رمزا رئيسيا . وهذه الرموز كانت تتضمن ٢٠٦ مصطلحا جغرافيا ، كأسماء البلاد والتنظيمات الدولية ، و ٢١٠ رمزا ايديولوجيا ، مثل « المساواة » ، و « الديموقراطية » و « الشيوعية » . وعندما كان يظهر أحد الرموز ، كان يسجل ، كما كانت تسجل المواقف المختلفة تجاهه مع الاستعانة بواحد من التصنيفات الثلاث التالية : الموافقة ، عدم الموافقة ، الحياد ، وقد تم استخدام البيانات المستخرجة من ١٩٫٥٥٣ مقالة لتتبع ما حدث من تغير فى بؤرة الاهتمام والمواقف . ومن النتائج التى سجلت كثيرا أن الرموز الخاصة بالحكومات النيابية كانت تستخدم عندما تكون الممارسة موضع جدل ، ولا تستخدم حيث تكون جزء من التقاليد المسلم بها .

وفى احدى الدراسات التى تمت مؤخرا عن موضوع اخر يختلف تماما ، قام ماهر ، وماكيان ، وماكلاجلن بفحص السمات الخاصة باللغة الانفصامية . كان الغرض المعلن للبحث هو معرفة الاختلافات النسقية بين اللغة المقرر أنها مشوشة فكريا واللغة المستقر على أنها خالية من الاضطراب الفكرى . وفى سبيل هذه الغاية قام المؤلفون باستخدام الوثائق الخاصة بالمرضى الخاضعون لحالات تلقائية . وكانت الوثائق تتأرجح بين مجموعات من اليوميات التى تغطى زمنا طويلا والكلمات البذيئة المكتوبة على أغلفة أمشاط الثقاب . ومن كل وثيقة تم أخذ عينة لنص يتكون من خمسين كلمة . ثم صنفت العينات تبعا لتقسيم النص

الى أجزاء تجرى على حسب تسلسل بسيط لعملية التفكير ، أو حسب وحدات بسيطة للتفكير . كانت كل وحدة تشتمل على أشياء ، وأفعال ، وموضوعات ، ومحورات بالاضافة الى مصدر التفكير ، والموضوع الوصفى ، والفعل . بعد ذلك تم تقسيم النص الى هذه الوحدات ، ثم نسبت كل كلمة الى تصنيفات حسب وظيفتها فى النص . ومن بين النتائج الاخرى التى يسجلها المؤلفون أن ، الوثائق المقرر أنها خالية من الاضطراب الفكرى قد استخدمت مفردات أقل بالنسبة لكل موضوع عما حدث فى الوثائق التى اعتبر أنها مرضية ، والوثائق المقرر أنها طبيعية قد احتوى على مكيفات لكل فعل أكثر مما جاء فى تلك التى اعتبرت مرضية .

أما التطبيق الثانى لتحليل المضمون فهو ذلك الذى يتم فيه تحليل النص للخروج باستدلالات عن مرسل الرسالة وعن اسباب أو مقدمات الرسالة . ومن المحاولات المعروفة جيدا لتحديد هوية المرسل ، هى تلك الدراسة التى أجراها موستلر ووالاس عن كاتب « الاوراق الفيدرالية » من رقم ٤٩ الى ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ » . وقد بدأ المؤلفان بأربعة مجموعات من الاوراق : تلك المعروف أن ماديسون قام بكتابتها ، وتلك المعتقد بأن ماديسون أو هاميلتون قد كتبها ، ثم تلك المعتقد بأن كليهما قام بكتابتها . وعند فحص النصوص الخاصة بالاوراق المعروفة ، كان الباحثان قادرين على انتقاء الكلمات التى ميزت بين المؤلفين . فمثلا ، كان هاميلتون يميل الى استخدام كلمة « يكفى » ولكن ماديسون لم يستخدمها . ومثل هذه الكلمات الاساسية التى تشكل مفتاح التمييز استخدمت معا بعدئذ لتحديد من كتب نص الاوراق موضع المناقشة . وكانت النتيجة أن البيانات قد أيدت بقوة الدعوى بكتابة ماديسون للنص .

ولقد استطاع شنايدمان أن يستدل على سمات شخصية المتحدثين من الصفات المنطقية والادراكية لعمليات الاتصال الشفهية بينهم . وقد تم وضع النصوص فى مجموعتين من التصنيف : الخلفيات الفطرية الخاصة بالتعقل الفكرى (والتى اشتملت على اثنين وثلاثين تصنيفا تتكون من خلفيات الملاءمة ، وخلفيات المعنى ، وما شابه) والتناول الادراكى (والتى كانت تتكون من خمسة وستين طرازا لتطور التفكير ، كالبدء باستخدام الطراز المعيارى . وحتى الطراز الوصفى) . ولكى نعطى صورة لهذا المنهج ، فقد قام شنايدمان بفحص الاساليب المنطقية التى انتهجها كل من كنيدى ونيكسون فى أول مواجهتين لهما بالتليفزيون وكذلك الاسلوب الخاص بخروشتشيف فى كلماته التى ألقاها فى الامم المتحدة . ثم وضع لكل حلقة

فكرية الظروف المنطقية التى تخضع لها كل حلقة أما للمناقشة أو الالغاء . ومن هنـاك تم الاستدلال على الصـفات السـيكلوجية لمرسل الرسائل . وعلى سبيل المثال تم معرفـة ما يتصف بـه خروشتشيف كما يلى :

« أنه يشعر بأن الآخرين عرضـة لاسـاءة فهم مركـزه ومن ثم تكمن لديه الرغبـة فى الحصـول على قبولهم وهو فى سبيل ذلك على استعداد حتى للتضحيـة بالحاجات أو الغايات الاخرى لتحقيق هـذا الهدف . وهو شخص عابس وفى شـدة الحاجة لنيل القبـول .... وهو على ثقـة تامة بغرائزه الخاصـة ، بـ « احساسـه الطبيعى » بالاشياء . وهو يتمتع بالجلد والصبر فى مجـالات معينـة ، ولكنـه بصفة عامة غير صبور ويتمسـك فى التفاصيل أو المخادعة » .

ومن الاشـياء الاخرى التى تم فيها اسـتخدام تحليـل المضمون هو ما تم أيضا بالنسبة للاسـتدلال على المظاهـر الثقافيـة والتغير الثقافى . وقـد لجـأ دافيد ماكيلاند الى اختبار نظريتـه عن « الحاجة الى الانجـاز » بتحليل مضمون الادب فى الثقافات المختلفـة . وعنـده أن الفرد الذى تعتريـه حاجـة كبيرة للانجـاز هو شخص يريد النجـاح ، ويخالف للمعتقدات ، ويتمتـع بالمهام التى تحيط بهـا المخاطرة ، فالحاجة للانجـاز هى « محصلة لعـدد من لحظات الانجـاز أو « الافكار » أو الصـور المتخيلة » . ولقـد تـم اختبار الافتراض النظرى بأن « المجتمـع الذى تتـوافر به درجـة عاليـة نسبيا من الافراد على درجـة عاليـة من حاجة الانجـاز يجب أن يضـم طبقـة من أصحاب الاعمال التى تنحو الى أن تـكون نشـطة وناجحة خاصـة فى مجال المشروعات الاستثماريـة بحيث يمكن لهذا المجتمع أن يتنامى فى قوتـه ونفـوذه » عن طريق رصـد عينـات من الادب فى عهـود مختلفـة مـن الحضـارة الاغريقيـة .

التطبيق الرئيسى التالى الخاص بتحليـل المضمون ، هـو ذلك الذى يتم الاستدلال فيه على الآثار الناجمة عن الرسـائل على المتلقين لهـا . وهنـا يقوم البـاحث بتحديد الآثار الناجمة عن الرسائل التى يرسلها « أ » ، مثلا ، الى «ب» وذلك عن طريق تحليل المضمون الخاص برسـائل «ب» . غير هـذا ، من الممكن للانسـان أن يقـوم بدراسـة الآثار الناتجـة عن عمليـة الاتصال بتفحص الجوانب الاخرى لسـلوك المتلقى . وتحليل المضمون يخـدم فى تحديد التغيرات المسـتقلة الملائمة التى لها علاقـة متبادلة مع سـلوك المتلقى . وربما تعتبر الدراسـة التى قام بها برناردبيرلسون هى أولى المحاولات لبحث الآثـار

الناجمة عن الوسائل على المتلقى لهـا . ففى خلال حملة الانتخابات الرئاسية عام ١٩٤٠ ، تم التعرف على الخط الرئيسى للموضوعات الخاصة بالمطالب السياسية وذلك بتحليل مضمون وسائل الاعلام العامة والخاصة . ثم تم اجراء عملية مسح لردود الفعل الشعبية تجاه مضمون المناقشات التى كانت تجرى . وقد تم تلخيص العلاقة بين المضمون والمتلقين كما يلى :

« لماذا يتدخل الناس فى المجادلات ولماذا يقبلونهـا ؟ ... ان الناس ، أساسا ، يدخلون فى المجادلات التى تبرزها وسائط الاتصال ، كما أنهم يميلون لرؤية المجادلات التى يريدون أن يرونها وغيرها من المجادلات التى تكون بياناتها مرغوبة ... الناس يتقبلون المجادلات التى تساند من موقفهم العام الخاص بهم ، كما أنهم يميلون الى تقبل المجادلات التى يرونها فى وسائل الاتصال العامة وتلك التى يرون أن بياناتها مقنعة » .

وحدات وتصنيفات :

ان الاجراء الخاص بتحليل المضمون يشمل التفاعل الخاص بعمليتين : « توصيف » سمات المضمون الذى يخضع للقياس ، و « تطبيق القواعد » لتمييز ورصد السمات عندما تظهر فى النصوص التى سيتم تحليلها . والتصنيفات التى يتم ادراج المضمون فيها تختلف وطبيعة البيانات وغرض البحث . وقبل أن نقوم بمناقشة الاجراءات العامة لبناء التصنيف ، لابد أولا من أن نحدد خواص وحدات التسجيل المختلفة المستخدمة فى البحث ونقوم بالتمييز بين وحدات التسجيل ووحدات السياق . ان « وحدات التسجيل » هى أصغر كيان فى المضمون والتى يتم فيها رصد المرجع عندما يظهر « والمرجع هو مجرد واقعة واحدة فى عنصر المضمون » . أما « وحدة السياق » فهى أكبر كيان فى المضمون يمكن فحصه بتحديد صفات وحدة التسجيل . فمثلا ، وحدة التسجيل قد تكون عبارة واحدة ، ولكن لكى يتم معرفة ما اذا كانت العبارة قد عولجت بطريقة مواتية ، على المرء أن يقوم بتقييم كامل للجملة التى وردت فيها العبارة (وحدة السياق) . وبهذا ، فان الجملة تؤخذ عند تسجيل (وبالتالى عند تصنيف) العبارة .

وفى مجال البحث الخاص بتحليل المضمون ، هناك خمس « وحدات تسجيل » رئيسية يتم استخدامها كثيرا : الكلمات أو العبارات ، الموضوعات ، الشخصيات ، الفقرات ، والبنود ، الكلمة هى وحدة تستخدم فى البحث بشكل عام . واستخدامها يفضى الى قائمة من التكرار للكلمات أو

العبارات المختارة . فمثلا ، يقول هارولدلازويل فى دراسة عن الكشف عن الدعاية ، أن مجلة « موسكونيوز » قد استخدمت كثيرا سبعا وعشرين عبارة سياسية رئيسية خلال الفترة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ . والجدول ١٠١٠ يبين ثمان من هذه العبارة وعدد مرات تكرارها .

والموضوع ، بالنسبة اكثر من أغراض البحث يعتبر وحدة تسجيل مفيدة . والموضوع فى بسط صورة هو جملة بسيطة ، أى ، مبتدأ وخبر . ولان الموضوعات فى معظم النصوص يمكن أن تكن موجودة فى الجمل المركبة ، والفقرات ، والايضاحات الوصفية ، يصبح من الضرورى تحديد أى من هذه الاشياء سيتم بحثه عند استخدام وحدة التسجيل . فعلى سبيل المثال ، قد يقوم المرء باحتساب الموضوع الاساسى فقط فى كل فقرة أو احتساب كل موضوع فى النص . وتعتبر أكثر المجالات استخداما للموضوعات هو الدراسات الخاصة بالدعاية ، والمواقف والمتخيلات ، والقيم .

وهنا بعض الدراسات تستخدم فيها الشخصية باعتبارها وحدة التسجيل . وفى هذه الحالة يقوم الباحث باحتساب عدد الاشخاص بدلا من عدد الكلمات أو الموضوعات . وهذا ، بدوره ، يتيح امكانية فحص السمات الخاصة بالشخصية التى تظهر فى النصوص العديدة .

أما الفقرة فهى وحدة التسجيل الرابعة . ومع ذلك ، فهى نادرا ما تستخدم بسبب الصعوبات التى تنشأ عند تصنيف وادراج الاشياء المختلفة والعديدة الواردة فى فقرة واحدة .

والبند هو مجمل الوحدة التى يستخدمها منتج الرسالة . والبند قد يكون مقالة كاملة ، أو كتاب ، أو حديث ، أو ما شابه . والتحليل باستخدام مجمل البند يكن ملائما حيثما تكون جوانب الاختلاف والتنوع داخل البند صغيرة وغير ذات أهمية . فمثلا ، القصص الاخبارية كثيرا ما يمكن تصنيفها تبعا لموضوع الخبر ، كالجريمة ، أو العمل ، أو الرياضة .

وأخيرا ، فان وحدات التسجيل يتم توصيفها وادراجها فى تصنيفات . وتعتبر مشكلة بناء التصنيف ، كما يوضح بيرلسون ، هى اكثر الجوانب حسما فى تحليل المضمون :

> « ان تحليل المضمون اما انه يقوم او يفشل تبعا لتصنيفاته . ولقد كانت بعض الدراسات المعنية مثمرة الى الحد الذى كانت فيه التصنيفات واضحة الصياغة

ومتكيفة تماما مع المشكلة ومع المضمون . أما الدراسات الخاصة بتحليل المضمون والتى قامت على أساس أن تصيب أو تخطىء ، دون أن تكون هناك مشكلات للبحث مصاغة جيدا ومع تصنيفات مرسومة بغموض أو محددة بشكل ضعيف ، فهى خليقة تقريبا بأن تكون ذات نوعية منخفضة أو غير ذات جدوى ، كثمرة للبحث . . . وطالما أن التصنيفات تتضمن مادة البحث ، فان تحليل المضمون لن يكون أفضل من نسقه فى التصنيف » .

ومن بين أنماط التصنيف المستخدمة كثيرا فى مجال البحث الخاص بتحليل المضمون ، هى الانماط التالية :

التصنيفات الخاصة بـ « ماذا قيل » :

موضوع الامر : حول ماذا دارت عملية الاتصال ؟
الاتجاه : كيف تمت معالجة الموضوع (بطريقة سليمة ـ غير سليمة ، قوية ـ ضعيفة) ؟
المستوى : ما هو الاساس الذى تمت بناء عليه عملية التصنيف باستخدام الاتجاه ؟
القيم : ما هى القيم ، أو الاهداف ، أو الرغبات التى تكشفت ؟
المناهج : ما هى المناهج التى استخدمت لانجاز الاهداف ؟
السمات : ما هى الصفات التى استخدمت أوصف الناس ؟
الفاعل : من هو الممثل لتولى مهمة أفعال معنية ؟
السلطة : باسم من تتم التصريحات ؟
الاصل : من أين تنبع عملية الاتصال ؟
الموقع : أين يقع الفعل ؟
الصراع : ما هى مصادر ومستويات الصراع ؟
النهايات : هل تم حل الصراعات بطريقة سارة ، أو معتمة ، أو مأساوية ؟
التوقيت : متى يقع الفعل ؟

تصنيفات خاصة بـ « كيف قيل » :

شكل او نمط الاتصال : ما هو الوسط الذى تمت به عملية الاتصال (الاذاعة ، الصحيفة ، الخطبة ، التليفزيون ، وهلم جرا) ؟

شكل البيان : ما هو الشكل أو التركيب اللغوى لعملية الاتصال ؟
الوسيلة : ما هو المنهج البلاغى أو الدعائى المستخدم ؟

والتصنيفات لابد أن تكون متصلة بفرض البحث ، كما أنها يجب ان تكون لها قدرة الاستيعاب وقاصرة على شىء واحد . ان قدرة الاستيعاب تضمن ان كل وحدة تسجيل لها صلة بالدراسة يمكن تصنيفها . اما عملية الاقتصار ، فهى تعنى أن أى وحدة تسجيل لا يمكن أن تدخل أكثر من مرة واحدة فى اطار أى نسق معين للتصنيف . وعلى الباحث أيضا أن يعمل بوضوح على تحديد خاصية المؤشرات التى تقرر أى من وحدات التسجيل تدخل فى كل تصنيف . وهذا الامر يتيح امكانية التكرار ، وهى احدى المتطلبات الضرورية لضمان تحليل للمضمون يكون موضوعيا ونسقيا .

ومعظم البحث فى مجال تحليل المضمون يعتبر بحثا كميا بطريقة أو باخرى . وعملية التقدير الكمى يمكن أن تتم باستخدام واحد من أنساق العد الاحصائى : (١) **نسق الزمان / المكان** ذلك الذى يعتمد على مقاييس عديدة للمكان (مثل جدول البوصات) أو وحدات زمنية (كعدد الدقائق المخصصة لفقرة اخبارية فى الاذاعة) لوصف عوامل التأكيد النسبية للتصنيفات المختلفة فى مادة التحليل ، (٢) **نسق المظهر** ، ذلك الذى يدعو الى بحث المادة للعثور عى مظهر لخاصية معينة ، فحجم وحدة السياق هى التى تقرر حالة التكرار التى تحسب بهما بطريقة منفصلة وحدات التسجيل التى تقع بشكل قريب من بعضها ، (٣) **نسق التردد** ، وهو الذى يتم فيه تسجيل كل مرة تقع فيها احدى الخواص المعينة . (٤) **نسق الكثافة** ، وهو يستخدم بصفة عامة فى الدراسات التى تتناول المواقف والقيم ، وتعتمد المناهج الخاصة بحساب الكثافة على بناء مقاييس الكثافة . فمثلا باستخدام تكنيك « المقارنة المزدوجة » الذى تطور على يدى ثور ستون ، فان المحكمين هم الذين يقررون أى من مؤشرى الكثافة المحكمين يسجلان الدرجة الاعلى فى مقياس المواقف . وعندئذ تستخدم الاحكام لوضع التصنيفات التى تدخل فيها وحدات التسجيل .

الفصل السادس

وسائل جمع البيانات

يعتبر الحصول على البيانات والمعلومات التى سوف تعتمد عليها الدراسة من أهم خطوات البحث ، ويرجع ذلك الى أن قيمة البحث الاجتماعى ، ومدى دقة نتائجه ، وقدرته على الاسهام فى تقدم العلم الاجتماعى ، يرتبط كل ذلك بمدى قدرة الباحث على الحصول على المعلومات اللازمة للدراسة ، التى ترتبط بالاهداف العامة للبحث من جهة ، والتى يجب أن تكون على درجة عالية من الثبات والصدق من جهة أخرى . على أن البحث العلمى لا ينتهى عند مرحلة جمع البيانات ، بل من الضرورى أن يكون واضحا تماما أن هذه المرحلة تأتى بعد خطوات أخرى يمر بها البحث الاجتماعى ، وتأتى بالضرورة بعد أن يحدد الباحث أهداف دراسته بدقة ، اذ لا قيمة للبيانات التى نحصل عليها من الميدان على الاطلاق دون أن تكون ذات صلة وثيقة بمشكلة البحث .

ومن المسلم به أن نجاح البحث فى تحقيق أهدافه ، يتوقف على الاختيار الرشيد لانسب الوسائل الملائمة للحصول على البيانات ، والجهد الذى يبذله الباحث فى تمحيص هذه الوسائل ، وتنقيحها ، وجعلها على أعلى مستوى من الكفاءة . ومعنى ذلك أنه من الضرورى أن تتحقق درجة معينة من الثقة فى البيانات التى نحصل عليها عن طريق وسائل أو أدوات البحث . وهنا يبرز أمامنا تساؤلان أساسيان هما :

ما مدى ثبات البيانات التى يحصل عليها الباحث ؟؟ أو بعبارة أخرى اذا كان الباحث يعتمد فى الحصول على المعلومات على استمارة البحث صممها خصيصا لهذا الهدف لكى يطبقها على عينة من الافراد ، فهل لو طبق هذه الاستمارة مرتين ، تفصل بينهما فترة زمنية معينة ، على نفس المجموعة ، هل يتغير شكل البيانات تغييرا جوهريا ، أم هناك درجة من الاستقرار فى الشكل العام للبيانات ، مع افتراض أن الشىء المبحوث سواء كان يتعلق بظاهرة ، أو اتجاه أو موقف لم يشهد تغيرات جوهرية خلال هذه الفترة ؟؟

أما التساؤل الثانى فهو يتعلق بمدى صدق الاداة أو الوسيلة التى يستخدمها الباحث ، أو بمعنى آخر مبلغ تطابق ما نحصل عليه من معلومات مع الحقيقة الموضوعية ، أى أن علينا أن نتأكد بالفعل من أن الاداة التى نستخدمها فى القياس تقيس فعلا الظاهرة المراد دراستها ولا تقيس شيئا آخر غيرها .

والواقع أن ما سبق يثير مسألة هامة وهى قدرة العلوم الاجتماعية على التوصل الى مقاييس ثابتة وصادقة . ومما هو جدير بالذكر أن علم النفس قد استطاع أن يحقق تقدما كبيرا فى هذا المجال ، وذلك راجع بالطبع الى أنه قطع شوطا كبيرا فى تحقيق الضبط والدقة والتجريب ؛ وبذل المتخصصون فيه جهودا ملحوظة فى معرفة حدود الاختبارات التى يستعملونها ، ومدى الثقة فيما نتوصل اليه من نتائج صادقة . ويسلم كثير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا أنه من الضرورى أن يبذل الباحث جهودا منظمة فى اعداد أدوات البحث ، وتنقيحها ، حتى يتحرروا من مصادر الخطأ والتحيز الشائعة ، ويتخلصوا من الذاتية التى تشوه نتائج الدراسات العلمية ، ولكن الشائع أن نسبة الاهتمام بتطبيق مقاييس دقيقة للثبات والصدق بين علماء الاجتماع أقل منها بين علماء النفس ، ويرجع ذلك الى أن أداة البحث المستخدمة فى البحوث الاجتماعية غالبا ما لا يعاد تطبيقها بعد المرة الاولى ، فاذا اعتمد الباحث على استمارة المقابلة مثلا ، فانه لا يعود الى استخدامها مرة ثانية بمجرد أن تؤدى الفرض منها فى المرة الاولى ، وذلك بعكس الحال فى المقاييس السيكلوجية التى تصمم لفرض تطبيقها عدة مرات لقياس اشياء ثابتة نسبيا ، بل انها تستخدم فى مجتمعات مختلفة ، ولهذا يتعين أن يبذل الباحث جهدا فى التأكد من ثباتها وصدقها . أضف الى ذلك أن سرعة معدلات التغير الاجتماعى والثقافى ، وما يؤدى اليه ذلك من تعديلات أساسية فى بناء المجتمع ، تقتضى من الباحثين الا يتوقفوا من اجراء بحوث مستمرة ، ومن ثم لا يجدون ضرورة تدفعهم الى تضييع وقت طويل فى حساب ثبات وصدق أدوات جمع البيانات .

على أية حال ، ينبغى أن تكون لدينا فكرة واضحة عن مفهومى الثبات والصدق ، فالثبات هو مدى الاتساق أو نسبة الاتفاق والتطابق بين البيانات التى تجمع عن طريق اعادة تطبيق نفس المقاييس على نفس الافراد أو الجماعات فى ظل ظروف متشابهة بقدر الامكان ، مرتين متتاليتين . وعادة ما يتم حساب الثبات عن طريق تطبيق الاختبار على نفس المجموعة مرتين ، تفصل بينهما فترة زمنية كافية ، ثم يحسب معامل الارتباط بين الاجابات الاولى والثانية ، أو نسبة الاتفاق بين هذه الاجابات ، بحيث أن السؤال الذى لا يحقق نسبة اتفاق عالية تقدر بحوالى ٧٠٪ ، أو معامل ارتباط يزيد عن ٥٪ يسقط من الاستمارة او الاختبار ، باعتبار انه مقياس غير ثابت .

أما الصدق ، فهو يترجم أحيانا « بالصحة » أو « الصلاحية » ومعناه أن يقيس الاختبار ما وضع لقياسه فالاختبار المخصص لقياس القدرة الميكانيكية يجب أن يقيس هذه الخاصية فقط ، ولا يقيس مثلا المهارة اليدوية وغالبا ما يلجأ الباحث للتأكد من صدق المعلومات التى حصل عليها الى الاستعانة ببعض المحكات الخارجية ، فاذا كنا نبحث مثلا عن بعض المعلومات الخاصة بالعمر ، والدين ، والدخل ، والمهنة ، ومستوى

الاقتراحات المقدمة من قبل أعضاء النادى . وربما وجد بعض الدارسين الذين يسجلون السلوك الاجتماعى الشاذ أو الملفت للنظر ، مثال ذلك ، فقرات الهوايات الادبية ، المنبوذ الذى كان نائما فى المكتبة ، العامل الذى وكأنه يلعن مجموعة الدارسين أثناء مرورهم بكاتبة المبيعات التى تمضغ اللبان وهى تشرح مزايا العطر المباع ، أو نشوب عراك مرتقب بين عضوين من أعضاء النادى .

وقلة نسبية منهم ، سيسجلون الفقرات ذات الاهمية الاجتماعية : كوسائل الاتصال التى يستخدمها العمال عندما ينتشرون فى ارجاء المصنع الصاخب ، واختلاف تصرفات العمال تجاه رغباتهم ، والتغير السريع فى طريقة السلوك عندما تتحول موظفة المبيعات عن زميلها الموظف وتستدير ناحية الزبون ، توزيعات العمال حسب السن والجنس على مختلف أقسام العمل ، قيمة الاقتراحات التى تتضمنتها المناقشات الدائرة فى اجتماعات النادى ، أبرز أوجه النشاط الاجتماعى الذى تقوم به المكتبة ، نمط التسلط القائم داخل الهيكل الهرمى لاعضاء النادى . وبأختصار فلا يكفى أن نكون واعين مدركين للسلوك الاجتماعى الواضح ، بينما قلة منا يجهدون انفسهم فى تسجيل التفاعل الاجتماعى ، الذى يدور من حولنا بروية وحسن إدراك .

واذا ما وجد الدارس ، من خلال الاختبار المقترح ، بانه سجل — بصورة رئيسية — مذكرات تتعلق بالاوضاع الطبيعية ، أو العلاقات الهندسية ، أو الانظمة الاقتصادية ، فان أول اجراء يمكنه اتباعه لتحسين قوة ملاحظاته ببساطة ، هو أن ينمى وعيه وادراكه للظواهر الاجتماعية . ولربما أبتسم الدارس لهذه النصيحة لانها تبدو شبيهة بحال من يشد نفسه الى الاعلى برباط الحذاء ، وعلى أية حال ، فأننا نلاحظ — وبكل تأكيد — بعض الظواهر الاجتماعية ، مادمنا قابلين للتكييف الدائم المنتظم مع الاوضاع الاجتماعية الجديدة . أننا واعون فيما يتعلق بأختلاف الحالات وتغير الأدوار ، لاننا نختلف ونتعاون فى تصرفاتنا تجاه الناس الذين ينتمون بدورهم الى طبقات اجتماعية ومهن مختلفة ، وحتى نحو أقرب الناس الينا من أفراد أسرتنا « كالاب والجد والاخ وابن العم . . . الخ » الذين يتفاوتون فيما بينهم أيضا . ومن جهة أخرى فمن الممكن — حقيقة — الا نكون قد كونا عن وعى هذه الاختلافات . وبامكاننا أن نحس بالخصومة بين الاصدقاء ، أو أن نشك فى نوايا الغريب ، دون أن نحفل بتسجيل الدوافع الخفية التى قادتنا الى هذا الشعور . وببساطة فان وعينا وأدراكنا لهذه الهفوة ، من الممكن اذن أن يقودنا الى رؤية قطاعات عديدة من السلوك الاجتماعى الذى لم نوله سوى القليل من تفكيرنا فى السابق .

التعليم ، ومستوى التحصيل فى استمارة البحث فاننا نستطيع التأكد من صدق هذه البيانات ، اذا كانت هناك سجلات أو وثائق تتضمن هذه المعلومات ، فنقارن بينها وبين المعلومات اللفظية التى تم الحصول عليها من خلال مقابلة المبحوثين .

وهناك وسائل مختلفة للحصول على البيانات نتناول منها :

١ ـ الملاحظة

ان العلم يبدأ بالملاحظة ، وينبغى أن يعود الى الملاحظة حتى يتحقق له الصدق . فعلى عالم الاجتماع أن يهيء نفسه ليلاحظ بعناية . واذا كان باستطاعته أن يصبح ملاحظا جيدا ، فعليه أن يبدأ استفتاءه بالمزيد من البيانات الموجودة تحت تصرفه على ألا ينسى أن موضوع دراسته هو السلوك الاجتماعى ، وان يكون قادرا وباستمرار على مراجعة وفحص استنتاجه بيسر وسهولة .

وقد تأخذ الملاحظة أسماء عديدة ، كما انها تعتبر اكثر وسائل البحث بدائية وحداثة فى آن واحد ، فهى تتضمن أكثر التجارب « عرضية » و « لا أنضباطية » فى الوقت الذى تشتمل فيه على أدق التسجيلات المخبرية (المعملية) للتجارب . وهناك عدة وسائل للملاحظة ، لكل منها استعمالاتها . وحيث ينبغى على الدارس أن يكون قادرا على اختيار أكثر الادوات ملاءمة لمشروع بحثه ، فمن الجدير أن تناقش هذه الاجراءات من الاقل الى الاكثر شمولا وأصولا .

كلنا يلاحظ أشياء ويفشل فى رؤية أشياء اخرى . ان مفاضلتنا بين الاشياء ، ومدى تيقظنا وأنتباهنا ، واتساع وعمق معرفتنا ، وطبيعة الاهداف التى تسعى لتحقيقها ، كل هذه الاشياء هى التى تحدد الطابع المميز لملاحظتنا وهناك قلة من الدارسين الذين يضعون فى اعتبارهم « السلوك الاجتماعى » ولتوضيح هذه النقطة : يجب على الدارس أن يتبع الاختبار التالى ، سواء كان بمفرده أو كعضو فى مجموعة . ففى مثل الحالة الاخيرة ، فان دراسة الاختلافات بين الافراد تكون هى الافضل والانجح . قم بزيارة ميدانية الى مصنع ، أو مخزن ، أو مكتبة ، أو حتى الى لقاء فى نادى . وخلال فترة الملاحظة دون ملاحظات عما تشاهده ، كاتبا بذلك تقريرا كاملا عن الرحلة . والان حلل هذا التقرير لترى الى أى مدى يرتبط أو يهتم بالسلوك الاجتماعى . عدد من الدارسين سوف يسجلون مختلف المراحل التى تمر بها عمليات الانتاج الصناعى ، أو اظهار حسن التهوية فى المخزن التجارى ، وأما السلوك الاجتماعى فسيلقى انتباها قليلا . واخرون سوف يتجاوبون عاطفيا مع كآبة المصنع وضوضائه وسرعة العمل فيه بينما يعلق الاخرون على البضائع المكدسة فى المخزن ، أو سخامة

الملاحظـة البسـيطة (الغير منظمة ، والمشاركة ، والغير مشاركة) :

ان معظم المعرفـة التي لدى بعض الناس حول العلاقـات الإجتماعية مشـتقة من الملاحظـة الغير منظمة (او الغير منضـبطة) ، سـواء كانت كمشـاركة أو غير مشـاركة . فالضوابط فى بعض الحـالات منصبة عـلى المتغيرات فى موقـع التجربة . ذلك اننا تعلمنـا عن السلوك الاجتماعى من المواقف التى شاهدناها أو شـاركنا فيها ، ولم يقم ملاحظون اخـرون بفحص وتدقيق ملاحظاتنـا من خـلال مجموعـة من الفقـرات المتخصصة ، التى يتم تدوينهـا ، أو بواسـطة تخطيط مفصـل لاحتمالات التجربة . والملاحظـة العلميـة تتطـور من التجربـة العرضية للموضوع ، الى القياس التجريدى المنظم للمتغيرات ، باستخدام الآلات الدقيقـة وحتى العلم ، عندما يتطـور بصـورة ملحوظة ، فان الاسـاليب السمعية والبصـرية البسيطة لا تترك على حالهـا ، فهى لا تضيف ـ شـيئا ـ فقط الى الحصيلة الاساسـية المتنوعـة لمعرفـة العلاقات الاجتماعيـة التى نبدأ بهـا جميعـا دراسـتنا ، ولكنهـا تعتبر أيضـا أدوات استقصاء رئيسـية لعديد من الابحـاث المعاصرة .

دعونا أولا نناقش استعمالات ومشـكلات الملاحظة المشـاركة الغير منضبطـة :

يستخدم هذا النوع من الملاحظـة ، عندما يكون الباحث على اسـتعداد ليخفى نفسـه كى يقبـل كعضو فى المجموعـة . وعلى سـبيل المثال فقد قـام نيلز أندرسـون Nels Anderson فى دراسـته عن جماعة ال « هيبز Hobbs » قام بعدة رحـلات مع هؤلاء الرجال ، وعاش بينهم دون أن يكشف النقاب عن نفسـه كعالم اجتماع ، وفى دراسـة حديثة ، قام بها أحـد الدارسين حول « موسيقيين الرقص المحترفين » مثل هذا الدارس خلالهـا دور « عازف بيانو » أما مجموعـة الباحثين البريطانيين ، فقد اسـتخدموا وسائل تستر مختلفـة . فقد يعمد أحدهم لينخرط بين العمـال كواحد منهم ، أو أن يقوم بدور الصبى فى دكان حلاقـة (صالون) .

ولا ينبغى على العالم أن يؤدى نفس ادوار الاخرين كى يكون ملاحظـا مشـاركا ، بل يمكنه أن يجـد لنفسـه دورا يكون مقبـولا للمجموعـة ، بحيث لا ينسيه بذلك غرضـه الحقيقى ، وبمعنى آخـر ، عليه أن يجـد لنفسـه دورا مناسبا داخـل المجموعـة ، شرطـة الا يخل هذا الدور بالانماط الطبيعيـة لسـلوك المجموعة نفسها . وبذلك يمـكنه دخول الوسط الاجتماعى كمؤرخ محلى ، أو كعالم نبات ، بقصد تسجيل العلاقات الإجتماعيـة الغـير سـوية . وكذلك عالم الانثروبولوجيا ، بامكانه أيضا ، أن يتبع هذا الاسلوب ،

حيث يشارك عادة في النشاطات القبلية اذا سمح له بذلك . مما تقدم نرى أن الملاحظة المشاركة ، قد تتراوح بين قيام الملاحظ بالانخراط في عضوية تامة داخل المجموعة ، الى المشاركة الجزئية فقط .

ومن المسلم به ، أن الاعضاء اذا لم يكونوا على علم بغرض العالم ، فان سلوكهم سوف يكون قليل التأثر ، وبالتالي سيكون بامكاننا أن نسجل السلوك الطبيعي للمجموعة . وأبعد من ذلك ، فبالقدر الذى يصل اليه الدارس بالمشاركة الحقيقية ، فان كثيرا من عواطفه مشابهة لعواطف الاعضاء الحقيقيين . وهكذا فانه يتوصل الى معلومات لا يمكنه الحصول عليها بالنظرة الواحدة . حقا انه سيشعر بارهاق « رقصة القبائل » وبرد وجوع الهوبو hopo والمرارة التى يحس بها عامل الحديد الذى يأتمر بأمر رئيسه ، ولكنه في المقابل سيحصل على عمق في التجربة ويسجل التصرف الحقيقي للمشتركين . وبما أن فترة مشاركته هذه يمكن أن تمتد الى شهور ، فان المعلومات التى تجمع تفوق تلك التى تجمع من بيانات مطولة . وأبعد من ذلك ، فانه سيكون قادرا على تدوين المحتوى الذى يعطى لتعبيرات الرأى معنى ، يفوق في أهميته ما يقدمه الاستبيان العادى . كما يتيح له بالتالي ، أن يقارن صدق التقارير التى يقدمها أعضاء المجموعة .

وعلى أية حال ، فهذه الاداة لها سيئاتها التى ينبغى أخذها في الاعتبار قبل استعمالها في حقل التجربة . وبتناقص واضح يبدو ، أنه كلما زاد الباحث من مشاركته الفعلية ، كما أفقده ذلك خط سيره في التجربة . فالملاحظ يأخذ دورا معينا . فهو يتعلم ويتبع نفس أسلوب النشاط الذى يميز أعضاءها ، وهو بهذا يكون أقل قدره على معرفة ما يفعله الافراد الذين لا دور لهم . واذا كان هناك سلم طبقى ، فهو يحتل مركزا داخله ، فيغلق بذلك على نفسه مصادر عديده هامة ، لجمع المعلومات . وقد يصبح الدور الذى يحتله هاما جدا ، بحيث يغير سلوك الاعضاء .

والى الحد الذى يشارك فيه عاطفيا ، فهو يفقد الموضوعية التى هى ميزته الكبرى . فهو يتصرف بغضب بدلا من أن يسجل هذا التصرف . وهو يسعى كى يبز أقرانه أو يرضى « الانا » بدلا من ملاحظة هذا التصرف لدى الاخرين . وهو يتعاطف مع المأساة الى الحد الذى قد ينسى معه تسجيل وقعها على الاعضاء وفوق ذلك ، فهو يعلم حالات التصرف الصحيحة ، وهو بهذا يسلم بأنهم طبيعيون تماما . وكنتيجة لهذا فانه سيفشل في تدوين هذه التفاصيل . وهناك أماكن شائعة تبدو وكأنها ليست جديرة بأى انتباه .

وأخيرا — وبطبيعة الحال — فانه يتضح لنا في كل من الملاحظة المشاركة وغير المشاركة فان خبرته تصبح فريدة خاصة به ، ولهذا فلن يكون في مقدور

باحث آخر أن يسجل نفس الحقائق . ولهذا ، سوف يكون هناك تقنين أفضل للمدلولات . وزيادة على ذلك ، فان سلوك المجموعة لا يتأثر كثيرا بالباحث فعلى الباحث اذن أن ينتظر المصادفات انه لا يستطيع أن يبدأ تجربة رزينة . او يقلب الوضع الاجتماعى ليغير مركزه ، أو يتركه كى يلاحظ ، مصادفة أكثر أهمية فى مكان آخر . وباختصار ، فان دور الملاحظ يتميز بكونه مشاركا .

والملاحظة غير المشاركة تجيب على بعض هذه الاعتراضات . فالملاحظ ينتقل من دور الى آخر خلال وجوده فى الميدان ، فيمكنه مثلا أن يشارك مع مجموعة صيادى السمك ، فى حين أنه — خلال الاستعدادات لاقامة احتفال دينى هام — سيقابل المشاركين السابقين ذوى الاهمية ، أو يسجل الترانيم الدينية أثناء الاحتفال . وهذا التغير يبدو أكثر وضوحا مع الحقيقة القائلة : أن نماذج المجتمع لا تتغير بدرجة كبيرة مع وجود شخص غريب بينها وقد عرفت مهمته .

أن الدارس يدرك بأن الملاحظة الغير مشاركة — تماما — صعبة . نحن لا نملك قاعدة قياسية ، للعلاقات أو الادوار الخاصة بعضو غير عامل يتواجد دائما ، لكنه لا يشارك أبدا — ولعل المجموعة والغريب القادم ، كلاهما لا يشعران بالارتياح . ومن الطبيعى فان القادم يكون من الصعب عليه أن يكون مشاركا عبقريا فى كل الطرق — فعالم الاجتماع مثلا ، لا يمكنه أن يصبح مجرما كى يدرس عصابة مجرمين دون أن يخاطر بكتابة باقى تقريره فى السجن . ولا يستطيع أن يكون عضوا فى جماعة أحداث ، أو قسيسا أو رجل شرطة أو غير ذلك .

ومن ناحية أخرى ، فليس من الضرورى أن يكون أداؤه لدوره كاملا . وبامكانه أن يشارك حتى لا يصبح غير مشارك ، بينما هو يقوم بدور المشاهد والملاحظ للنشاطات الاخرى . ولقد كان هذا أسلوبا تقليديا فى البحث الاجتماعى أستخدمه . . لوبليه Luplay منذ قرن مضى عن دراسته لاسر طبقات العمال الاوربيين ، كما استخدمه « ليندز Iynds » فى دراستهم الحديثة « لوسط المدينة » . وفى مثل هذه الحالات ، أشترك الباحثون فى الالعاب والرقصات أو حتى فى مجموعات الدراسة . ولقد أوضحوا أن غرضهم هو جمع الحقائق .

وهكذا ، فان عدم المشاركة فى الملاحظة شبيه بالمشاركة . والقيام بكلا الدورين اسهل من محاولة اخفاء الانسان لنفسه كلية وما هو ضرورى ، هو خطة جيدة للدخول فى المجموعة . فى دراسة « ميرتون Merton » عن الاسكان ، بلور فريق البحث خطة جيدة للتعامل المزدوج فى المجموعة — خاصة : فى أعلى المستويات الادارية الممثلة فى مدير المشروع الاسكانى ، وعامة : على مستوى كافة تنظيمات المجتمع — وهكذا فانهم عاشوا مشكلة التماثل مع المدير ، بينما حصلوا على التصريح الرسمى والذى كان ضروريا للعمل الميدانى . وقد أخل « وايت Whyre » فى دراسته عن « أولاد الحارات Corner boys » فى حارة ايطالية ، كمؤرخ محلى تحت رعاية « دوك Doc » العضو الهام فى

العصابة ، وفيما يشبه ذلك ، استقلت دراسة لا مجال للمشاركة فيها — عن فريق من الباعة ، يعتمدون على انفسهم ابتداء من الانتفاع باللوائح المؤدية الى وصول العضو كممثل فى الاتحاد ، وأيضا للحصول على اذن من الادارة للانضمام الفعلى للاتحاد .

وهذه هى تجربة معظم الباحثين الميدانيين ، حيث يقبل أعضاء الجماعة — بعد الفترة الاولية من التعريفات والشروع — الوجود الشرعى لهؤلاء الباحثين ، بينهم . واذا جاءت المقابلات الاولية مرضية ، تسهل نبذ الاتصالات التى تتبعها . وبالرغم من أن دور الباحث الاجتماعى ليس واضحا فى مجتمعنا ، الا أن أهميته معروفة بما فيه الكفاية . وكما هو موجود فى الفصل الخاص بالمقابلة ، فان الدارس المقتدر يمكنه شرح نشاطاته بصورة أفضل عن طريق تنفيذها عمليا وبشىء من المنافسة .

ولدى الباحث ثمة أدوار متعددة مفيدة يمكنه أن يختار من بينها . فهو غريب وبالتالى فانه غير مندمج عاطفيا مع الموقف الاجتماعى . وقد يحس بعض الاعضاء الحقيقيين نسبيا ، بالحرية فى الكلام عن التوترات والمسائل الحساسة ، والتى لا يستطيعون — مناقشتها مع أصدقائهم المقربين . والباحث أيضا مستمع ، وفوق ذلك فهو تلميذ شغوف بالتعلم ، وبشغفه هذا يؤكد ايمانه بأن المجتمع أو الجماعة شىء مهم . وبالاضافة الى ذلك طبعا ، ايجاد المزيد من التفاعل لادخال الباحث فى حظيرة المشاركة ، حتى لا يقتصر فى موقفه على دور المتفرج .

الوسائل المساعدة فى الملاحظة البسيطة

بسبب وجود عدد قليل ، نسبيا ، من الضوابط — المفروضة — على الملاحظ فى استخدام هذا الاسلوب ، يجب عليه أن يقوم ، تلقائيا ، باستخدام مجموعة من الادوات لتنظيم وتسجيل البيانات التى تعتبر جزءا من تجربته . وبطبيعة الحال ، فان العامل التنظيمى الاول بالنسبة لأى بحث ، لا بد وأن يكون هو نفسه واحدا من مشكلات البحث ذاته . ومن الفرضية والخطة الرئيسية للبحث ، يمكن استنباط مجموعة من الحقائق التى يمكن ملاحظتها . وهناك حقائق عديدة يجب تجاهلها تماما . كما يجب تجاهل غيرها من الحقائق ، اذا لم تكن هذه متصلة بخطة تسجيل الظواهر ، التى تعتبر هامة بالنسبة للمشروع .

أن الوثيقة الاساسية ستكون ، بالطبع ، أحد أنواع التجربة الميدانية . وقد تتخذ هذه ، شكل اليوميات « أو المفكرة » ، ومن الممكن أن تكون تسجيلا يوميا لكل فقرة مدرجة تحت عناوين مناسبة . وهكذا يمكن أن تكون هناك مجموعة من العناوين الفرعية تتناول التكيف الاجتماعى ، والمواقف الحرجة التى مدارها

الام والطفل ، التأديب والتوبيخ الصادر من الام ، عدوان الاطفال من مختلف الاعمار ، الفطام ، تدريب الطفل على استخدام التواليت ، وغير ذلك . وطالما أن الفعل الاجتماعى سريع فى حركته ، واليوم طويل حافل ، فمن المفيد جدا فى أغلب الاحيان ، الاحتفاظ بمذكرات دائمة ، وقد تكون هذه على هيئة بطاقات صغيرة تدون فيها كتابات موجزة ، أو رؤوس أقلام مكتوبة فى دفتر الملاحظات أو ملاحظات مطبوعة تم تدوينها خلال لحظات غريبة شاذة من اليوم . وفى مثل الحالة الاخيرة ، لا يكون بالمستطاع انجازها الا من خلال فترات المقابلة . وفى أية حادثة يجب أن يكون التسجيل كاملا نسبيا ، ولا يمكن أن يكون كذلك بدون الاستعانة بالملاحظات التى جمعت خلال اليوم ، وبالتالى القيام بمحاولة واعية لعمل سجل كامل فى نهاية اليوم . هناك خطأ شائع ، وهو الاعتقاد بأن التعليق أو الحادثة ، من الطرافة والاثارة بمكان ، بحيث لا يمكن نسيانه . وسوف يجد الطالب ، عندما يقرأ سجله الكامل بعد عدة أسابيع ، أن كثيرا من الفقرات تبدو جديدة وتحتوى على معان كبيرة مما كان واضحا وقت كتابة الملاحظات . وتعتبر كتابة التفاصيل ، أثناء الخطوات الاولية للعمل الميدانى ، هامة لان هذه التفاصيل ستنحسر بعد ذلك وتصبح متوقعة ومسلما بها .

وسواء دونت الملاحظات الاصلية أو لم تدون تحت عناوين فرعية ، فلا بد وأن يعاد تحليلها وتصنيفها — فيما بعد — الى فصائلها الصحيحة . وأسباب ذلك واضحة تماما فلو كانت الدراسة مركزة تماما ، لوجدنا هناك أنواعا معينة من البيانات تفوق غيرها أهمية ومهما يكن فان تحليل الملاحظات سيوضح لنا ، كيف أن التركيز كان منصبا على أنواع أخرى من البيانات . وهكذا فقد يكون الفرض المتوقع ، هو دراسة عملية التعايش الاجتماعى ، ولكن من الممكن أن تتركز الملاحظات على أحداث أكثر أهمية مثل الصراعات Conflicts والاغتياب Gossip والسلوب الجنسى اللازواجى Extramaritel وآداب المائدة . وقد تكون هذه ذات صلة بعملية التكييف الاجتماعى ، ولكن سواء كانت مختارة للغرض نفسه أو لغرض آخر ، فمن الممكن التعرف عليها عند ترتيب وتنظيم هذه الملاحظات . وفوق ذلك فانه من المحتمل تصحيح الاخطاء بينما العمل الميدانى ماض فى تقدمه ، والا فان وقتا طويلا ومالا كثيرا يضيع هباء . وفوق ذلك فان أثناء المحاولة المستمرة لتنسيق هذه الملاحظات ، سوف تظهر عرضا أنواع جديدة ، كتلك المشاكل المتصلة بالموضوع . ومن المحتمل الا يجد الدارس الوقت الكافى للقيام بعمليات التنسيق والتنظيم والفهرسية ، ولكن التقسيم النوعى المبدئى مفيد و أن يجرى يوميا .

وقد يرى الباحث أنه من المفيد أن يسجل كلا من الملاحظات والتفسيرات الخاصة بها معا . وعموما فان ذلك لا يمكن حدوثه تنظيميا ، وغالبا ما يكون هناك اغراء بتسجيل التفسيرات فقط ، لانها تبدو أكثر استيفاء للمعنى . ومع

ذلك فمن الافضل فصلها ثم ربطها عن طريق الفهرسة . فان كان الوقت محدودا — وهذا هو ما يبدو عليه الحال دائما — فان تسجيل الفقرة دون شرحها هو الاكثر فائدة .

ومن ناحية أخرى فمن الضرورى جدا أن تستمر عمليات التحليل وكتابة التقارير ، بينما العمل الميدانى سائر فى طريق التنفيذ . ومن المثالية بمكان أن ترسل هذه الحصيلة الى الزملاء خارج الميدان للاستعانة بمرئياتهم فى الحصول على المزيد من البيانات والمعلومات وغالبا ما يفشل الباحث فى مشاهدة أو تسجيل فقرات قد يعتبرها الانسان البعيد عن الميدان خاصة . ومثل هذه الاقتراحات قد تؤدى بعد ذلك الى اعادة تحديد أهداف البحث ، أو تتطلب برهانا لنتائج التجربة . واذا كان العمل الميدانى يؤدى بواسطة فريق ما ، فان التحليلات والتقارير الدورية ستناقش نفس هذه الاغراض . ومع ذلك ومن أجل الحصول على الثمرة المرجوة ، فان هذه التقارير يجب أن تخضع للنقد من أولئك الذين ليسوا فى الميدان . وقد يجد الباحث الميدانى — كلما أمكنه ذلك بأنه من المفيد له أن يترك ميدان البحث من وقت لاخر ، ليفكر فى المشكلات العارضة والبيانات المتحصلة ، وبمعنى آخر ، حتى يتمكن من القاء نظرة فاحصة على البحث برمته .

ويعتبر من قبيل التمرن والممارسة ، أيضا ، فى مثل هذا العمل الميدانى ، اضافة المشاهدة الغير مقيدة عن طريق جداول المعلومات . ومثل هذه لا بد أن توضع فى مجمل الخطة قبل بداية العمل ، ثم لا بد أن تراجع فى الميدان . وغالبا ما تحتوى هذه البيانات الرئيسية المنظمة ، مثل العمر والجنس ، وعدد الافراد ، والبناء الوظيفى ، والدين والدخل ، والتدرج الهرمى للقوة والتسلط ، النموذج الاسرى ... الخ . وحتى لو لم تكن هذه الفقرات المحور الرئيسى فى البحث ، فانها ستكون ذات قيمة جوهرية لما تقدمه من وصف للجماعة ، أو المجتمع المحلى أو المؤسسة . ولا بد أحيانا من استخدام جدول الاسرة المزود بأسئلة تفصيلية حول هذه الرقعة المدروسة لطرحها على كافة العائلات ، أو على عينة منها . ان أبرز مافى هذه الجداول هو بساطتها بحيث أن تسجيل ما هو مرئى منها فقط ، يغطى خلفية الصورة أو الاساس الذى تبدو من خلاله الوقائع الناتجة بوضوح . ويبدو كل شىء بالنسبة للباحث مألوفا ، حتى أنه يجب أن يتذكر تسجيل البديهيات . ولهذا السبب يمكن الاستعانة ، ثانية ، باستخدام العوامل المساعدة . وبالنسبة للجماعات الريفية أو حتى بالنسبة لمعظم المجتمعات يمكن استخدام الخرائط المتعددة توخيا للدقة فى تسجيل تحركات الناس وتقاربهم من بعضهم البعض ، أو بوضع بيانات مفصلة حول تركيبهم الطبيعى . ومن الممكن أيضا اعداد الرسوم البيانية السوسيومترية (القياسية) بشىء من الدقة لاظهار الانماط المتجاورة ، كالمحبة والكراهية ، أو التأثير المتبادل بين الافراد . وأخيرا ، هناك — بالطبع — محاولات متزايدة لاستخدام الادوات الحديثة — كالافلام والتسجيلات السلكية .

ورغم أن الملاحظة — المشاركة واللا مشاركة — الغير منضبطة ، تستخدم غالبا كصياغات استكشافية فى مشروع البحث . للتأكد مما اذا كان وضع الفرضية — المصممة بأحكام — تحت الاختبار فى الميدان ممكنا ، الا أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا بأن لا تعارض هناك بين هذه المهارات الفنية وبين سائر الادوات المستخدمة فى تقدير الكم أو تحديد القيمة . أما الاساليب الغير رسمية فمن الممكن ادخالها (فى البحث) عن طريق : الملاحظة الدقيقة جدا والاستبيانات المفصلة ، والاختبارات النفسية والاجتماعية . وأبعد من ذلك ، فمن الممكن تقدير عدد البروتوكولات (أو الصكوك) الخاصة بتواريخ الحالة والملاحظة الميدانية وذلك بواسطة أساليب التقنين الكيفى . وهكذا ، فان ما ينجزه عالم الاجتماع أو عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بالطريقة الغير منظمة للوصول بها الى أية نتائج عامة ، انما يمكنه الوصول اليه باستخدام اجراءات يعتمد عليها بصورة أكبر .

(الملاحظة المنظمة = الضوابط المفروضة على الملاحظ والملاحظ) :

من الواضح أنه كلما ازدات الفرضيات العلمية دقة وانضباطيا ، كلما استوجب ذلك زيادة مماثلة فى دقة مضمون البيانات والمعلومات . حقا أن الملاحظة البسيطة تعتبر ذات نفع أكثر فى الدراسات الاستكشافية ، ولكن الباحث سيتبين تدريجيا ، أنه بحاجة لتدعيم ملاحظاته ، وذلك بالجداول الموضوعة بعناية ، وبالاستفتاءات الاستبيانية ، وبالاختبارات وأيضا بالضوابط الجيدة لفرضها على أساليب الملاحظة ، ومما هو متعارف عليه بالنسبة للتجربة العامة فى كل علم ، أن ادراك الملاحظ الفرد يجب تعديله بشتى الطرق . كما أن التدقيق والمراجعة على مميزاته ومدركاته الخاصة وأحاسيسه الغامضة ، يجب أن تدخل فى مدار البحث . كما يجب أن تكون هناك مقاييس موضوعية لتصحيح مقاييسه وأحكامه وخلافا لذلك ، فان العلماء الاخرين سيجدون صعوبة فى التوصل الى نفس هذه الحقائق أما الانطباعات الخفية الموجودة فى الجسم البشرى فتخضع لمقاييس أنثروبولوجية . كما أن تقدير البعد والمسافة يمكن التوصل اليه من خلال الخرائط الصحيحة . وكذلك فان العوائق العارضة فى أنماط الصداقة ، يمكن تمحيصها وفحصها عن طريق الحصاءات الدقيقة والجداول الموضوعية ، والرسوم البيانية السوسيومترية (أعلى المقاييس الاجتماعية Socimetric) ومن ثم يمكننا أن نفكر فى المشاهدة المنظمة كمرحلة تالية فى تقدم مشروع البحث . وكلما نمت أفكارنا بعمل وصرامة ، فان رغبتنا — عندئذ — فى الاعتماد على الملاحظة الغير منظمة . وطالما أن العالم الاجتماعى غالبا ما يشبه — فى موقع الدراسة — عالم الفلك أو عالم البراكين أو عالم النفس المقارن ، الذى يدرس معيشة الحيوانات فى بيئتها الطبيعية ، حيث يتعذر فى مثل هذه الحالات التحكم فى موضوع البحث واخضاعه للضوابط المباشرة ، وبالتالى يجب على العالم

(الباحث) أن يضع نفسه بنفسه تحت هذه الضوابط . وبهذا فانه ينمى مداركه ، وفى نفس الوقت ، فانه يدرأ عن عمله اى هجوم قد يوجه اليه فيما بعــــد . والباحث عندما يسجل : كيف توصل الى مشاهداته ، وتحت أى ظروف ، وفى اى زمان ، وما الى ذلك ، فانه يتيح بذلك لغيره من العلماء فرصة الاطلاع على معلوماته ومعرفة الحدود التى وصلت اليها بياناته ، ليتمكنوا — على ضوئها — من مواصلة البحث والملاحظة .

وفى مثل هذه الاحوال ، فان المقابلة الحقيقية والقوائم الاحصائية والجداول البيانية والخرائط ، تعتبر جميعها من الضوابط على الملاحظ (الباحث) . فهى تقوده الى نوعيات محددة من اشكال الملاحظة ، والى التعليمات المتعلقـــــة باستخدام أدوات البحث ، والتى تعتبر أيضا تعليمات موجهة للباحثين الاخرين . وعلى أى حال فمن المفيد — هنا — التركيز على أهمية المشاهدة المنظمة المقيدة بمعناها الواسع ، كما هو مشاهد فى عملية التفاعل الاجتماعى .

وهنا — كما هو الحال فى الملاحظة الغير منظمة — فان الباحث لا يستطيع عادة الالمام بحدود نشاطات الافراد الملاحظين الى درجة كبيرة . ولكنه عوضا عن ذلك يحاول تنظيم عملية المشاهدة . وكنتيجة لذلك فانه قد لا يكون مهيـــأ أو مستعدا لمواقف جديدة ، كما قد لا تكون هذه المواقف مفيده بالنسبة لموضـــوع مشكلته . وفوق ذلك ، فان دور الملاحظ يبقى مشكلة يجب أن تؤخذ فى الحسبان عند وضع الصيغة — النهائية للبحث . وكثيرا ما يؤثر الملاحظ على نتيجـــــة الملاحظات بصورة ما . وما على العالم فى مثل هذه الحالة ، الا أن يقلل من هذا التأثير يحصره فى حدود ضيقة أو بقياس حجمه على الاقل .

وهكذا يجب أن ناخذ فى الاعتبار :

١ — ما اذا كان الموقف طبيعيا أو مصطنعا .

٢ — ما اذا كان هؤلاء الملاحظون على دراية أو لا يدرون بعملية الملاحظة .

وفى معظم حالات الملاحظة الغير منضبطة ، يكون الموقف طبيعيا ، ويكون هؤلاء المشاهدين على دراية بأن هناك رقيبا يلاحظهم . ومثل هذا القول يصدق أيضـــا فى حالة الملاحظة المنضبطة ، شريطة أن تـــكون الفوارق أو الاختلافات بينهما يسيرة محتملة ان الاداة العامة فى ملاحظة الاطفال فى دور الحضـــانة ، على سبيل المثال — هى الشاشة ذات المنظور الواحد One way Usual Screen ودراسة العدوان والقيادة والاتصال واشكال اللعب ، تعتبر كلها سهلة . وغالبا مايتم تنفيذ هذا عن طريق فريق من المشاهدين يسجل كل منهم أشكالا معينة من السلوك . ومن الممكن أن يتفق وقوعها فى وقت واحد من خلال استخدام وحدات

زمنية مسجلة على أوراق التسجيل ويمكن كذلك عمل تسجيلات سلكيـــة أو ملحوظات مكتوبة باليد حول الموضوع . وكثيرا ما يزداد ـ بالمران ـ مـــدى التكامل بين عناصر الملاحظة ، عن طريق مقارنة ما يتضمنه سجل الدارس مـن نماذج وحركات ، ومقارنتها بتلك الملاحظات المفصلة . وفى مثل هذا النوع من الملاحظة ، يكون الاطفال فى وضع طبيعى ، دون أن يدركوا لعملية الملاحظـــة . وكما نلاحظ (فى الفصل القادم) أنه بامكان الباحث أن يخلق مواقف حقيقيـــة جـديدة بادخـــال منبهات Stimuli ودون أن يعرف الاطفال سير التجربة أيضا .

ويمكن توجيه المشاهدة المنضبطة الى المواقف الطبيعية والتى يكون فيها الاشخاص واعين بأنهم تحت الملاحظة . وقد نفذ هذا بنجاح عن طريق « مجموعة البحث الصغيرة » كما استخدمت طريقة اخرى ذات مجال أوسع فى البحث تهدف الى دراسة التفاعل بين أعضاء جماعة نظامية وأخرى غير نظامية ، تقـــابلوا وجها لوجه . وعندما يأتى بالمجموعات لهذا الغرض ، فان الموقف يكون مصطنعا ، ولكن غالبا ما تقوم هذه الجماعات المدروسة بتادية نشاطاتها المعتادة . وفى الحالات الاخرى فقد وجد انه بعد فترة أولية من الحجز والحصر بحضـــور الملاحظين أو الاعلان عن حضورهم فان المشتركين يتصرفون بطريقة طبيعية . وهكذا فان من الممكن الحصول على بعض التقديرات العددية الموجودة ضـمن البيانات المتحصلة ، حتى ولو لم يغير الاشخاص سلوكهم بطريقة أساســية ولكنه من غير الضرورى التطبيق على أن استخدام أساليب المشاهدة المحددة ، بما فى ذلك الوسائل الميكانيكية والافلام .... الخ مثمرة ، فقط ، حين تصـبح أنواع البيانات والافتراضات مطورة تماما . والا فان تحليل المادة الناتجة يصبح غير ذى فائدة وبالتالى فلن تستطيع النتيجة المتحصلة ، تبـرز المصروفات المبذولة فى سبيلها .

والمشاهدة المنظمة تحد من تحيز الملاحظ جزئيا عن طريق جعل الاشخاص المبحوثين يشعرون بأن الموقف طبيعى ، ولكنها فى المقابل تضع على عاتـــق الملاحظ مزيدا من الضوابط فى شكل وسائل ميكانيكية أو ملاحظة جماعية وأفــلام وتسجيلات وجداول واختراعات وتطوير الفئات النوعية اللازمة لتحليل عناصر السلوك بسرعة أكثر أوضاع الملاحظة نقاء وتنظيما وبين وضعها فى المختبـر الحديث ، حيث يجرى تطبيق الضوابط على الملاحظ والملاحظ . وذلك أن هذا الوضع ، سواء كان مستنبطا أو مدبرا (أى سواء نتج بالاستنباط أو بالاعداد) انما يتم خلال تكوين المنبهات Stimuli المحددة ، فى حين ان المشاهدات نفسها تصبح مقننة الى أبعد مدى ممكن . وكما يلاحظ الدارس من الفصـــول المتعلقة بصياغة الادلة ، أن تلك الدارسات تتضمن الكثير من أشباه التجـارب (أو التجارب الناقصة) Qussi - experiments التى تفتقـد فيها

البراهين بعض أركانها ، كما هو الحال فى المجموعة الضابطة . وهكذا ، فقد تختلف طريقة ملاحظة أطفال مدرسة حضانة أثناء لعبهم ، عنها فى حالة اعطائهم ألعابا فردية لخلق جو من المنافســة بينهم ، أو بتغيير دور مربية الحضانــة ، أو ما الى ذلك .

وعلى أية حال ، فان ادخال متغيرات تجريبية على الموقف لن يخلق مشاكل جديدة على عملية الملاحظة . وسواء كان الاشخاص المستهدفون للبحث يعرفون أو لا يعرفون بطبيعة التجربة ، فلا بد وأن يؤخذ دور الملاحظ بعين الاعتبار عند تخطيط واعداد الدراسة . كما أن عدم احاطة المفحوصين بالتجربة ، لن يحقق لنتيجة التجربة مزايا كبيرة ، اذا كانت أساليب الملاحظة مهلهلة وغير منظمة . ويمثل الملاحظات دور الوسيط أو الموفق بين الموقف الفعلى ومجموعة البيانات والادلة . وهكذا ، بامكانه أن يؤثر فى الموقف الفعلى عن طريق تدخله النشط ، أو أن يؤثر على البيانات ، اما لمهارته عند الملاحظة ، أو عند تسجيل الوقائــع . وأيا كانت الحالة ، فان البحث النهائى قابل للتغيير . وكنتيجة لذلك ، علــى الباحث أن يضع فى اعتباره بأن « دور الملاحظ » لا يعنى فقط تلك السبل العديدة التى يستطيع الباحث بواسطتها أن يغير سلوك المجموعــة أو الاشــخاص المبحوثين ، ولكن بامكانه أيضا أن يتبين كافة الطرق التى يستطيع الملاحظ من خلالها أن يؤثر النتائج النهائية للبحث . وبهذا المعنى ، عليه أيضــا أن يسقط من حسابه عملية المقابلة .

لقد كانت العلاقات الاجتماعية داخل المصنع مدار بحث الكثير من الدراسات التى قامت نسبيا ، على القواعد التجريبية ، كما سبقت الاشارة اليه . ولعــل الدراسة التى قام بها « هاوثورن Hawthorne » تتضمن التوضــيح الوافى للسبل المعقدة التى يؤثر الملاحظ بواسطتها على حصيلة البيانات . لقــد ساد فى الفترات الزمنية السابقة ، الاهتمام بدراسة المشكلة «النفسية العضوية» لعمال الانتاج تحت الظروف الغير منتظمة للاضاءة . وقد قدم الباحثون مجموعة من الوصايا والتحذيرات الدقيقة ، ليؤكدوا بها أهمية وضرورة التنظيم والدقة أثناء الملاحظة . ومهما يكن ، فقد أثمر العمل بوضوح نتائجا غير عادية ، حيث ازداد ناتج العمل ، لا بزيادة حجم الاضاءة ــ فحسب ، ولكن أيضا بتخفيف حجم الاضاءة الى ما يوازى ضوء البدر الساطع ليلا وعلى أية حال ، فان تحليل البحث المتعلق بالاضاءة أثبت : أن أيا من هذه الضوابط أو المتغيرات التى تم قياسها ، لم يكن عاطفا جازفا فى تأثيره ، بقدر ماهى عملية « حقيقة » الشىء الملاحظ « أى المدروس » ولقد تجاوب الاشخاص المبحوثين مع الظروف الاجتماعية الطارئة ، التى كانوا خلالها ــ هم وعملهم ــ موضع عناية ورعاية واهتمام ، لم يسبق لهم أن عوملوا بمثله خلال تجربتهم فى المصنع .

ومن جهة أخرى ، هناك دراسات متعددة حول التكوين الاجتماعى للادراك ، أوجدت أوضاعا شبه تجريبية ' كان المفحوصون خلالها على علم بأنهم ملاحظون ولكنهم لا يدركون غرض « المتغيرات » أو معناها . وربما أعتبرت دراسة « شريف Sherif » عن / « تأثير الدافع الذاتى Autokinetic effect » واحدا من الحالات التقليدية (أو الكلاسيكية) . فى دراسته هذه وضع أشخاص الاختبار فى غرفة مظلمة تماما ، الا من خيط رفيع من الضوء يتخلل الغرفة . ثم أخبروا بأن الضوء سيبدأ فى التحرك فورا ، وطلب اليهم أن يقدروا حجم هذه الحركة . وهكذا فان خلق المواقف الاجتماعية المختلفة يرمى الى قياس « تأثيرات الجماعة على المستوى الفردى » ومعرفة الفوارق بين الجماعات ، وما الى ذلك . فى التجربة السابقة ، تم افهام أشخاص الاختبار عكس الحقيقة ، بحيث أن الضوء لم يتحرك ، كما انهم ، بطبيعة الحال ، لم يبلغوا بشىء عن أهمية التأثيرات الاجتماعية . مثل هذه الخطة اذن ، تزيد من الرقابة على الملاحظ والملاحظ فى أن واحد ، حتى وان كان أشخاص الاختبار على علم بأنهم تحت الدراسة .

الخلاصة

تعتمد كافة الدراسات العلمية على الملاحظ كلية . وكلما تقدم العلم فان فرضياته تحتاج الى بيانات أكثر دقة وأحكاما . وفى العلوم الطبيعية فان حواس ومدارك الملاحظ أو الباحث تصبح أكثر اتساعا وأكثر تقنينا باستخدامه للاجهزة الآلية الحديثة . فان الملاحظ أخذه بعين الاعتبار على أنه قابل للتغير دائما ، أما بالنسبة لعلم الاجتماع ، فلابد من جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات قبل القيام بوضع خطة ما لتجربة حقيقية ، وأن تستخدم الملاحظة المشاركة وغير المشاركة لتحقيق هذه الغاية فى كلا الحالتين ، فان المجموعات التى تدرس قد تدرس أو لا تدرك أن البحث يستهدفها ومهما يكن ، فان الموقف لا يكون عادة مصطنعا . وقد يهدف عالم الاجتماع الى الدخول فى المجموعة كعضو حقيقى فيها ، أو كعضو له دور مقبول أكثر من دوره الحقيقى . ومن ناحية أخرى ، وبعد فترة أولية لتوثيق الصلة بأمكان الباحث الغير مشارك أن يشارك جزئيا فى معظم العمليات الاجتماعية دون أن ينكر دوره الحقيقى فى البحث .

ومعظم الدراسات تسبقها غير منضبطة للظواهر المتصلة بالموضوع . وهذا يقدم بيانات أولية ذات قيمة كبيرة ، بينما يساعد فى تطوير المزيد من المشاهدات المحددة التى ستحتل مكانها فى المرحلة التالية من البحث . ويمكن أن تطبق الضوابط عى الملاحظ عن طريق التحكم فى الموقف نفسه ، بتقييد

أو تحديد مشـــاركة الملاحظ (الباحث) بدقـــة وذلك باســـتخدام الفئـــات المحددة ، واستغلال الجداول والوســـائل المقننة فى المشـــاهدة ، والاحتفاظ بالتسجيلات . والتجربة المعملية لا تخلق مشاكل جديدة زيسادة على تلك التى تواجهها المشـــاهدة المنظمة المنضبطـــة ، كما هو الحـــال فى دراسة المجموعات الصغيرة . وفى كـــلا الحالتين فان الحاجة الى بيانات دقيقـــة ، يقوم علمـــاء أخرون بمراجعتهـــا يجب أن تؤدى هذه الحاجـــة الى استخدام أدواته اللازمـــة ، والتى غالبا ما تتضمن الوســـائل الميكانيكية كالافـــلام والتســـجيلات ، ومقياس تســـجيل التفاعل ، واجهزة التوقيت وغيرهـــا . ومع ذلك يجب أن يظـــل عالقـــا فى أذهاننا بصـــورة جلية بأننا انما نبحث عن البيانات والادلة التى تدعم أو تدحض نظـــريات أو فروضـــا علميـــة . ان توخى الدقة ضرورى ، ولـــكن تحقيقـــه فى البيانات ذات الاهميـــة الضئيلة لا يكفى لان يكون مبررا لاستخدام مثل هذه الادوات ... نحن لا نستطيع أن نزيـــل تأثير الملاحظ فى العلم ، ولكـــن فى مقدورنا أن نحصر ونقيس هذا التأثير لنحصـــل بالتالى على شىء من الضبط والرقابة على المتغيرات فى البحث .



٢ — كشف البحث Schedule

كشف البحث هو الوسيلة الشائعة الاستعمال لجمع البيانات اللازمة للبحوث الاجتماعية خصوصا فى المجتمعات التى لم يحصل أفرادها على قسط كاف من التعليم أو كانوا غير ملمين بالقراءة والكتابة . وفى هذه الحالة يقوم الباحث بمقابلة كل واحد من أفراد البحث فيوجه اليه السؤال بعد الآخر ، كما هى مرتبة بكشف البحث ، ويسجل الاجابات التى يحصل عليها فى الاماكن المخصصة لذلك بالكشف . ومن أهم مزايا كشف البحث ما يلى :

١ — انه يوفر على الذاكرة عناء حفظ الاسئلة اللازمة لتحقيق أهداف البحث ، اذ انه يحدد هذه الاسئلة ويضمن عدم تشعبها . وهو بذلك يؤدى الى جمع بيانات موحدة من جميع أفراد البحث خصوصا اذا كان عددهم كبيرا واشترك فى جمع البيانات منهم أكثر من باحث واحد .

٢ — يساعد كشف البحث على جمع بيانات بالمشاهدة المباشرة لبعض الظواهر ودون توجيه أسئلة قد تكون منفردة أو محرجة ولا يحتمل الحصول على اجابات دقيقة لها . فمثلا يستطيع الباحث عند زيارته لاسرة ما أن يشاهد حالة أثاث المنزل ووسائل الاضاءة وملابس الافراد والطريقة التى يتعاملون بها وغير ذلك من البيانات التى لا يمكن السؤال عنها لما قد يكون لذلك من أثر سىء فى نفس المستجوب قد يجعله يرفض الاجابة على باقى الاسئلة أو يعطى اجابات غير دقيقة .

٣ — تصلح هذه الوسيلة فى البحوث التى تتطلب توجيه أسئلة كثيرة العدد ، اذ أن الباحث اللبق يستطيع أن يكسب معونة أفراد البحث بعد اقناعهم بما لهذا البحث من نتائج تعود على المجتمع بالنفع والفائدة ، كما يستطيع أن يسهل مهمتهم بشرح الاسئلة بما يتناسب وادراك كل منهم وصرف النظر عن الاسئلة التى يبدى المستجوب عدم الرغبة فى الاجابة عليها .

٤ — ليس من المستحب ولا من المتيسر أن يكلف افراد البحث بقراءة تعليمات لشرح معانى الاسئلة الموجهة اليهم فقد لا يكون لديهم الوقت الكافى أو الاستعداد لقراءة هذه التعليمات . لهذا يعتبر كشف البحث من أنجح الوسائل لجمع البيانات فى حالة البحوث التى تتطلب توجيه أسئلة يكون من الصعب فهمها دون شرح خاص ، وذلك لان الباحث سيقوم بتوضيح معانى الكلمات وشرح المقصود من الاسئلة كلما استدعى الامر ذلك .

٥ — من الملاحظ أن الشخص لا يجيب على السؤال الذى يوجه اليه ، ولكنه يجيب على المعنى الذى يفهمه من هذا السؤال ، فاذا كان هذا المعنى مخالفا لما هو مقصود فعلا من السؤال كانت الاجابة عديمة القيمة بالنسبة للهدف المنشود منه ، بل قد تؤدى الى نتائج غير دقيقة . ومن النادر أن يحدث ذلك فى حالة كشف البحث ، اذ أنه اذا اتضح للباحث أن المستجوب أعطى اجابة لا تتفق مع المعنى المقصود من السؤال فانه يقوم بشرحه وتوضيحه حتى يحصل على الاجابة الدقيقة له .

٦ — اذا شك الباحث فى صحة الاجابات التى يحصل عليها أو اتضح له أن فيها تناقضا ظاهرا فانه يستطيع مناقشة الشخص الذى يجيب على الاسئلة حتى يحصل على أدق ما يمكن من البيانات .

٧ — باستخدام كشف البحث كأداة لتسجيل البيانات يكون من المؤكد الحصول على اجابات لكل الاسئلة ومن جميع أفراد البحث (أو على الاقل من نسبة كبيرة جدا منهم) خصوصا اذا أحسن عرض الغرض من البحث عليهم واختار الباحث الوقت المناسب للاتصال بكل منهم .

٨ — اذا تبين عند مراجعة الكشوف أن أحدها قد أغفلت الاجابة على بعض أسئلته أو كانت بعض الاجابات غير واضحة أو متناقضة أو غير متمشية مع المعانى المقصودة من الاسئلة ، فانه يمكن معاودة الاتصال بصاحب هذه الاجابات لاستكمالها أو تصحيحها .

أما عيوب كشف البحث فأهمها :

١ — كثرة التكاليف والمجهودات التى تبذلها الهيئة المشرفة على البحث فى اختيار الباحثين (جامعى البيانات — العدادين) وتدريبهم ودفع مرتباتهم وأجور انتقالهم .

٢ — اذا كان الباحث أو مندوبه (جامع البيانات) متحيزا لفكرة معينة فان اتصاله الشخصى بأفراد البحث يتيح له فرصة التأثير عليهم وتوجيه الاسئلة اليهم بحيث يحصل على اجابات تؤيد فكرته . وهذا بالطبع يتنافى مع الروح العلمية التى يجب أن يتصف بها كل باحث .

٣ — لا يصلح كشف البحث فى الحصول على بيانات قد تضر بالشخص الذى يدلى بها ضررا ماديا أو أدبيا ، وذلك مثل الاسئلة عن تعاطى المخدرات أو العلاقات الجنسية أو اعتناق المبادىء السياسية التى تحرمها الدولة ، وما شابه ذلك .

(ثالثا) صحيفة الاستبيان (الاستقصاء) Questionnaire

لا تكاد تختلف هذه الوسيلة لجميع البيانات عن سابقتها الا فى طريقة ملئها فهى تسلم الى المستجوب أو ترسل اليه بالبريد أو تنشر على صفحات الجرائد والمجلات ، فيقوم بتسجيل اجاباته على أسئلتها ثم يعيدها الى الهيئة المشرفة على البحث . ولصحيفة الاستبيان ــ كما لكشف البحث ــ مزايا وعيوب أهمها ما يلى :

أ ــ المزايا :

١ ــ قلة التكاليف والمجهودات اللازمة لجمع البيانات وخصوصا اذا ارسلت بالبريد أو نشرت على صفحات الجرائد ، وهذا يوفر عناء اختيار جامعى البيانات وتدريبهم ودفع أجورهم وغير ذلك من النفقات .

٢ ــ تصلح فى البحوث التى تتطلب الحصول على بيانات لا يمكن الجهر بها لما قد ينتج عن ذلك من ضرر أو لان التقاليد لا تسمح بالتصريح بمثل هذه البيانات . فمثلا ليس من المحتمل أن يصرح عامل بما يعيب صاحب العمل ؛ كما أنه لا ينتظر ان يجاهر شخص ما بالمبدأ السياسى الذى يؤمن به اذا كان يعيش فى دولة تحرم اعتناق ذلك المبدأ وتعاقب عليه . وليس من المتوقع أيضا الحصول على اجابات صادقة للاسئلة عن العلاقات الزوجية أو عن تعاطى المخدرات وما الى ذلك من الموضوعات الحساسة . أما اذا أتيت الفرصة لابداء الآراء فى مثل هذه المسائل بطريقة لا تؤدى الى التعرف على صاحبها ، فانه فى الغالب لن يحجم عن ابداء رايه بصراحة وصدق .

والوسيلة الوحيدة لجمع بيانات من هذا القبيل من صحيفة الستبيان بشرط عدم مطالبة المجيب بذكر اسمه عليها ، كما يجب عدم وضع علامات أو ارقام على الصحيفة حتى يطمئن الى أنه لن يستدل عليه .

٣ ــ هذه الطريقة لا تجعل البحث عرضة لتحيز بعض جامعى البيانات .

ب ــ العيوب :

١ ــ لا يمكن استخدامها الا اذا كان افراد البحث مثقفين أو على الاقل يجيدون القراءة والكتابة .

٢ ــ لا يمكن التوسع فى الاسئلة الموجهة الى افراد البحث لان ذلك يؤدى فى الغالب الى اهمال الاجابة عليها .

٣ ــ تحتاج الى عناية فائقــة عند صياغــة الاســئلة حتى تكون فى غاية الوضــوح ولا تحتمل التــأويل ، لان افراد البحث سيجيبون على هــذه الاســئلة دون مساعد أو شرح من البــاحث ، فاذا لم يفهم المستجوب المعنى المقصــود من ســـؤال ما اهمل الاجابة عليه ، اما اذا أســاء فهمه فان الاجابة تكون غير صالحة لتحقيق الغرض الذى وضع من اجله هذا الســؤال .

٤ ــ اذا كان البحث يستدعى عدم كتابة اسم المجيب على الصحيفة حتى يكون صريحا فى اجاباته لاطمئنانه الى عدم التعرف على شخصيته ، فانه لا يمكن الرجوع اليــه لاستكمال ما قــد يكون بالصحيفــة من نقص او لتصحيح الاخطاء أو الاستفســار عن الاجابات المتناقضــة ان وجدت .

٥ ــ قلة عدد الردود التى تصل من افراد البحث مهما وضــع الباحث من التســهيلات والمغريات على الاجــابة ، خصوصــا اذا كانت الصحائف ستعاد اليــه بطريق البريد .

ومن أهم أسباب عدم رد الصحيفة مايلى :

أ ــ الاعتقــاد بعدم اهمية موضوع البحث .

ب ــ قــد يعتبر البعض أن الاســئلة الموجهة اليهم هى تدخل فى شئونهم الخاصــة .

ج ــ قد يظن البعض أن نتيجة البحث واضحة ومعــروفة وانه لا داعى لضياع الوقت فى الرد على اســئلة الصحيفة .

د ــ قد لا يــكون لدى بعض أفراد البحث الوقت الكافى لقراءتها والاجابة على أســئلتها .

٦ ــ قد يهــزأ بعض الافراد بموضوع البحث فتكون اجابتهم تهكميــة أو مغرضــة وبالطبع لن تكون للردود فى مثل هذه الاحــوال أى قيمة بــل ســتؤدى الى ضياع بعض وقت الباحث فى قراءتها .

٧ ــ الصحائف التى تعــاد الى الهيئة المشرفــة على البحث تكون فى أغلب الحالات متحيزة وغير ممثلة للمجتمع موضــوع البحث خصوصــا اذا كانت هنــاك فوارق ملموســة بين أفراده وكان بعضهم يهتمون بموضوع البحث أكثر من البعض الاخــر ويرغبــون فى أن تــكون نتــائج البحث مؤيدة لوجهة نظرهم . ولعل ذلك كان السبب فى فشــل الاستقصاء الذى أجراه معهد جالوب بالولايات المتحدة للتنبوء بنتيجــة انتخابات رئاسة الجمهوريــة

فى سنة ١٩٤٨ ، فمن المحتمل أن مؤيدى ترومان كانـوا واثقين من نجاحه فلم يهتموا بارسال آرائهم ، بينما كان أنصـــار ديوى معارضين لسياســة ترومان بـــل وساخطين عليها ، لهــذا كانوا يهتمون بـــكل ما من شأنه اظهر رجاحة كفتهم وتفوقهم عليه فأرسلوا ردودهم وبذلك جــاءت نتيجــــة الاستفتاء فى صالحهم خلافــا للحقيقــة التى ظهرت بعد الانتخابات .

وهناك بعض الاساليب والوسائل التى تؤدى الى التقليـــل من أثر العيوب السابقة . ون أهم هذه الاساليب عرض الفكـرة الاساسية من البحث عرضـــا جذابـــا مع توضيح الفوائـــد العلمية والعمليـــة لنتائجــه وتضمين ذلك فى خطاب رقيق موجه الى افراد البحث لكســب تأييدهم وضمان عنايتهم بملء الصحيفة وردهـــا . ولتســهيل مهمتهم اذا طلب منهم اعــادة الصحيفة بالبريد يستحسن أن يرســل الى كل منهم مع صحيفـــة الاستبيان ظــرف عليــه طابع البريد وعنوان الهيئة القائمة بالبحث .

تصميم الاســـــتمارة

بعد اختيار نــوع الاستمارة المناسبة لموضــوع البحث ولحالة الافــراد الذين ستجمع منهم البيانات ، تكون الخطــوة التاليــة هى تصميم هذه الاستمارة . وحتى يمكن الاطمئنـــان الى قيمة النتائــج التى سنحصل عليهـــا من البيانات المعطــاة بالاستمارة يكون من الواجب بذل العنــاية الزائدة عنــد اعدادهــا وذلك باتباع عدة قواعد أساسية . وتـــكاد تكون هذه القواعد واحدة بالنسبة للنوعين الرئيسيين للاستمارات الاحصائيـــة وهما كشـــف البحث وصحيفـــة الاستبيان . وســـوف نشير الى ما قـــد يكون هنـــاك من اختلافـــات فى قواعد تصميم احداهما عن الاخرى . وأهم القواعـــد الواجب اتباعهـــا عند تصميم الاستمارة الاحصائية ما يلى :

(اولا) من حيث الاســـئلة التى تشتمل عليها الاستمارة :

يميل الباحث فى الغالب الى اضافة كل ســؤال يرى انـــه قـــد تكـــون لـــه أهميـــة أو فائـــدة . ولكن يجب تجنب مثل هذا الاتجاه خصوصـــا اذا زاد عـــدد أفراد البحث زيـــادة كبيرة ، لان كل ســـؤال يضاف فى مثل هـــذه الحالة يكلف الباحث نفقـــات ومجهـــودات كبيرة فى جميـــع مراحل البحث ، كما أن كثرة عـــدد الاســـئلة قـــد يؤدى الى عدم الحصول على اجابات كاملة من جميع أفراد البحث .

وتحديد اسـئلة الاستمارة يجب أن تكون لدى الباحث فكرة واضحـــة عن فائدة البيانات التى سيحصل عليها من كل ســـؤال يرى اضافته الى الاستمارة ، والى أى درجـــة ستحقق هذه البيانات الغرض من البحث . واذا تبين أن الفائـــدة من ســـؤال ما لا تتناســـب مع الزيـــادة فى التكاليف الناشـــئة من اضافته الى الاستمارة وجب اهماله .

ولكى يتأكـــد الباحث من أن الاستمارة ســـتكون شـــاملة لجميـــع البيانات اللازمة لتحقيق اغراض البحث ، يكون من المفيـــد اعـــداد مجموعـــة مـــن الجـــداول الاحصائية قبل تصميم الاستمارة بحيث اذا ملئت هذه الجـــداول ثم حللت بياناتهـــا احصائيـــا أمكن الوصول الى النتائـــج التى يهدف اليهـــا الباحث . ويطلق على هذا النـــوع من الجداول اســـم « الجداول الخياليـــة " Ghost tables وعلى ضوئها يمكن تحديد وصياغـــة الاســـئلة اللازمة للبحث واستبعاد ما عداهـــا .

(ثانيا) من حيث صياغة الاسـئلة :

١ ـ يجب أن تكون الاسئلة واضحة وسـهلة الفهم والا يكون لكل منها أكثر من معنى واحـد بالنسبة لجميـع أفراد البحث مهما اختلفت مداركهـم وثقافاتهم فاذا تعـذر ذلك وجب وضـع التعليمات التى توضـح المعـانى المقصودة فمثلا عند السـؤال عن عـدد أفراد الاسرة يكون من الواجب شرح المقصـود من كلمة « أسرة » اذ أنهـا لا تحمل نفس المعنى بالنسبة لجميـع الاشـخاص ، فقـد يفهمها البعض على أنهـا المجموعـة المـكونة مـن الزوج وزوجته وأولادهما ، وقد يضيف البعض الى هذا المعنى شرط الاقامة فى مسـكن واحد وبذلك يسـتبعد الاولاد غير المقيمين مع الاسرة . وقـد يفهمها بعض الافراد على أنها جميـع الاقارب المقيمين فى معيشـة احـدة ؛ وقـد يكون معناها جميع الاشخاص المقيمين فى معيشـة واحـدة بغض النظـر عن صلة القرابة .

٢ ـ ومن الواجب فى كشف البحث ان تكتب التعليمـات فى صفحة (أو أكثر) منفصـلة عن الكشـف ، وتشرح هذه التعليمـات لكل شخص سيقوم بجمع البيانات ويعطى نسـخة منها للرجوع اليها عند الحاجـة . أما فى حالـة صحيفـة الاستبيان فيجب الابتعـاد ما أمكن عن الاسـئلة والكلمـات التى تحتاج الى شرح لبيان معانيهـا ، واذا احتـاج الامـر الى وضع تعليمات فيجب أن تكون فى غايـة الاختصـار والوضوح ، ويسـتحسن أن ترفق مـع السـؤال الموضوعـة من أجله وأن تكتب بحروف أصغر وألا توضـع جميـع التعليمات فى نهايـة الصحيفة ولا فى صحيفة منفصلة .

٣ ـ يجب على الباحث أن يحاول صياغـة الإسـئلة بحيث تكـون الاجابة عليها بكلمة « نعم » أو « لا » أو بعدد . كما يجب حصر جميع الاجابات المحتملة على كل سـؤال كلما أمكن ، وبذلك تكون مهمة الشـخص الذى سيقوم بملء الاستمارة هى مجرد وضـع علامة أمـام الاجابة المناسـبة . فمثلا فى حالة السـؤال عن الحالة الزوجيـة يطلب وضـع علامة امـام احدى الكلمات التالية :

لم يتزوج . . . متزوج . . مطلق . . . أرمل . . .

ومن مزايا هـذه الطريقة بالاضافة الى سـهولة تسـجيل الاجـابة هى أنها تسـاعد على تحديد المعنى المقصـود من السـؤال وبذلك تكون الاجابات موحدة متجانسـة واضحة المعنى .

٤ — يجب الابتعاد عن المقاييس الكيفية كلما أمكن استخدام مقاييس كمية وذلك لان الاولى فى الغالب شخصية أو ذاتية أى تتوقف على تقدير الشخص الذى يملأ الاستمارة . أما الثانية فموضوعية وبذلك لا تختلف من شخص الى آخر بالنسبة لنفس الظاهرة . فمثلا لا يجوز وصف الشارع بأنه واسع أو متوسط الاتساع أو ضيق لان هذه الكلمات قد لا تعنى نفس الشيء بالنسبة لاشخاص مختلفين . أما اذا قيس عرض الشارع بالامتار فان ذلك يعطى الصورة الحقيقية لاتساع الشارع كما يمكن مقارنته بالشوارع الاخرى بمنتهى الدقة . كذلك حالة الاضاءة داخل المنازل لا يجوز مطلقا وصفها بأنها جيدة أو متوسط أو رديئة بل يكون من الافضل أن تقسم مصادر الضوء الى طبيعية وصناعية . وفى الحالة الاولى تذكر مواقع النوافذ ومساحاتها ومساحات الحجرات المختلفة ، أما فى الحالة الثانية فتقسم المصادر الى أنواعها المختلفة مثل مصباح الغاز أو المصباح الكهربائى وغير ذلك مع ذكر قوة كل منها .

٥ — يجب تجنب الاسئلة التى تتطلب من افراد البحث القيام بعمليات حسابية مثل السؤال عن نصيب كل شخص فى الاسرة من جملة الدخل ، بل يجب السؤال عن مصادر الدخل المختلفة للاسرة وعن عدد افرادها ، وبعملية قسمة بسيطة يمكن الحصول على البيان المطلوب .

٦ — من المستحسن تكرار بعض الاسئلة بصيغ مختلفة حتى يمكن التأكد من صحة الاجابات ، وبذلك يطمئن الباحث الى عدم وجود أخطاء متعمدة أو غير مقصودة . فمثلا يمكن التأكد من صحة الاجابة على سؤال خاص بالسن اذا وضع سؤال آخر عن تاريخ الاقتراع للجندية مثلا ، أو عن السن وقت الزواج ومدة الحياة الزوجية .

٧ — يستحسن أن تكون لكل سؤال اجابة واحدة بالنسبة للشخص الواحد خصوصا اذا كان البحث يستدعى استخدام الآلات الاحصائية . فمثلا السؤال عن امتلاك راديو أو تليفون أو سيارة يستحسن أن يقسم الى ثلاثة أسئلة لانه من الجائز وجود أشخاص يمتلكونها جميعا وبذلك تكون الاجابة على كل سؤال من الثلاثة هى كلمة « نعم » أو « لا » .

٨ — يجب عدم ادماج سؤالين أو أكثر فى سؤال واحد . فمثلا لا يصح توجيه سؤال بهذه الطريقة : هل انت عضو بأحد النوادى الرياضية ؟ وما هى الرياضية التى تمارسها ؟ بل يجب أن يقسم هذا السؤال الى شطرية فيصبح سؤالين تكون الاجابة على اولهما بنعم أو لا ، أما الثانى فتكتب أمامه جميع أنواع الرياضة المختلفة ليضع المجيب علامة على النوع والانواع التى يمارسها .

٩ — يجب عدم توجيه أســـئلة محرجة فى موضوعات شخصية حساسة خصوصـــا عند استخدام كشف البحث لان ذلك يؤدى فى الغالب الى غضـــب أفراد البحث وعدم الاجابة على الاســـئلة .

١٠ — لابد من تجنب الاســئلة التى تتيح الفرصـــة للتحيز الشخصى عند الاجابة عليها . فمثلا لا يجوز توجيه مثل هـــذا الســـؤال : « هل أنت متدين ؟ » لانـــه ليس من المنتظـــرأن تكون الاجابة بالنفى . وللوصـــول الى الهدف المنشود يمكن استبدال هذا الســـؤال ببعض أسئلة عن المواظبة على الصلاة والصيام واتباع ما يأمر بـــه الدين وتجنب ما ينهى عنه .

١١ — لابد من الابتعاد عن الاســـئلة الايحائية أى التى توحى باجابـــة معينة ، وهذه الاســـئلة فى الغالب توضـــع بواســـطة باحث متحيز لفكـــرة معينـــة ويريد اثبات صحتها ومن الامثلة على ذلك : « هل تغيب بسبب المرض ؟ » او « هل تأخرت بسبب ســـوء المواصلات ؟ » « هل سرقت لشعورك بالجوع ؟ » . والاجابة على مثل هذه الاســـئلة ستكون فى الغالب بالايجاب .

(ثالثا) شكل الاستمارة وترتيب الاسئلة بهـــا :

١ — يجب أن يكون حجم الاستمارة مناسبا ونـــوع الورق مقبـــــولا والطباعة جيدة حتى يســـهل ملؤهـــا ولا تكون منفسره . واذا زاد عـــــدد الاســـئلة فلا مانـــع من عمل الاستمارة على شـــكل كراســـة مكونـــة من عدة صفحات . واذا استدعى الامـــر ثنى الاستمارة فيجب أن يكون ذلك فى أماكن غير مخصصة للاجابة حتى لا تضيع معالمها .

٢ — يجب أن يكون للاستمارة عنوان موجز واضـــح يبين الغرض من البحث .

٣ — يجب أن يذكر بمكان واضح من صحيفة الاستبيان أن جميع البيانات ستكون سرية وأنـــه لن يســـمح لاحـــد بالاطـــلاع عليها أو اذاعتهـــا ولـــن تستخدم الا لاغراض البحث . ومما يؤكـــد هذا المعنى هـــو عـــدم المطالبة بذكـــر اى أســـماء بالصحيفـــة سواء للشخص الذى يملؤهـــا أو لافراد أسرتـــه . واذا اطمأن أفراد البحث الى الاحتفـــاظ بسريـــة ما يدلون بـــه من بيانـــات فلا شـــك أن هذه البيانات ستكون أقرب الى الدقة وأدعى الى الثقة بهـــا .

٤ — يجب ترتيب الاســـئلة بالاستمارة ترتيبـــا منطقيـــا يراعى فيـــه التسلسل والعلاقـــات أو أوجه الشـــبه بينهـــا . ويجب تقســـيم الاســـئلة

الى مجموعات متجانسة متناسقة توضع لها عناوين فرعية اذا كان البحث متشعبا ويشمل أكثر من ظاهرة واحدة . كما يجب البدء بالاسئلة السهلة المباشرة (التقليدية) التى لا تحتاج الى عناء او تفكير (مثل الجنس والديانة وما الى ذلك) ثم تتبعها الاسئلة التى قد تتطلب بعض الجهد .

٥ — يجب ان تعطى الاسئلة أرقاما مسلسلة حتى يمكن الاستدلال على أى سؤال بسهولة . ومن المفضل أن يوضع الدليل الرقمى (Code) لاجابات كل سؤال اذا كان فى النية استخدام الآلات الاحصائية .

٦ — يجب أن يخصص أمام كل سؤال المكان الكافى للاجابة عليه .

٧ — يستحسن عدم كتابة أكثر من سؤال واحد على كل سطر .

٨ — قد تكون الاستمارة خاصة بأكثر من شخص واحد ، وفى هذه الحالة يجب عدم تكرار الاسئلة بالنسبة لكل واحد منهم ، بل يجب الاستعاضة عن الاسئلة بجدول مقسم الى عدة أعمدة يخصص أولها للاسماء أو درجة القرابة لرب الاسرة (صاحب الاستمارة) أو مجرد أرقام مسلسلة يدل كل منها على شخص معين ، ويخصص كل عمود من الاعمدة الباقية للاجابات على أحد الاسئلة .

(رابعا) تجربة الاستمارة :

قبل أن يطبع العدد اللازم من استمارات البحث يكون من الواجب اختبار صلاحية الاستمارة التى تمت صياغتها وذلك بالقيام ببحث تجريبى تجمع فيه البيانات من عدد محدود من افراد المجتمع الاصلى موضوع الدراسة . وعلى ضوء هذه التجربة يمكن ادخال التعديلات والتحسينات على الاستمارة اذا لزم الامر ، بل وقد يخرج الباحث من ذلك بفكرة جديدة لها قيمتها أو اتجاه لم يخطر بباله من قبل ويكون له أثر فى تغيير مجرى البحث أو على الاقل اضافة بعض الاسئلة على الاستمارة أو استبعاد بعض أسئلتها .

ومهما كانت خبرة الباحث واسعة بالنسبة لموضوع البحث ولقواعد تصميم الاستمارات فانه فى أغلب الاحوال لن يستطيع التنبؤ بما سيلاقيه افراد البحث من صعوبات فى فهم الاسئلة والاجابة عليها .

لهذا تجب زيادة الاهتمام بهذه المرحلة (تجربة الاستمارة) لانها تقلل احتمال الخطأ وتساعد فى الحصول على بيانات دقيقة وبذلك تزداد الثقة فى النتائج النهائية للبحث .

٤ ـ المقابلة

المقابلة وسيلة هامة من وسائل دراسة الشخصية وهى ن الاساليب التى تخدم أغراضا كثيرة فى الطب والصحافة وادارة الاعمال والاختيار المهنى ـ ولها أهميتها الخاصة بالنسبة لعالم النفس الاكلينكى حيث توصله الى المعلومات التشخيصية عن الحالة ، والمقابلة تحقق فوائد قد لا تصل اليها من خلال الاختبارات ـ فهى لقاء وجها لوجه مع المفحوص ـ فصورة الاسئلة والاجابة عليها والمصاحبات للاجابة لها دلالة لدى عالم النفس الاكلينكى ـ وهى كأسلوب بحث تتضمن التبادل اللفظى وجها لوجه وهذا قد يصل الفاحص للدوافع والمشاعر والسلوك الذى يهدف الوصول اليه .

والمقابلة أسلوب مرن فى الوصول للمعلومات عن العميل وهى ليست كغيرها من الاساليب فالمقابل قد يغير أسئلة أو قد يؤجلها الى مواقف معينة حتى لا تثير المقاومة لدى المفحوص والمقابل قد يلاحظ سلوك المفحوص ويسجله اذا كان وجوده يستثير مقاومة العميل أيضا ـ والمقابلة تتيح للمقابل أن يلاحظ المصاحبات الفسيولوجية عند الاجابة على الاسئلة ولهذا دلالته فى دراسته الشخصية .

((أنواع المقابلات))

يتوقف نوع المقابلة على الهدف منها ـ على تفضيل القائم بها ولها اسماء كثيرة حسب مجالات البحوث التى تطبق فيها ـ وهذه بعض هذه الانواع :

١ ـ **المقابلة غير المقننة :** هى أقرب الى المحادثة العادية بين شخصين وتستخدم عادة فى مقابلة اختيار الموظفين حيث يسمح للمقابل أن يسير فى اتجاهات مختلفة تتوقف الى حد ما على طالب الوظيفة ، ولانها غير محددة سلفا تكون أقرب الى الطبيعة وبهذا يجعل المتقدم للوظيفة على طبيعته وغير متكلف فى الاجابة ، ومتسع الوقت وجذب أطراف الحديث تعطى للقائم بالمقابلة توصية الوصول والكشف عن جوانب قد تكون غاية فى الاهمية فى الكشف عن شخصية الفرد ورغم مزاياها الا أن لها مساوئها وهى :

١ ـ ان الموقف يختلف من شخص لآخر فليس هناك موقف واحد بالنسبة لشخصين وهذا يشكل صعوبة المقارنة بين شخصين متقدمين لعمل ما .

٢ ــ أن حرية المفحوص فى توجيه الموضــــوعات قد تمــكنه اذا رغب فى التركيز فى حديثه على نواحى القوة فى شخصيته وابعــاد القائم بالمقابلـــة عن مواطن ضعف عنـــده .

٣ ــ **المقابلة المقننة** : هذا القــدر من القضيتين متغير ففى الحالات المتزمته تظل الاســئلة بين الفاحص والمفحوص هى هى ، وفى حالات أكثر تحررا يعطى الفرد حــرية ادخــال بعض الابسئلة ويمكن استخدام صــورا مقننة لتسجيل اجابات المفحوصين ، وملاحظــات القائم بالمقابلة على ســلوكهم . ومزايـــا المقابلة المقننة هى عيوب غير المقننة والعكس صحيح ، وفى النوعين على الشخص أن يدرك أنه فى موقف مقابلة ــ وفى المقابلة المقننة فلانهـــا تقتصر على أسـئلة معينة فقد تغفل جوانب من سمات الشخصية لا تشملها الاسئلة .

٤ ــ **مقابلة « المواقف الضاغطة »** : والمقصـــود بهذا النـــوع معرفة الى أى حـــد يســتطيع المفحوص أن يضبط زمـــام نفســـه ، أو يتماســك نفســه عندما يستثار انفعاليــا ، وسرعته فى اســتعادة توازنــه بعد ازالة الضغوط عليه ، وفى الحالات النمطيــة من هــذا النوع تتم المقابلة بحضــور هيئــة من ٣ أو اربعة اشخاص ملاحظين غير ظاهرين يســجلان الملاحظــات والاقــوال التى يقولها المفحوص ، وتبدأ المقابلة بمحادثة عاديــة لطيفـــة كأن يطلب من المفحوص أن يجيب على اختبار أمام الهيئــة والاختبار عمل يزداد تعقيــدا شــيئا فشيئا ، وعند نهــاية الاختبار نخبر المفحوص بدرجته فى الاختبار (غير الحقيقيــة) وتكون منخفضـــة أو سرعان ما يتحول الوقف الى موقـــف يوحى بعدم التقدير وقد تصور تعليقـــات تشير الى عـــدم صلاحيته وامــكان اســـتبعاده .

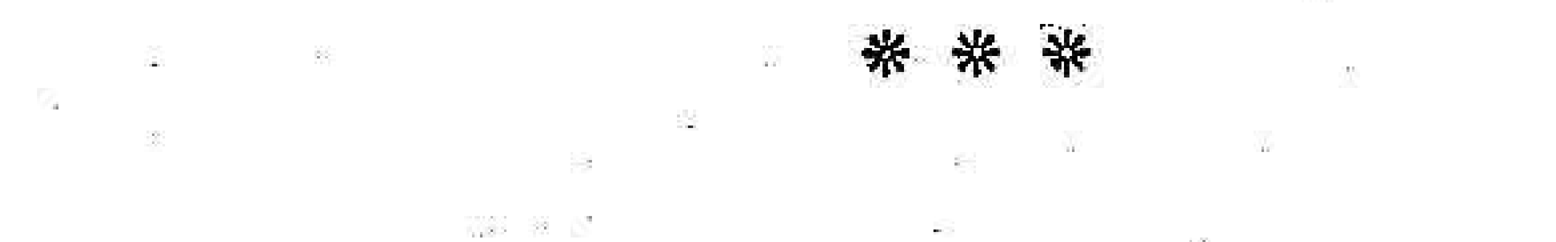
ثم يعـــاد اجــراء الاختبار ، وفى هذه الحالة توجه الى المفحوص صدمات كهربائيـــة أو مشتتات الانتباه وفى النهايـــة يوجه اليـــه الثنـــاء واللطـــف ويطلب منـــه أن يسترجع أى تعليقات أو أســئلة ســبق أن وجهت اليـــه ، فهذه طريقـــة لاعطـــاء اختبار تذكر ، وبعـــد صرف المفحوص توضـــع درجته أو التقديرات الخاصة بالسمات المختلفـــة لديـــه وما أمكنه تذكرة مـــن تعليقـــات وأقـــوال أو أســـئلة تحت ظروف الاختبار المختلفة .

٣ ــ **المقابلة المجهدة** : هى مقابلة تطـــول وتجرى فى جلســـة متصـــلة يتناوب القيـــام بهـــا أشخاص عديدون يتحدثون مع الشخص دون فرصـــة راحـــة ، والهدف هنـــا هو تحطيم معنويـــات الشخص وأساليب دفاعاته وكشف تناقضاته أو عدم ثبات أقوالـــه أو الرؤيـــة من ثنايا الواجهـــة التى قـــد يغطى

بها نفسه فى البداية ، وهذه المقابلات تستخدم فى تحقيقــات البوليس ــ ومع من يقومون بأعمال تحتاج الى صبر مثل الجواسيس المجندين .

رغم اختلاف المقابلات كما قلنــا وقلة اهميتهــا اذا قيســت بأســاليب الدراســـة الدقيقـــة والتجريب العلمى الا أن لها مساوىء فهى مفيدة فى دراسة أغراض كثيرة فى الشـخصية مثل موقف التوظيف فبالمقابلة تشعر الشخص بالاهتمام به كما تعطى القائم بها انطباعات عن الشخص فالمظهر والصــوت مما يصعب الوصول اليــه بدون المقابلة .

والمقابلة قـــد تخـــدع مثلا ظهـــور الشخص انفعالى فى موقف المقابلـــة ولم يكن انفعالى فى الواقـــع والعكس .. قد يظهـــر الشـــخص على حقيقتـــه صحيحة أو خاطئة ــ واذا كانت تكشــف عن ســـوء التوافق الانفعالى للفرد أمام المقابل فهو ســوء توافق موقفى ويكون تقييم الحكم على أساســـه كما يقول (سيموندز) تقييم لا يو ثق به .



الفصل التاسع

الإجراءات غير الدخيلة

تمهيـــــد :

باستثناء منهج المشـــاركة الكاملة ، فان كافـــة مناهج جمع البيانـــات حتى الآن تأخذ مكانها اما فى قاعـــدة مستنبطة أو طبيعيـــة بحيث « يـــدرك » الافراد الخاضعين للبحث أنهم فيهـــا بمثابة موضوعات للبحث . وهذا الامـــر ، كما تحفظنـــا سابقا ، قـــد يفضى الى حـــدوث أخطـــاء . والفصـــل الراهن يلفت الانتباه الى البيانات غير الدخيلة ، أى تلك المعلومات التى تم الحصـــول عليها باستخدام مناهج تستبعد الباحث مباشرة من أولئـــك الذين يخضعـــون للبحث . وهؤلاء الاخيرون « لا » يدركون انهم هم موضـــع البحث ، وبالتالى يمكن تجنب حـــدوث انماط معينة من الاخطـــاء . ولكن من الواضح ، أن المنـــاهج غير الدخيلة ليســـت بدون حـــدود تلازمها . فلا يوجـــد مناهج لجمع البيانـــات دون حدود لها ، ويترتب على ذلك أن الحاجـــة تستدعى دائما اســـتخدام أكثر من منهج واحد لجمع البيانات . ولهذا ، فان المقابلات يمكن أن تستكمل بمنـــاهج لها حـــدود منهجيـــة مختلفـــة ، ومثل ذلك ، المشـــاهدة النســـقية أو الاجراءات غير الدخيلة .

فى القسم الاول من هذا الفصـــل ، نناقش الانمـــاط الرئيسية مـــن الاخطاء التى قـــد تنتج عن المناهج الدخيلة مثل المقابلات والاستبارات ، كذلك نقـــوم بتعريف ومناقشـــة المقصـــد من الاجـــراءات غير الدخيلة . بعد ذلك نقـــوم باستعراض للانـــواع العديدة من هذه الاجـــراءات غير الدخيلة : ترســـم الآثـــار الماديـــة ، المشـــاهدة البســـيئة ، السجلات الدفتريـــة الخاصـــة والعامة . أما فى القســـم الاخير فنقـــوم بفحص لتحليل المضمون كمنهـــج للتحليـــل النســـقى للبيانات التى تم الحصـــول عليهـــا من الســـجلات والوثائق الدفترية .

مصادر الخطـــأ :

ليس ثمة منهج لجمع البيانـــات يشـــوبه التكامل . فكل منهج لـــه ميزات معينة ولكن له أيضا حدود تلازمه .

وبالنسبة للمناهج الدخيلة التى ناقشناها فى الفصول السابقة هناك أربعة أنواع رئيسية من الاخطاء قد تنتج عن الفرد الخاضع للبحث :

١ ـ تأثير حيوان التجارب .

٢ ـ اختيار الدور .

٣ ـ القياس كعامل متغير .

٤ ـ وضع الاستجابة .

تأثير حيوان التجارب : وهذا النوع من التأثير يشير الى الحقيقة التالية :

> أن عملية القياس المستخدمة فى التجربة قد تؤثر هى نفسها النتيجة المحصلة . فاذا ما شعر الناس بأنهم « حيوانات للتجارب أو اذا ما شعروا » بأنهم خاضعين لـ « اختبار » وعليهم أن يظهروا انطباعا جيدا ، او اذا ما كان المنهج المستخدم لجمع البيانات يوحى باستجابات أو يستحث نوعا من الاهتمام لم يشعر به الموضوع من قبل ، فان عملية القياس قد تفسد وتشوه نتائج التجربة .

اختيار الدور : اختيار الدور هو دلالة على تلك الانشطة التى تنتج عن السمات المطلوبة من حالات التجربة . وعلى حسب ما جاء فى المناقشة أن الافراد يميلون نحو اختيار أدوار متخصصة أثناء مشاهدتهم . وهذه الادوار ، بدورها ، قد لا تكون هى الادوار التى ينهض بها الافراد موضع البحث نمطيا .

القياس كعامل متغير . القياس كعامل متغير يشير الى امكانية أن تكون عملية القياس ذاتها هى التى قد تحث على حدوث التغيير فى الظاهرة التى يتم دراستها . فمثلا ، البحث فى مجال اختبار الذكاء قد يبين بشكل متكرر أن ما يتم الحصول عليه من قدرات المرور من الاختبار يمكن ارجاعه الى الخبرة المكتسبة من الاختبارات التى تم اجراؤها من قبل حتى ولو لم تكن هناك معرفة بالنتائج .

وضع الاستجابة . كما جاء فى المناقشة ، ان هناك سبل عديدة يمكن ان يدخل بها عامل التحيز فى مجال البيانات . فأولا ، هناك النزعة عند المستجيبين لكى يصادقوا على عبارة ما بطريقة متكررة من حين لآخر عن أن يختلفوا مع نقيضها ، مما يتولد عن ذلك مصدر للخطأ يعرف باسم « وضع الاذعان للاستجابة » . ثانيا ، أن صياغة

كلمات الاسـئلة قـد تحدث نوعـا من التحيز ، وثالثا ، ان ترتيب الاسـئلة قـد يحدث تحيزاً فى الاستجابة . وعلى الرغم من أننا قمنـا بمناقشـة المناهج حتى نقلل الى ادنى حـد هـذه المصادر المحتملة للخطـأ ، الا انهـا واردة دائما وقـد يؤدى الى حصر النتائـج .

بالاضافـة الى ما قـد ينتج من أخطـاء عن طريق الافراد موضـع البحث ، هنـاك أخطـاء أخرى قـد تحدث من الباحث نفسـه . ومن هـذه الاخطـاء ، هنـاك ثلاثة أنـواع رئيسـية هى :

١ — تأثير المستجوب .

٢ — التغيير فى اداة البحث .

٣ — القيـود السكانية .

تأثير المستجوب : ان التاثير الناجم عن شـخص المسـتجوب يشير الى فكرة أن الصفـات الخاصـة بشخص المستجوب قـد تلقى بتأثيرهـا على اجابات المستجيبين . فبعض الصفـات الخاصـة بسـمات المستجوبين مثـل العنصر ، أو الجنس ، أو السـن هى صفـات يمكن ضبطهـا بسـهولة ، وهناك صفات أخرى مثل السـلوك غير الشفهى أو وضـع الدور نفسـه فهى اقـل سـهولة فى معالجتهـا وقـد ينتج عنها التحيز .

التغيير فى اداة البحث : ان الشخص الذى يعقـد الاستجواب او يقـوم بالتجربة قـد يحقق خطـأ فى البيانات نتيجـة للتغيرات فى مهاراتـه ، أو مواقفه ، أو ادراكاته فـ « المستجوب مثله مثل الميزان الذى يصـيبه الوهن نتيجـة الاستعمال ، ويعطى « وزنـا » أكبر فى المـرة الثانيـة ، قـد يعطى قياسـات تختلف باختلاف المـرات . فمهارته قد ترتفـع ، وقد يـكون أكثر قـدرة على انشـاء علاقـة وفـاق ووئام . ربما يكون قـد تعلم اللغـة الضروريـة للمخاطبـة . وربما يصيبه التكاسـل أو ينتابه السأم ... » .

القيود السكانية : القيد السكانى ينجم عن الحقيقـة بأن أى منهج معين لجمع البيانات يضـع تعريفـا للحـدود السكانية التى يمكن دراسـتها ، فمثلا ، من لا يعرفـون القراءة والكتابة من الناس يتم استبعادهم من السـكان الذين يخضـعون للدراسـة عن طريق الاسـئلة البريدية .

الاجراءات غير الدخيلة : الفرض والتعريف :

ان الاخطـاء « المعروف » أنها اما ناجمة عن الافراد الخاضعين للبحث واما عن الباحث نفسـه ، من الممكن ، الى حـد مـا ، التقليـل منها الى

ادنى حـد باستخدام خطـة البحث الملائمة ، واجـراءات القياس الصحيحة التى يعتمد عليهـا ، وتكرار التجربة . ومع ذلك ، فان هـذه الاشـياء لا تعطى ضمانا مطلقـا بأنه يمكن التخلص من جميع الاخطـاء . ولكى يختبر الانسـان صحة نتائجـه ، يستطيع أن يستخدم القياسـات غير الدخيلة .. وهذا النوع يستخدم أيضـا ، كما سنرى فى الاجـزاء التاليـة ، باعتباره منهجـا أوليـا لجمع المعلومات بالنسبة لبعض أغراض البحث المحددة .

والاجراء غير الدخيل هو أى منهج لجمع البيانات يستبعد الباحث مباشرة من مجموعة التفاعلات ، أو الاحداث ، أو السلوك الخاضعة للبحث . ومثـال ذلك ، وثائق المحفوظات العامة . هذه الوثائق تمثل اجراءا غـير دخيل لأن الظروف المؤدية الى وجودها لم تتأثر بتدخل أحد من الباحثين . فالاجراءات غير الدخيلة تتفادى جانب الفساد الذى قد ينشأ عندما يواجه الباحثون والمشاركون فى البحث بعضهم البعض فى الحالات التى يتم فيها جمع البيانات . وبالاجراءات غير الدخيلة ، فان الفرد « لا يدرك أنه موضع الاختبار ، كما أن الخطر لن يكون كبيرا فى أن فعل القياس نفسه سوف يخدم كقوة دافعة للتغيير فى السلوك أو يظهر أداء الدور الذى يحصر البيانات » . وهذه الاجراءات يمتد مجالها مـن المحفوظات العامة والخاصة الى المشاهدات البسيطة لسلوك الناس فى حـالة العمل أو اللهو ، ومن تحليل الملامح الطبيعية الى المشاهدات المستنبطة القائمة على المعدة الميكانيكية .

الآثار المادية :

ان الآثار المادية والدلائل التى تركها شعب ما خلفه تتولد دون معـرفة منتجها باستخدام الباحثين لها فى المستقبل . ويوجين ويب ومن شـاركوها فى التأليف يقومون بالتمييز بين مرتبتين واسـعين من الدلائل الطبيعية : اجراءات النحر واجراءات التراكم . و « اجراءات النحر » هى البقايا الطبيعية المتخلفة عن النشاط الذى قام به شعب ما والتى اكتسبت بها أشياء معينة بطريقة انتقائية . ومن أمثلة ذلك ، ان الشىء الدارج عن وجود الكتب بالمكتبات هو مؤشر يدل على مدى انتشارها ، كما أن عدد الاميال التى يقطعها ضباط الشرطة بسـيارات الدورية هى قياس لما يقومون به من نشاط يومى . وبهذا ، يستطيع الانسان أن يختبر صحة التقارير الشفهية التى يتقدم بها ضباط الشرطة عن نشاطاتهـم اليومية بمراجعة عدد الاميال التى قطعوها بسياراتهم .

أما « اجراءات التراكم » فهى تشكل ما يترسب عن شعب ما من المواد . وفى هذه الحالة ، يقوم الباحث بفحص هذه البقايا التى خلفها الناس وتوحى بسلوك ما . فمثلا ، يرى نورمان دينزين أن ما يتجمع من الخطابات الغراميـة

فى سلة المهملات يستخدم بقياس يدل على اضطراب نماذج التفاعل . كما أن صامويل والاس يرى أن موظفى الفندق يقيمون علاقة شخص ما بالسلطات الشرعية بعدد الاشياء التى يتركها وراءه . أيضا ، الاوضاع التى توجد عليها المؤشرات الخاصة بأجهزة الراديو فى السيارات يمكن أن تستخدم لتقدير مدى شعبية المحطات الاذاعية المختلفة ، وذلك بتسجيل وضع المؤشرات عندما تدخل السيارات فى مجال الخدمة .

وعملية التحليل للاثار المادية تفرض صعوبات معينة عند جمع وتفسير البيانات : فالزمن المطلوب لجمع البيانات ونوعيتها يفرضان قيودا معينة . ومع ذلك ، فان الشيء الاكثر اهمية ، هو الحقيقة بأن الباحث فى كثير من الحالات يكون فى وضع يفتقد فيه البيانات الكافية عن السكان والتى يستمد منها الاثار المادية ليقوم بعملية التعميم الصحيحة .

المشاهدات البسيطة :

المشاهدات البسيطة هى النوع الثانى الاساسى فى الاجراءات غير الدخيلة . وهذه المشاهدات تتم فى تلك الحالات « التى لا يكون لدى الباحث فيها أى وسيلة لضبط السلوك أو الدلالة موضع السؤال ، ويلعب فيها دورا غير ملحوظ ، يكون سلبيا وغير دخيل فى حالة البحث » . وعلى الرغم من أن المشاهدات البسيطة فى كافة جوانبها الاخرى تاخذ الوسيلة المنهجية التى تسير عليها المناهج الاخرى للمشاهدة ، بما فى ذلك مشاهدة المشاركة ، الا ان خصوصيتها ترجع الى الحقيقة بأن الباحث لا يتدخل فيما ينتج من مادة . والمشاهدة البسيطة تنقسم الى أربعة أنماط رئيسية : المشاهدة للجسم الخارجى والعلامات المادية ، تحليل الحركات المعبرة ، تحليل الموقع الجسدى ، ثم مشاهدة لغة السلوك . هذه الانماط الى حد ما تتفق والمؤشرات الخاصة بالسلوك التى تمت مناقشتها سابقا . الا أن الاختلاف الاساسى فيكمن فى مناهج المشاهدة وفى موضع الباحث فى عملية تجميع البيانات .

المشاهدة للجسم الخارجى والعلامات المادية :

النمط الاول للمشاهدة البسيطة ، هو المشاهدة للجسم الخارجى والعلاقات المادية التى تكون بمثابة مؤشرات للسلوك أو المواقف . ومن امثلة هذه العلامات الطواطم ، طرز الملابس ، أدوات الزينة كالمجوهرات ، وغيرها من أنماط المقتنيات . ولقد سجل جريجورى ستون فى تقريره انه عندما سئل احد المستجيبين الذين قابلهم ما اذا كان يختار أن يرتدى انواعا كثيرة أو انواعا قليلة من الملابس عندما يكون فى العمل ، كان رده ، « ارتداء الانواع القليلة وذلك حتى تبدو بنفس المظهر كل يوم . وهكذا سوف يتعرف عليك الناس ، فهم يبحثون

عن نفس العلامة القديمة المميزة » . كذلك ، قام فيليبس بامدادنا بمؤشرات عديدة عن التغيرات التى حدثت فى مدينة ميامى نتيجة لذلك السيل المتدفق من مئات الآلاف من الكوبيين . فبعد عامين من ثورة كاسترو ، شاهد المؤلف علامات الطرق باللغة المزدوجة ، وأسماء الأصعمة الخاصة بأمريكا اللاتينية فى قوائم المطاعم ، الاذاعة ترسل موادها بالاسبانية ، والخدمات فى أربعين كنيسة بميامى تتم بالاسبانية . فى هذه الدراسة ، كانت العلامات الخارجية الظاهرة فى الاماكن العامة بمثابة مؤشرات تدل على ما حدث من تغير اجتماعى .

تحليل الحركات المعبرة :

نوع آخر من المشاهدة البسيطة هو تحليل الحركات المعبرة . وفى هذا النوع تتركز بؤرة المشاهدة على الملامح الجسدية العديدة التى تعبر عن النفس كما تتركز على التفسيرات الخاصة بالتفاعلات الاجتماعية . مثال ذلك ، ما قام به جلندون شوبيرت ، فى دراسته للمحكمة العليا ، وقد رأى أن الحديث والايماءات ، والحركات التى يبديها القضاة عند استماعهم للمناظرة الكلامية تعد بمثابة مصدر خصب للحصول على المعلومات لمن يدرسون المحاكم .

واحدى المشكلات التى تصاحب الاستقصاء لايماءات الوجه والجسد هو تقرير ما تتضمنه احدى الايماءات المعينة من معنى . فالابتسامة ، مثلا ، قد تعنى الارتياح او السعادة ، والتقطيبة على الوجه قد تدل على الاستغراق فى التفكير أو عدم الموافقة . فتحديد معنى الايماءة لا بد أن يتم بالنسبة لكل من الشخص الذى يقوم بالتعبير عنها والشخص المتلقى لها . كما أن الموقف الذى يتم فيه ابداء الايماءة لا بد أيضا أن يؤخذ فى الاعتبار . فالابتسام عند تشييع الجنازة قد يعنى شيئا يختلف تماما عن الابتسام فى حفل للزواج .

تحليل الموقع الجسدى :

تحليل الموقع الجسدى هو النمط الثالث من المشاهدة البسيطة . والغرض الرئيسى من هذا الطراز من المشاهدة هو استقصاء الوسائل التى يستخدم بها الافراد أجسادهم فى حيز اجتماعى . وذلك بمناقشة بعض المؤشرات الخاصة بالسلوك الفراغى ، والتى ، رغم ذلك ، قد خضعت للبحث فى أوضاع معملية . ان تحليل الموقع الجسدى يركز على السلوك الذى يتم دون تدخل الباحث فى الظروف التى يستبين فيها السلوك . فبالنسبة للمراقبين للامور السياسية الداخلية فى روسيا ، مثلا ، تعتبر المعلومات التى يحصلون عليها عند ترتيب المسئولين الواقفين فى الميدان الاحمر ومن يقف بعد من فى استعراضهم لاحتفالات أول مايو ، بمثابة دليل يسترشدون به فى معرفة مدى الاستقرار أو التغيير فى صفوة السلطة . فقرب أحد السياسيين من الزعيم

يعد دليلا مباشرا على المكانة التى يحظى بها هذا السياسى ، فالوضع الذى يحتله الجسد يتم تفسيره على أنه عرض دال على غيره من السلوك الذى اعطى هذا السياسى مكانته فى هذا الوضع .

كذلك الجلوس الاجماعى من الممكن أن يستخدم كمؤشر يدل على تداخل العلاقات العنصرية . ففى دراستهم عن حالة الجلوس الاجماعى ، استخدم كامبل وكروسكال ووالاس جمع من السود والبيض كدلالة عن هذا الموقف :

> حيث أن الجلوس فى الفصل يعد اختياريا فان درجة جلوس الزنوج والبيض كل منهم مقتصر على نفسه مقابل اختلاطهم ببعض عشوائيا يمكن أخذه كدليل مفترض على مدى قوة اصطباغ التعارف والصداقة والتفضيل باللون العنصرى . وذلك مقابل توزعهم دون النظر الى الاعتبارات العرقية العنصرية .

المشاهدة للغة السلوك :

ان المشاهدات الخاصة بلغة السلوك تمثل الشكل الرابع للمشاهدة البسيطة . والتحليل للغة غير الدخيلة يركز على عينات من الاحاديث والعلاقات الداخلية لنماذج الحديث بالنسبة لموقع وتصنيفات الاشخاص الحاضرين وبالنسبة لزمن اليوم . والتحليل يدمج الدراسة الخاصة بالمواقع الجسدية بالدراسة الخاصة بالحركات المعبرة .

وفى هذا الشأن قام جورج باثاس وجيمس هينسلين بتفحص القواعد والتعريفات التى يستخدمها سائقوا سيارات الاجرة بعد أن حددوا نقاط التوصيل والركوب على أساس البلاغات التى يبعث بها الراسل . هذه البلاغات تم تحليلها فيما يختص بالمعلومات التى تتضمنها وفيما يختص بالفعل الذى قام به السائق .

وقد تم وضع كل بند من المعلومات فى تصنيف خاص كانت تمثل اتجاهات فريدة بالنسبة لسائق السيارة . فمثلا ، اذا قيل للسائق « قد سيارتك واخرج » ، فلا بد له من أن يقوم بأكثر من مجرد القيادة . فالتعليمات التى تلقاها تتضمن الخروج بالسيارة ويبحث بنشاط عن الراكب فى المكان الذى من المفروض أن يكون فيه .

مشكلات تتعلق بالمشاهدة البسيطة :

لقد أوضحنا من قبل ، أن الميزة الرئيسية للمشاهدة البسيطة هى فى أن الباحث ليس له دور فى بناء موقف المشاهدة وهو يبقى خارج المشاهدة بينما هو

يقوم بالمشاهدة . وهذا الوضع يقضى على الاخطاء التى كان من الممكن أن تنشأ عن الشىء موضع المشاهدة لو أن الامر قد تم بغير ذلك . ومع ذلك ، فان المشاهدة البسيطة تكتنفها بعض المشكلات الخاصة . أولا : أن المشاهدات المسجلة قد لا تكون ممثلة لقطاع واسع من السكان ، وبهذا تحد من مجال النتائج . ثانيا : أن الخطأ قد ينتج عن قابلية الشخص الذى يقوم بالمشاهدة بإحداث الخطأ . والمشاهد قد يصبح أكثر يقظة بينما هو يتعلم المهمة التى يقوم بها ويصبح مستغرقا فيها . ثالثا : أن هناك ظواهر معينة فقط هى التى يمكن مشاهدتها . فاذا ما كان على المشاهد أن يبقى دون أن يكون موضع التفات ، عندئذ ستكون الاوضاع الاكثر قابلية للمشاهدة البسيطة أوضاع عامة ، فالاوضاع الخاصة تكون غير قابلة للاقتراب منها بالمشاهدة البسيطة . رابعا : أن الكثير من البيانات التى يتم تجميعها عن طريق المشاهدة البسيطة لا يتولد عنها تفسيرات : « ان البيانات ... لا تعطى « سببا » ، ولكنها ببساطة تنشىء علاقة » . وهذا ، بدوره ، هو أحد أسباب استخدام المشاهدة البسيطة أساسا لاستكمال البيانات المجمعة بالمناهج الدخيلة .

السجلات الدفترية :

الشكل الاساسى الثالث من الاجراءات غير الدخيلة ، هو التحليل لسجلات المحفوظات العامة والخاصة . وهذه البيانات يتم تجميعها من مصادر عديدة تتمثل فى السجلات الاكتوارية ، السجلات السياسية والقضائية ، الوثائق الحكومية ، الوسائط الجمعية (وسائل الاعلام) ، والسجلات الخاصة مثل السير الذاتية ، اليوميات ، والرسائل . وبهذا يكون هناك قدر كبير من البيانات فى شكل سجلات دفترية عامة وخاصة ، متاحة أمام علماء الاجتماع . البعض من هذه السجلات تم تجميعه وتصنيفه خصيصا لاغراض البحث ، فى حين أن البعض الآخر تم اعداده ليكون تحت التداول العام .

السجلات العامة :

هناك اربعة انواع رئيسية من السجلات العامة يمكن تمييزها ، النوع الاول ، هو السجلات الاكتوارية التى تتعلق بالقسمات الديموجرافية للسكان ويعمل على خدمتها دار المحفوظات . وهذه السجلات تتراوح ما بين الاحصائيات الخاصة بالمواليد والوفيات الى السجلات الخاصة بالزواج والطلاق . النوع الثانى ، هو السجلات السياسية والقضائية التى تضم أحكام المحاكم ، نشاطات المشرعين ، الاقتراعات العامة ، القرارات الخاصة بالميزانية ، وما شابه . النوع الثالث ، هو الوثائق الحكومية وشبه الحكومية ، كالاحصائيات الخاصة بالجرائم ، والسجلات الخاصة ببرامج الرفاهية الاجتماعية ، والتقارير عن حالة الطقس . أما النوع الرابع ، فهو يشمل التقارير المختلفة ، وفقرات الاخبار ،

والمقالات الافتتاحية ، وغيرها من وسائل الاتصال التى تنتجها وسائل الاعلام . ان كل نمط من هذه الانماط الاربعة يحتوى على المعلومات التى يكون قد تـم استخدامها لاغراض البحث العديدة والمتنوعة . وفى المناقشـــات التالية ، استخدمنا نماذج من أمثلة البحث فى العلوم الاجتماعية لاعطاء صورة توضـح الاستخدامات العديدة للسجلات الاكتوارية العامة .

السجلات الاكتوارية :

أن معظم المجتمعات تحتفظ لديها بسجلات دائمة عن المواليد والوفيــات ، وحالات الزواج والطلاق . ولقد قام علماء الاجتماع باستخدام مثل هذه البيانات لكل من الاغراض الوصفية والتفسيرية . فمثلا ، جاء فى تقارير ويب وآخرين ، أن وينستون قام باستقصاء عملية التفضيل لانجاب الذكور فى الاسر من الطبقات العليا بفحصه لسجلات المواليد . وقام برصد نوع الجنس الخاص بكل طفل فى ترتيب المواليد لدى كل أسرة . ولقد تبين أن هناك تفضيل للذكور فى حـالة ما اذا كانت نسبة الذكر ـــ الانثى لآخر طفل يولد وتعتبرها الاسرة قد اكتملت أكبر من تلك النسبة بالنسبة لجميع الاطفال فى نفس الاسر . ولقد مكنتـــه المعلومات الواردة فى سجلات المواليد من فصل عينة من الوالدين من الطبقة العليا لكى يختبر فرضيته النظرية .

كذلك ، قام راسل ميدلتون بفحص لمستويات الخصوبة وفقا لمجموعتين من البيانات : القيم الخاصة بالخصوبة فى مجلات الاسر المثالية ، والمســتويات الاكتوارية للخصوبة فى ثلاث فترات زمنية مختلفة . فبالنسبة للسنوات ١٩١٦ ، ١٩٣٦ ، ١٩٥٦ ، قام المؤلف بتقدير قيم الخصوبة برصده لحجم الاسر المثالية فى ثمان مجلات أمريكية . ولقد أوضحت المقارنة بالبيانات السكانية عـن نفس السنوات أن التغييرات فى حجم الاسر المثالية كانت تتطابق بشكل وثيق مـع التغيرات فى مستوى الخصوبة الحقيقى بالولايات المتحدة .

أما السجلات الخاصة بالوفيات ، فقد استخدمها لويد وارنر فى دراسـته عن الوفيات ومظاهرها فى احدى المدن الامريكية . قام وارنر بفحص السـجلات الرسمية للمدافن لكى يضع تاريخ للشخص المتوفى ، فوجد أن البناء الاجتماعى للمدينة كان ينعكس فى ساحة المدفن . فمثلا ، كان الاب المتوفى يدفن فى أغلب الاحيان فى وسط المدفن الخاص بالاسرة ، كما أن الشواهد الحجرية للذكور أكبر من تلك الخاصـة بالاناث . أكثر من ذلك ، أن الاسرة التى تـكون مـكانتها الاجتماعية قد رتفعت تقوم بنقل مقابر أقاربها من المدافن ذات المنزلة الاقـل الى أخرى ذات منزلة أكبر .

السجلات السياسية والقضائية :

لقد تم استخدام الاحصاءات الخاصة بعمليات الاقتراع بدرجة واسعة لدراسة السلوك الانتخابي وكذلك نماذج المشرعين لعمليات التصويت . وهناك مجموعات مثل « عرض للانتخابات فى العالم » و « أمريكا فى دوائر الاقتراع : دليل الاحصاءات الامريكية للانتخابات الرئاسية ، ١٩٢٠ — ١٩٦٤ » توفر بيانات مفيدة عن مثل هذه الامور الانتخابية . (أنظر معهد البحوث الانتخابية ، عرض للانتخابات فى العالم (لندن Diltanis Untversity Bookshopr يطبع كل عامين) ، ريتشارد م . سكامون ، اعداد ، أمريكا فى دوائر الاقتراع : دليل الاحصاءات الامريكية للانتخابات الامريكية ، ١٩٢٠ — ١٩٦٤ (بتسبرج : Uniersity of Pittsbrgh Press ١٩٦٥) . كذلك « التقويم الفصلى للكونجرس » ، الذى تتوافر به المعلومات الدورية عن نشاط الكونجرس الامريكى منذ عام ١٩٤٧ ، وهو يضم البيانات التى تتعلق بالخلفيات المميزة لاعضاء الكونجرس ، والمعلومات الخاصة بالقرارات التشريعية الرئيسية ، والجداول الخاصة بقوائم الاقتراع ، ومسح للتطورات السياسية . أما تايلور وآخرين فى كتابهم « الدليل العالمى للمؤشرات الاجتماعية والسياسية » (١٩٧٢) ، فقد سجلوا تفحصهم للبيانات القومية التى تتعلق بـ ١٤٨ اجراء سياسى واجتماعى ، كالمشاركة الانتخابية ، وحساب عدد مرات التمرد فى المقاطعة سنويا ، وعدد مرات التغيير غير المنتظم للحكومة ، وعدم المساواة فى توزيع الدخل .

وفيما يتعلق بالخلفيات الاجتماعية للمشرعين وسلوكهم السياسى فمجال البحث فيها كبير وضخم هو أيضا . وربما كان الانحراف السياسى للمشرعين هو أكثر البنود انتشارا فى مجال البحث . وفى حوالى عام ١٩٤٩ ، قام ناثانييل جيج وبن شيمبرج بعملية قياس لـ « التقدمية » فى مجلس الشيوخ الامريكى . فقام المؤلفان باستخراج عينات من اقتراعات الشيوخ على ثمانية عشر مشروعا لقانون ثم تم تقييمها لقياس مدى التقدمية فى هذه الاقتراعات ، فوجد أن (١) أعضاء المجلس الصغار السن ليسوا بأكثر تقدمية من الاعضاء كبار السن ، (٢) الاعضاء من ولاية واحدة لا يميلون للاقتراع بطريقة واحدة ، (٣) الاختلافات الاقليمية لها أهميتها فى تفسير نواحى الخلاف فى التصويت .

أما دانكان ماكريا فقد قام باختيار عينة من الاصوات التى لها موقفها الحاسم فى عملية الاقتراع وذلك بالاستعانة بقوائم التصويت المنشورة فى جريدة « الجمهورية الجديدة New Republic ووكالة أنباء CIO . والافتراض الذى عمل على أساسه هو أن هذه المصادر لم تكن لتنشر سوى التقارير الخاصة بعمليات الاقتراع على القضايا التى تتناسب مع قرائها من

الاحرار . ومن هذه المصادر ، حصل ماكريا على « مؤشر حر » يعتمد على اتجاه عملية التصويت .

أيضا قام ويليام ريكر ودونالد نيمى باستخدام قوائم التصويت لبحث المسألة الخاصة بالتضافر الحزبى فى الكونجرس . أخذ المؤلفان الاصوات المدرجة فى سبع وثمانين قائمة تصويت ، ملاحظين ما اذا كان عضو الكونجرس .

١ — قام بالتصويت فى الجانب الرابح .

٢ — قام بالتصويت فى الجانب الخاسر .

٣ — لم يقم بالتصويت فى الوقت المناسب .

٤ — لم يقم بالتصويت فى الوقت غير المناسب . وكانت القوائم مصنفة الى موضوعات ، كما تم وضع مؤشر يدل على التضافر الحزبى .

أما السجل الخاص بالكونجرس فهو يتضمن المعلومات التى يمكن استخدامها لدراسة السلوك ليس فقط بالنسبة لاعضاء الكونجرس ولكن بالنسبة أيضا لمن هم خارج الكونجرس . ومثال ذلك ، أنه من الممارسات المعروفة فيما يتعلق بعضو الكونجرس انه يتم ادخال الاعمدة الصحفية التى تعكس وجهة نظر العضو أو العضوة فى هذا السجل . وفى دراسة للاعمدة السياسية ، استخدم ويب هذه البيانات لتقييم الافكار المحافظة — الليبرالية بين كتاب الاعمدة فى واشنطن .

وفيما يختص بأعضاء الكونجرس المستقلين فقد نالوا تقديرا ليبراليا — محافظا بتقييم سجل أصواتهم الذى قام بنشره جماعتين من المعارضين — الامريكيون المحافظون للائحة الدستورية واللجنة الليبرالية فى مجال الفعل السياسى .

ولقد تم ترتيب كتاب الاعمدة فى قائمة النقط الخاسرة لاعضاء الكونجرس الذين وضعوا مقالاتهم فى السجل .

أما عمليات الاقتراع الخاصة بالهيئات القضائية فتتوافر بها بيانات تصلح لعدد من أغراض البحث . ولقد استخدم جلندون شوبيرت التحليلات الاحصائية لسلوك عمليات التصويت السابقة التى قام بها قضاة المحكمة العليا بالولايات المتحدة للتنبؤ بمسلك عمليات التصويت المقبلة .

أما ايلواز سنايدر فقد استخدم سلوك عمليات الاقتراع السابقة فى دراسة

عن درجة عدم الثقة فى النسق القضائى فى الولايات المتحدة بأكمله . وكان أحد القياسات فى هذا ، هو أن عدم الثقة هذه قد تحددت عمليا على أساس عدد المرات التى قامت فيها المحكمة العليا برد الاحكام التى أصدرتها المحاكم الاقل منها درجة .

وقد قام دين جاروس وروبرت مندلسون ببحث الافتراض بأن سلوك القضاة فى اصدار الاحكام فى محاكم الدرجة الاقل هو النتيجة المترتبة على القيام بلعب الدور القضائى – المهنى . وقد درس المؤلفان الاحكام التى أصدرها ثلاثة من قضاة محكمة المرور فى ديترويت خلال فترتين كل منهما لمدة أسبوع فى صيف عام ١٩٦٦ . وتم تجميع المعلومات المتعلقة بجميع المحاكمات التى تمت خلال الفترتين ، ووجد أن المواقف الاجتماعية ، واعتبارات الدور المهنى ، والقيم المجتمعية هى التى تحرك الدافع فى سلوك القاضى .

الوثائق الحكومية :

لقد رأينا من قبل مدى فائدة التحليل للوثائق الحكومية مثل سجلات المواليد والوفيات . ولكن هناك وثائق حكومية وشبه حكومية أخرى من الممكن أن تخدم أيضا كمصدر للبيانات . لقد استخدم لومبروزو الوثائق الحكومية لدراسة مدى تأثير المناخ والوقت من السنة على عملية الخلق العلمى ، فقام بسحب عينة لاثنان وخمسين كشفا فى مجال الطبيعة ، والكيمياء ، والرياضيات ولاحظ زمن حدوثها . وقد بينت النتيجة أن اثنين وعشرون كشفا رئيسيا منهم قد حدثت خلال فصل الربيع ، وخمسة عشر فى فصل الخريف ، وعشرة فى الصيف ، وخمسة فى الشتاء .

وكانت الميزانيات الخاصة بالمدن هى مصدر المعلومات لروبرت أنجل فى بحثه عن النزاهة الاخلاقية للمدن الامريكية . فقد قام بوضع « مؤشر لجهد الرفاهية » ، بحساب وجه الانفاق المحلى لتحقيق الرفاهية بالنسبة للفرد ، ثم قام بربط هذا بـ « مؤشر الجريمة » الذى يعتمد على بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالى لكى يحصل على « مؤشر النزاهة » . ومؤخرا تم استخدام هذه الميزانيات كمؤشر للالتزام بالسياسة . ولقد أوضح جانب الانفاق « ما يحصل عليه الشخص » من الاموال العامة ، كما أوضح جانب العائد « من هو الذى يدفع التكاليف » . فالعمليات الخاصة بالميزانية توفر ميكانيزما يتيح مراجعة البرامج الحكومية ، وتقدير تكلفتها ، وربطها بالمصادر التمويلية ، والاختبار من بين بدائل الانفاق ، وتقدير جهد التمويل الذى ستبذله الحكومة على هذه البرامج . وعندما قام وافير ، وديمبستر ، ووايلدافسكى بفحص الميزانية الفيدرالية فى فترات متعاقبة استطاعوا أن يميزوا متغيرين يفسران الجزء الاكبر من المخصصات المالية فى الميزانية فى أى سنة :

١ — ان ما تطلبه الهيئة لسنة معينة هو نسبة مئوية ثابتة مما يخصصه الكونجرس لهذه الهيئة فى السنة السابقة بالاضافة الى متغـــير جزافى لذلك العام .

٢ — ان ما يخصصه الكونجرس لاحدى الهيئات هو متوسط النسبة المئوية الثابتة لما تطلبه الهيئة فى تلك السنة بالاضافة الى متغير يمثل انحرافا عن العلاقة الطبيعية بين الكونجرس والهيئة فى السنة السابقة .

الوسائط الجمعية :

النمط الرابع من السجلات العامة هو الوسائط الجمعية . وهذه تعتبـــر أسهل المصادر المتاحة بالنسبة للبيانات الخاصة بعلم الاجتماع . وبناء على ذلك ، فان البحث الذى يستخدم المعلومات التى يتم الحصول عليها من الوســـائط الجمعية يشكل حجما ضخما ، ولذلك فسوف نقتصر فى هذا الجزء على تقـــديم مثال واحد . (بالنسبة للدراسات الاخرى التى تستخدم الوسائط الجمعيـــة كمصدر رئيسى للبيانات غير الدخيلة ، انظر يوجين . ج . ويبب وآخرون ، « الاجراءات غير الدخيلة : بحيث غـــير ابتـــكارى فى العلوم الاجتماعيـــة » (شيكاغو : Rand Mcnally ، ١٩٦٦) ، الفصل الثالث) .

أما اوسكار جراسكى ، فقد درس العلاقة بين الخلافة الادارية وما يعقبها من تغيير فى أداء الجماعة . ومن الصفحات الرياضية بالصحف استمد جراسكى بياناته عن مختلف فرق كرة القدم التى تمارس الاحتراف وكذلك عن التوقيت الذى يتم فيه تغيير المدربين ومديرى الفرق . وقد وجد أن استبدال مدير الفريق يحدث اختلافا فى أداء هذا الفريق .

والوسائط الجمعية تقوم بتسجيل الاتصالات الشفهية بين الناس ، وقد تم تحليل هذه الاتصالات ، بدورها ، لاختبار مجموعة من الافتراضات المختلفة . ومع بداية القيام بتحليل المضمون ، فان البحث الذى يستخدم الوسائط الجمعية كمصدر أولى للمعلومات قد أسرع بخطاه كثيرا . فقد لاحظ اول هولستاى أنه « خلال العشرين عاما الاولى من هذا القرن ، كان متوسط الدراسات التى تقوم بتحليل المضمون يصل تقريبا الى ٥ر٢ دراسة تظهر كل عام . ولكن خلال العقود الثلاثة التالية ، ارتفع المعدل السنوى ليصل الى ٨ر٢ ، ٣ر١٣ على التوالى ، ثم بحلول ١٩٥٠ — ١٩٥٨ ، وصـــل هـــذا الرقم مرة اخرى الى أكثر من الضعف حتى وصل الى ٣ر٩٣ .

السجلات الخاصة :

بعكس السجلات العامة ، تعتبر السجلات الخاصة من الاشياء التى يصعب الحصول عليها . ومع ذلك ، فهى ذات قيمة عالية للباحث الذى يرغب فى الوصول الى رؤية نفاذة ، بتفقده لمعرفة التعريف الخاص للفرد لموقف أو حادث ما .

والسجلات الخاصة تشمل السير الذاتية ، اليوميات ، الرسائل ، المقالات ، وما شابه . أما « التراجم » فهى تعتبر أكثر الانماط المستخدمة شيوعا ، حيث أنها تعكس تفسير المؤلف لتجاربه الشخصية . وتعتبر « اليوميات » أكثر تلقائية ، لان المؤلف ليس مقيد بـ المهمة ــ المواقف التى تضبط عملية تقديم التراجم . ولكن كلا التراجم واليوميات تتوجه ،بدأيا لشخص واحد ــ هو المؤلف . بينما الرسائل ، من ناحية أخرى ، لها طرفين مشتركين ــ الكاتب والمتلقى ــ وهى غالبا ما تعكس التفاعل بينهما . وهذه الانماط الرئيسية الثلاث من السجلات الخاصة هى وثائق مكتوبة تتركز على التجارب الشخصية للمؤلف . وهى عادة ما تخرج الى حيز الوجود بناء على مبادرة ذاتية من المؤلف وتعبر عن انطباعاته الشخصية .

السيرة الذاتية :

ان ما تتميز به السيرة الذاتية من طابع فريد هى أنها تعطينا رؤية لحياة وتجارب شخص ما قبل أن تتناولها عملية التحليل بالتشريح . والباحث قد يتوصل الى فهم حياة الشخص فى وضعها الطبيعى ، وبالتالى يمكنه أن يتمادى حدوث أى نوع من الافساد خلال عملية التصور للمشكلة . والسيرة الذاتية تمدنا بـ « « صورة داخلية » لحياة الشخص ، وجانب من هذه الحياة لا هو ظاهر تماما ولا هو مشاع تماما » .

ويقوم جوردون ألبورت بتمييز ثلاث انماط رئيسية من السير الذاتية ، كل منهما يمكن أن تخدم أغراضا مختلفة للبحث .

النمط الاول : هو « السيرة الذاتية الشاملة » ، وهى تعطى دورة كاملة من حياة الشخص منذ اليوم الاول الذى تعيه ذاكرته ، وتقوم باستكمال عدد كبير من تجاربه وخبراته . والحياة الشخصية لهيلين كيلر كشخص أعمى وأصم أخرس تجسم مثل هذا النمط من السيرة الذاتية الشاملة . والنمط الثانى هو « السيرة الذاتية الموضوعية » ، وهى تركز فقط على جانب محدود من حياة الشخص . ومن أمثلة ذلك ، ما قام به ادوين سذرلاند عندما درس طورا واحدا فقط من حياة أحد اللصوص المحترفين :

> « ان الجزء الرئيسى من هذا الكتاب ، هو وصف لمهنة السرقة عن طريق شخص ظل يعمل بصفة متواصلة تقريبا فى هذه المهنة لاكثر من عشرين عاما . وقد حظى هذا الوصف بعنصر الامان عن طريق وسيلتين :
>
> أولا : أن اللص نفسه كتب حوالى ثلثيه تقريبا عن موضوعات وتساؤلات قمت أنا باعدادها .

ثانيا : قمنا نحن الاثنان بمناقشة ما كتب فى فترات تصل الى حوالى سبع ساعات أسبوعيا ولمدة اثنى عشر أسبوعا ، ثم بعد كل اجتماع بيننا مباشرة كنت أكتب كلمـة كلمـة حرفيا ... جميع ما قاله أثناء المناقشة » .

أما النمط الثالث ، فهو « السيرة الذاتية المنقحة » ، وهى عبارة عن نسخة معاد كتابتها بعد الاسترشاد بما كتب عن الشخص . فالباحث يختار فقط تلك التجارب والخبرات التى تتفق وأغراض البحث . والغرض من عملية التهذيب واعادة الصياغة هو انتقاء وتنظيم المادة المكتوبة التى تلقى الضوء على النقاط التى تتناسب والفرضيات النظرية للبحث .

اليوميات :

ان اليوميات تعطى بيانا تلقائيا وسريعا عن التجارب الحياتية للفـرد . وهى بكتابتها فى فترة قريبة من وقوع الاحداث ، فانها تتضمن التجارب المباشرة التى لم تفسد نتيجة لتشتت الذاكرة . واليوميات لا يحاصر كتابتها الخوف من انكشافها للناس ، ولذلك ، فهى تكشف عن الاحداث والخبرات التى كانت تعتبر ذات أهمية فى وقت حدوثها :

ولقد تم تصنيف اليوميات الى ثلاثة أنماط . الـ « الصحيفة الحميمة » وهى سجل متواصل للادراك الذاتى للشخص عن خبراته عبر فترة زمنيـة طويلة . النمط الثانى ، الـ « مذكرات » ، وهى أقرب للاشخصية وتكتب فى فترة زمنية قصيرة نسبيا ، كما أنها تشبه التسجيل الموضوعى لشئون الفـرد . أما النمط الثالث ، فهو « سجل الاحداث » الذى يعتبر أيضا لا شخصى ويتضمن تسجيلا للاحداث ، والمقابلات ، والزيارات وغيرها من أنشـطة الافراد خلال فترة محدودة من الزمن .

وبعض علماء الاجتماع يجدون فى الصحيفة الحميمة أكثر فائدة لأنها تتضمن تعبيرات أصلية وصحيحة عن ادراكات الفرد خلال أمد طويل . ويعطينا سيلتيز مثـالا عن فائدة الصحيفة الشخصية من خلال دراسة بوهلر Buhler عـن المراهقين . فقـد قام بوهلر بمقارنة اليوميات الخاصـة بالفتيات خـلال ثلاثة أجيال متعاقبة ثم اظهر انه فى فترة من التغيرات الثقافية الضخمة فيما بين ١٨٣٧ و ١٩١٠ ، وهى الفترة التى كتبت فيها اليوميات ، ظلت بعض الصـفات الاساسية للشباب ، مثل الحاجة الى علاقات ود حميمة ، كما هى دون تغيـير ولذلك فان الصحيفة الحميمة لا تكتفى فقط باعطائنا الادراكات الذاتية للشخص عبر فترة ممتدة من الزمن ، ولكنها أيضا تتيح للباحث أن يقارن بين فترتين أو أكثر فى حياة الشخص وملاحظة جوانب الاستمرار والتغيير .

الرسائل : الرسائل هى من الاشياء التى يستخدمها رجال التاريـــخ بشكل واســـع ، وان كان علمـــاء الاجتماع لا يستخدمونها كثيرا . واحدى المحاولات المبــــكرة لاســـتخدام الرســـائل كمصدر للبيانات الاجتمـــاعية ، كانت المحاولة التى قام بها ويليام توماس وفلوريان زنانييكى فى دراســـة للفـــلاح البولندى . قام المؤلفـــان بجمع الرســـائل المتبادلة بين بولنـــدا والولايـــات المتحدة لبحث المشـــكلة التى نشبت عندما انتقـــل المهاجرون من بلدهم القديم الى المجتمع الجديد . ولقـــد أتاحت الرســـائل للباحثين امكانيـــة تفحص شخصيات الافراد وانـــواع التفاعـــلات بينهم وبين من تلقوا الرسائل .

وفى احدى الدراســـات الحديثة قـــام لويس ديكستر بتحليـــل الرسائل التى تلقاهـــا أعضـــاء الكونجرس ، ومن ثم فحص طبيعـــة الرأى العـــام الذى انعكس فى هذه الرســـائل . وكانت احدى النتائـــج المثيرة فى هذه الدراســـة ، هى أنه من بين مائـــة رســـالة تطالب بالمســـاندة لرفـــع الحـــد الادنى للاجور ، كانت هنـــاك خمس وسبعون رســـالة كتبها اشخاص يمكن تسجيلهم ، ومن بين هذه خمس وثلاثون رســـالة فقط هى التى تم تســـجيلها . وفى بعض الحالات ، كانت جماعات النفـــوذ هى التى تحرض على هذه الرســـائل ، ومثل هذه الرســـائل يمكن التعرف عليهـــا بدلائل معينة كالتشابه فى الصـــياغة وموعـــد ارسالها .

صحـــة الوثائـــق :

من المشـــكلات الرئيسية التى تنجم عن اســـتخدام الوثائق الخاصـــة هى احتمال أن لاتكون صحيحـــة . وهنـــاك نوعان ممكنان من الوثائق غـــير الصحيحة : السـجلات التى تم وضعهـــا نتيجـــة الغش المتعمد والسـجلات التى أســـاء المؤلف عرضهـــا بلا شـــعور . فالسجلات يمكن تزييفهـــا وتزويرهـــا لغرض وحيد هـــو كســـب مكانـــة أو مكافـــآت ماديـــة . فمثلا ، الكاتب الذى يدعى بمعرفتـــه الحميمة بحياة الشخص موضـــوع الكتـــاب يستطيع أن يبيـــع بســـهولة اكبر تلك الترجمة المزعومة لاحـــدى دور النشر ، وقـــد كان هذا هـــو الوضـــع بالنسبة للترجمة المزيفـــة لهواردهيوز ، التى تم بيعهـــا عام ١٩٧٢ لاحـــد الناشرين المشهورين تحت مزاعـــم زائفـــة . ومع ذلك ، فان هناك عـــدة اجـــراءات يمكن عن طريقهـــا التيقن مما اذا كانت هذه التسجيلات اصلية ام لا . فهنـــاك ، أولا ، الفحص الدقيق الذى يجب أن يتم للمصنف . ثانيا ، يجب تحديد تاريخ الوثيقـــة ، كما أن التواريخ المذكـــورة لابد من التحقق منها . وعلى سبيل المثال ، اذا ما اشـــار المؤلف الى حـــادث معين ، وليكن نـــوع من الشغب ، هنـــا يمـــكن التأكد من معـــرفة ما اذا كان هذا الحادث قـــد وقـــع فى الوقت الذى جـــاء فى فحوى الوثيقـــة أم لا يحدث .

النوع الثانى الذى يتعلق بصحة الوثيقـة ، هو من النـوع الذى يصعب اكتشافه بدرجة كبيرة . فالوثائق قـد لا تكـون مزيفـة بالضرورة ، مع ذلك فهى تستطيع أن تقـوم بتحريف الحقيقـة للاسباب التالية : أن كاتبى الرسـائل أو اليوميـات أو السير الذاتيـة قـد لا يتذكرون الحقائق ، أو قـد يحاولون بعث السرور عند المتلقى فيقومون بالمبالغـة ؛ أو ربما قد يـكونوا مقيـدين بقوالب وتقـاليد معينة ومن ثم يضـطرون لعرض صـورة مشـوهة الى حد مـا . وفى هذا الشـأن ، قام سـتيورات شابين باقتـراح الاجابـة على الاسـئلة التاليـة قبل أن يتم قبول الوثيقـة واقرار صحتها :

١ ـــ ما الذى كان يعنيـه المؤلف من جملة معينـة ؟ وما هو معناهـا الحقيقى خلافـا لمعناها الحرفى المجرد ؟

٢ ـــ هل ما تم التعبير عنه كان عن ايمان ونية طيبة ؟

أ ـــ هل كان المؤلف متأثرا بالتعاطف أو النفـور حتى يقـول غير الحقيقـة ؟

ب ـــ هل هو متأثـر بالغرور ؟

جـ ـــ هل كان يتأثر بالراى العام ؟

٣ ـــ هل ما تم التعبير عنه كان بشكل دقيق ؟

أ ـــ هل كان المؤلف مراقب سيىء للاحـداث بسبب القصور العقـلى او الشـذوذ ؟

ب ـــ هل كان المؤلف فى موقف سيىء فى وقت ومكان مراقبة الاحداث ؟

جـ ـــ هل هو مهل أو غير مكترث ؟

بالاجابة على هذه الاسـئلة ، سوف يكون فى قـدرة الباحث عـادة أن يسـتعيد التسجيلات التى يشوبها الشـك ويتقبـل ما تبقى منهـا كدلالـة معقولـة .

ملخص :

البيانات غير الدخيلة ، المقصود منها تقديم البيانات الخالية من الاخطـاء والتى قـد تنجم اما عن الفرد موضـع البحث أو من الباحث نفسـه عندمـا يواجهان بعضهما فى حالات تجميـع البيانات . والاجـراء الدخيل هـو اى منهج لتجميـع البيانات يستبعد الباحث مباشرة عن مجموعـة التفاعـلات ، أو الاحـداث ، أو السـلوك ، موضع الدراسـة . وفى الاجـراءات غير الدخيلة لا يكون الفرد مدركـا أنـه موضع للبحث ، وليس هنـاك خطر كبير فى أن

فعل القياس سوف يحقق بنفسه تغيير فى السلوك ، أو فى لعب الدور الصريح الذى يميل بالبيانات . والاجراءات الدخيلة ، مثلها مثل المناهج الاخرى لتجميع البيانات ، ليست بالاجراءات المتكاملة ، ولابد للمرء من أن يكون مدركا لمدى حدودها بالنسبة للمناهج الأخرى .

وفى هذا الفصل قمنا بمناقشة وايراد أمثلة من لثلاثة الانماط العامة للاجراءات غير الدخيلة : الآثار المادية ، المشاهدة البسيطة ، والسجلات الدفترية . والآثار المادية هى التى يتركها الافراد خلفهم ودون معرفتهم بكيفية استخدامها فيما بعد . وهناك فئتان عريضتان من الآثار المادية ، هما عوامل التآكل وعوامل التجدد . عوامل التآكل هى البقايا الطبيعية المتخلفة عن النشاط الخاص بشعب ما يكون قد قام اختيارا باكتساء معنية . أما عوامل التجدد فهى تمثل مخزون شعب ما من المواد .

المشاهدة البسيطة تقع فى تلك الحالات التى لا يكون لدى المشاهد أى نوع من الضبط على السلوك موضع الاهتمام ويؤدى دورا غير ملحوظ فى حالة البحث . وهناك اربعة أنماط من المشاهدة البسيطة : مشاهدة الجسم الخارجى والعلامات الجسمانية ، تحليل الحركات التعبيرية ، تحليل الموقع ـ الطبيعى ، ثم مشاهدة سلوك اللغة .

أما الشكل الثالث من الاجراءات غير الدخيلة ، فهو التحليل للسجلات الدفترية العامة والخاصة . وهذه البيانات يتم تجميعها من مصادر متنوعة ، مثل السجلات الاكتوارية ، السجلات السياسية والقضائية ، الوثائق الحكومية ، الوسائط الجمعية ، والسجلات الخاصة التى تشمل السير الذاتية ، واليوميات ، والرسائل . ولكن احدى المشكلات الرئيسية فى السجلات الخاصة هو الاحتمال بعدم صحة هذه السجلات ، فهى قد يدخل فيها الغش المتعمد ، أو أن يكون المؤلف قد أساء عرضها بلا شعور . ولقد ناقشنا عدة اجراءات يمكن أن يستخدمها الانسان لتقليل مخاطر استخدام وثائق خاصة غير صحيحة .

وفى الجزء الاخير قدمنا تحليل المضمون كمنهج يتيح امكانية التحليل النسقى للبيانات المستقاة من السجلات الدفترية والوثائق . فالباحث ، بدلا من مشاهدته لسلوك الناس أو يستفسر منهم عنه ، فهو يتناول عمليات الاتصال التى قام بها الناس ثم يوجه الاسئلة حول هذه الاتصالات . والاجراء الخاص بتحليل المضمون يشتمل على التفاعل الخاص بعمليتين : توصيف سمات المضمون الذى سيتم تحليله وتطبيق القواعد

للتعرف ولتسجيل السمات عندما تظهر فى المواد التى سيتم تحليلها . ومن الواضح أن التصنيفات التى يندرج فيها المضمون تختلف بطبيعة مشكلات البحث وطبيعة البيانات .

مصطلحات أساسية :

قاعدة الاستجابة بالقبول	Acquiescence response set
اجراءات غير دخيلة	Unobtrusive measures
عوامل التجديد	Accreation measures
المشاهدة البسيطة	Simple observation
تحليل الموقع الطبيعى	Physical - location anaxysis
سجلات اكتوارية	Acturial resconrds
سيرة ذاتية موضوعية	Topical autobiograghy
سجل الاحداث	Log
حالة الثبوت	Authenticity
تحليل المضمون	Content analysis
وحدات التسجيل	Recording units

الفصل الثامن

الاهتمامات الأخلاقية في مجال البحث

تمهيـــد :

في الفصل الاول من هذا الكتاب ، تناقشنا في أن العلوم الاجتماعيـــة تتوافر فيهـا صفتـان في وقت واحد ، هي أنهـا علميـة وانسانية ، وأن علمـاء الاجتماع بقـدر ما يخضعون هم أنفسـهم للمشـاهدة فهم يكونون أيضا مشـاركين في الموضوعات الخاصـة بأنظمتهم . والبحث في مجال العلوم الاجتماعيـة لا يتم بشـكل منعزل . فالباحثون يتفاعلون بصفـة ثابتـة مع بيئة اجتماعية سياسية معقدة وراغبة تؤثر بطريقة رسمية وغير رسمية في قرارات البحث التي يتخذونهـا . ومن العناصر المركزية لهذه البيئة هي العلاقة بين الاعتبارات الاخلاقيـة والبحث .

وهذا الفصل يتنـاول الاخلاقيات الخاصـة بقيادة البحث في مجـال العلوم الاجتماعيـة وبالوسائل التي تؤمن حقوق وصالح الاشخاص والمجتمعات وهم يشـكلون الموضـوعات الخاصـة بالدراسـات التي يقـوم بهـا علمـاء الاجتماع . في الجـزء الاول ، سـوف نناقش الاسباب التي دعـت الى اثارة الاهتمامات مؤخـرا بأخلاقيـات البحث . بعد ذلك هنـاك ثلاث حـالات للدراسـة ــ عن الاذعـان للسلطة ، وعن سلوك البوليس ، وعن الصـفات الخاصـة بطلبة الجامعة ــ عرضناها كأمثلة لبعض الاهتمامات الاخلاقيـة المركزية . والمشـكلة الاخلاقيـة التي تواجه علمـاء الاجتماع ــ الصراع بين حق القيـام بالبحث وحق المشـاركين في البحث في التقرير الذاتي ، والخصوصيـة ، والكرامة ، قمنا بمناقشتها بعد ذلك في الجـزء التالي . وفي هذا الجزء أيضـا نقوم بعرض اطـار لفوائـد تكلفـة اتخـاذ القـرارات الاخلاقية في مواقف معينة . وتعتبر حالة الرضا المعلوم والحق في الخصوصية كلاهما من القضايا الاخلاقيـة الشـائعة والتي لهـا أهميتهـا ، ونحن نناقشهما هنـا في الاجزاء التاليـة . أما في الجـزء الاخير ، فاننا نناقش الدسـاتير الاخلاقيـة المهنيـة ثم نضمن فيها دستورا مؤلفـا من أجل علمـاء الاجتماع .

لماذا أخلاقيات الباحث ؟

حيث أن دائرة العمل في مجال العلوم الاجتماعيـة قـد اتسـعت وحيث أن مناهجنا في البحث والتحليـل قـد أصبحت أكثر تطـورا ، لذلك فقد بـات هنـاك اهتمام متزايـد بأخلاقيـات قيـادة وادارة البحث في مجال علـم

الاجتماع . لذلك فقد تمت مناقشة القضايا التى تتصل بكل من حقوق وصالح المشاركين فى البحث والتزامات الباحثين فى اطار كل مهنة من المهن الخاصة بعلم الاجماع ، كذلك نجد ان معظم المجتمعات العلمية قد تبنت الدساتير الاخلاقية التى تغطى مجالات عملهم .

ولا بد أن يكون من الواضح ، أن قيادة البحث التى قد تجور على حقوق وصالح المشاركين فى البحث وتتخطاها ليست هى بالقصد او الاهتمام الرئيسى لمعظم الباحثين . فالغرض الذى يعمل من اجله معظم علماء الاجتماع هو الاسهام فى تنمية وتطوير معرفة نسقية يمكن التحقق منها . وعملية البحث ، كما ناقشناها فى الفصل الاول ، هى المشروع الكلى للانشطة التى ينشغل فيها العلماء من أجل تحقيق معرفة نسقية يمكن التحقق منها . ومع ذلك ، فان كل مرحلة من المراحل الرئيسية لعملية البحث قد تتضمن اعتبارات اخلاقية بالاضافة الى الاعتبارات العلمية البحتة .

ان المنبع الذى تثار منه القضايا الاخلاقية هو أنواع المشاكل التى يبحثها علماء الاجتماع والمناهج التى يستخدمونها للحصول على بيانات صحيحة يعتد بها . فهذه القضايا قد تثار نتيجة لمشكلة البحث نفسها (كالهندسة الوراثية ، ومحددات الذكاء ، وتقييم السياسة ، على سبيل المثال) ، والموقع الذى يدور فيه البحث (مستشفى ، مثلا ، أو سجن ، أو مدرسة عامة) ، الاجراءات التى يتطلبها تصميم البحث (كتعريض مجموعة التجربة لظروف قد يكون لها اثار سلبية على المشاركين) ، ومنهج تجميع البيانات (كتأمين المشارك الذى يقوم بالمشاهدة) ، ونوعية الاشخاص الذين يخدمون كمشاركين فى البحث (كالفقراء ، أو الاطفال ، أو رجال السياسة ، أو المرضى الذهانيين) ، ونمط البيانات المجمعة (كالمعلومات الحساسة (. وحتى تكون مناقشتنا أكثر تحديدا ، لتتناول فحص ثلاث أنواع من الدراسات .

الدراسة الخاصة بالاذعان للسلطة :

ان الدراسة التى قام بها ميلجرام Milgram تعتبر من الحالات الدراسية الهامة المثيرة للجدل والتى تستحق عرضها ببعض التفصيل . انه لكى يتم ايجاد الظروف التى قد يخفق الافراد تحت ظلها فى اطاعة التعليمات الموجهة اليهم من شخص فى مركز السلطة ، فقد تم اجراء تجربة معملية خاضعة للضبط .

لقى جىء بشخصين الى احد المعامل النفسية لكى يعملا معا فى

دراســـة عن العمليـات المتعلقـة بالتعليم . كان على احدهمـا أن يكـون هـو « المدرس » والآخـر هو « طالب التعلم » . وكان المشـارك موضـع التجربـة الحقيقيـة هو المدرس ، الذى أحيط علمـا بأن الغرض من التجربة هو دراســة ما قـد يكون للعقـاب من تأثير على تلقى التعلم . أما طالـب العلم ، الذى تم اجلاسـه على مقعد وذراعـاه مقيـدان لمنعـه من الحركة وتم ايصال قطبين برسـغيه ، فقـد أحيط علما قبـل التجربة بكيف يـكون رد فعله . فقـد اخبره الشخص الذى يقـود التجربة بأن عليه أن يتعلم قائمـة من الكلمـات المزدوجة ، فاذا ما أبدى أى خطـأ فسـوف يتلقى صدمة كهربائية . وكان المدرس يراقب كل ذلك ، ثم أخـذ بعد ذلك الى حجرة التجـارب الرئيسية وتم تعليمه كيف يستخدم الجهـاز المولـد للصدمـات الذى يحتوى على صـف من المفاتيح التى تتدرج من ١٥ حتى ٤٥٠ فولت ، كما كانت تتدرج من « الصدمة الخفيفـة » حتى « خطر ــ صدمة عنيفـة » ، وعند المستوى ٢٨ (٤٢٠ فولت) ، كانت العلاقـة تشير الى « × × × » مكتوبة باللون الاحمر .

بعد ذلك طلب من المدرس أن يقـوم بـ « تعليم » الشخص الموجـود فى الحجرة الاخرى بأن يقـرأ عليـه كلمـات مزدوجـة ، مثل « يوم ــ لطيف » أو « صندوق ــ أزرق » . واخذ المدرس يقـرأ كلمـة محرضـة ثم أربـع اجابات ممكنـة عليها . وكان المتعلم يحدد أى من الاجابات الممكنـة هـو الصحيح بالضغط على واحـد من أربع مفاتيح . فاذا ما كانت الاجابـة صحيحة ، انتقل المدرس الى المجموعـة التاليـة . أما اذا كانت الاجابـة خطأ ، كان عليه أن يرسـل بصدمة الى الشخص المتعلم . كذلك كان المدرس قـد تلقى تعليماته بأنـه حالما يتلقى اجابة خطـأ عليه أن ينتقـل الى مسـتوى أعلى واحد فقط على مولد الصدمات . وكانت النتيجـة انـه لم يتم ارسال أى صدمة الى الشخص المتعلم .

فى هذه التجارب ، كان المتغير التابع الرئيسى هو عمليـة الاذعـان ــ أى رفض المدرس أن يتبع التعليمـات الموجهة اليـه من الشخص فى مركـز السلطة ، وهو الباحث ، الذى ظـل يشجعه على الاستمرار فى زيـادة الصدمات العنيفـة الى الشخص المتعلم ، والذى استمر فى اعطـاء اجابات خاطئـة أو كان يفشـل فى الاجابة . وكانت التعليمات الموجهـة تجىء على شـكل جمل مثل « يجب أن تستمر . فالتجربة تتطلب منـك أن تسـتمر . سـاكون انا الذى يتحمل المسـئولية » . وكان المتعلم مستمرا فى ابـداء نفس مجموعـة ردود الفعل تجـاه اجـراءات التجربة . وظل هكذا دون أن يبدى أى مؤشرات تدل على الضيق ، حتى وصل الى الصدمة بقـوة ٧٥ فولت وعندهـا اهتـز قليـلا ، وحدث نفس الشىء بالنسبة للصدمتين ٩٠ فولت و١٠٥ فولت ، ولكنه عندما وصـل الى الصدمة ١٢٠ فولت ، صاح قائـلا أن الصدمـات كانت

مؤلمة . وعند ١٣٥ فولت ، أخذ يتوجع متألما ، ولكنه عند ١٥٠ فولت صرخ طالبا بأن تفك قيوده ورفض أن يستمر : وظل هكذا يعطى استجابات متماثلة وان كانت تزداد شدتها بتعاقب الصدمات ، حتى وصل الى ١٨٠ فولت وعندئذ صرخ صائحا بأنه لا يستطيع أن يتحمل الالم . وعند ٢٧٠ فولت أخذ يصرخ فى الم ، وعند ٣٠٠ فولت ، رفض الاستمرار فى اعطاء اجابات . واخيرا ، بعد ٣٣٠ ، لم يعد هناك اى صوت يسمع من ناحية المتعلم .

ان النتائج التى تسفر عنها هذه التجارب تتحدى الاخلاقيات العامة . ففى معظم الاحوال ، كان هناك عدد كبير من المشاركين فى البحث يذعنون للتعليمات واستمروا فى توجيه صدمات مؤلمة وخطرة تماما للمتعلم . وفى احدى هذه التجارب ، بلغ عدد المشاركين فى البحث الذين استمروا فى توجيه الصدمات حتى ٤٥٠ فولت وهو الحد الاقصى ستة وعشرون من اربعين شخصا ، وظل خمسة يوجهون الصدمات حتى ٣٠٠ فولت قبل أن يتخلوا عن التجربة ، واصلوا فيما بين ٣١٥ و ٣٦٠ فولت فكانوا ثمانية .

وأن النتائج الهامة الاخرى فى هذه الدراسة هو مدى الضغط الكبير الذى فرضته التجارب على « المدرس » وتعرض له أكثر من المتعلم ، الذى لم يكن بالفعل يتلقى أى صدمات أبدا . وعلى حسب قول ميلجرام ، « كانت عينات التجربة تشاهد وهى تتصبب عرقا ، ويعضون شفاههم ، ويغرزون اظافرهم فى لحمهم . وكانت هذه استجابات مميزة ، اكثر منها استثنائية ، بالنسبة للتجربة » . وهناك دليل مادى قوى على ان الضغط الذى تعرض له المشاركون فى البحث ، وهم عادة من الذين أبدوا اذعانهم ، كان ضغطا بالغا . ولقد اقربه كل من المدرسين والذين قاموا بالتجربة . ولان الباحث كان يدرك احتمال ما قد يكون لاجراءات البحث من آثار سالبة ودائمة على المشاركين ، فقد كان يتخذ اجراءين . الاول ، هو أنه فيما بعد كان يتم تزويد جميع المشاركين بوصف كامل وصحيح لاغراض وميكانيكيات التجربة التى يكونون قد انتهوا توا من الاشتراك فيها ، ثم تعقد مواجهة ودية بين المدرس والمتعلم . والاجراء الثانى ، هو أنه بعد عام من التجربة ، كانت تعقد جلسة نفسية مع عينة من المشاركين ، ولم يتم اكتشاف أى آثار سلبية .

وكان من نتيجة هذا أن اثيرت عدة انتقادات اخلاقية فيما يتعلق بهذه التجارب . أو هذه الانتقادات ، أن المدرسين كانوا يقعون تحت وهم انهم يحدثون آلاما لشخص آخر . وبذلك ، يكون قد تم انكار حقهم فى المعرفة الكاملة والصادقة بالتجربة . فالمشاركون يكونون قد وقعوا

ضحية « الخداع المبدئى » حول الغرض الحقيقى من اجـراء البحث . ثانيا ، أن المشـاركين كانـوا يعانـون من ضغوط بالغـة ، فقـد أصبحوا مضطربين تماما وعصبيين بل ان بعضـهم قد تملكته اعـراض لا يمـكن التحكم فيهـا . الانتقـاد الثالث ، هو أن بعض النقـاد وجهـوا اتهامهم بأنه قـد باتت النتائـج معروفـة ، فان المشاركين بما يكونون قـد سيطر عليهم الاحساس بالذنب عندما أدركـوا ما ذا كانت ستكون عليـه النتائـج فيما لو كانـوا قـد استخدموا فعـلا الصدمات الكهربائيـة . رابعـا ، ان انتقـاد التجـارب كان على أساس أنهـا « كان من الممكن بسـهولة أن تحدث تحـولا فى قـدرة الشخص على الثقـة فى السلطات البـالغة فى المسـتقبل » ، أى التدنى بثقة المشـارك فى السـلطة . أما الانتقـاد الاخير فهو ، أنـه طالمـا أن المشاركين لم يكن يفيدهم أى شىء من اشتراكهم فى دراسـة للاذعـان مثل هـذه فلم يكن لمثل هذه التجارب أن تتم . وعلى الرغم من أن ميلجرام قـد اسـتجاب لمثل هذه الاهتمامات الاخلاقيـة ، فان القضايا التى أثارهـا النقـاد هى بالفعل قضايا صحيحة ولها أهميتها .

دراسـة عن سلوك البوليس :

فى الستينات ، كثرت الاتهامات فى أوساط المجتمع فى أنحـاء الولايـات المتحدة عن قسـوة البوليس . وحتى ذلك الوقت لم تكن مثل هذه الاتهامـات وسلوك البوليس تجـاه الناس بصفة عامة قـد خضعت للدراسة النسقية . ولكن البرت رايس قرر أن يشاهد كيف كان يتعامل البوليس مع المواطنين . وكان يعلم ، على أيـة حـال ، أنـه بمجرد أن يصل الى علم الافراد من ضبـاط البوليس الخاضعين للمشـاهدة الغرض الحقيقى من الدراسـة ، فان ذلك كفيـل بأن يقضى على القسـوة التى يمارسـها البوليس . ولذلك ، فان رايس جعل الضباط يعتقدون أن الدراسـة تعنى اساسا بردود فعل المواطنين تجـاه البوليس . واثنـاء سير الدراسـة ، قـام رايس بتسـجيل قـدر كبير من سـوء المعاملة والقسـوة من جانبهم .

ولقد أثارت هذه الدراسـة ثلاث قضايا أخلاقيـة هامة : اولا ، أن الخداع كان هو الوسيلة التى استخدمت لاكتسـاب فرصـة التوصـل الى المشاهدات المطلوبة ، والذى لولاه لاغلقت ابـواب المشـاهدة أمـام الباحث . (لم يكن الافراد من ضباط البوليس يعرفـون الغرض الحقيقى من الدراسـة ، ولا كانـوا يعرفون « أنهم » هم الذين يشـكلون الوحـدات الاساسـية للمشـاهدة والتحليل) . ويتصل بذلك ، ثانيا ، أن ضباط البوليس قد رفضوا أن يشتركوا فى الدراسـة . وبذلك ، فهم لم يمارسـوا حالة الرضـا المعلوم لانهم لم يـكونوا على عـلم بأنهم هم الاشـخاص الخاضعون للبحث .

ثالثا ، ان الدراسات من هذا النمط يمكن أن تولد عدم الثقة فى المشاركين الجسد الذى يجعل الباحثين فى المستقبل يواجهون صعوبة الحصول على المعلومات وكسب تعاون المشركين من أمثال ضباط البوليس .

دراسة الصفات الخاصة بطلبة الجامعة :

من المشروعات التى كان لها وقع كبير على تطور القضايا الاخلاقية فى مجال الابحاث المسحية ، هو المشروع الذى قام به مجلس التعليم الامريكى عن الصفات الخاصة بطلبة الجامعات . وقد تحدد الهدف من المشروع خلال الاضطرابات الطلابية التى ثارت فى حرم الكليات خلال الستينات ، وكان غرضه هو توفير المعلومات عن المواقف والسلوك الخاص بطلبة التخرج فى الكليات اثناء وبعد سنوات الدراسة . ولقد تضمنت هذه الدراسة الطولية قياسات متكررة لنفس الافراد ومئات الآلاف من الاستجابات . ولقد ارتفعت سخونة الجدل حول المشروع عندما تضمنت استمارة المسح قياسات تتصل بالاتجاهات والتحريض السياسى . ولقد حظيت باهتمام كبير التساؤلات الخاصة بالاشياء التى يمكن أن تستخدم فيها البيانات وبالشكوك التى يمكن أن يتعرف بها اداريو المدارس أو الاجهزة الحكومية على الطلبة المحرضين عن طريق الوصول الى استمارات المسح . وفى هذه الحالة ، كانت القضية الاخلاقية الرئيسية هو اغفال هوية المشارك وسرية البيانات . وهذين الامرين كانا يتصلان بشكل وثيق بمدى الاهتمام بحقوق وصالح المشارك . كما سنتحدث عنه بعد قليل .

الموازنة بين التكاليف والفوائد :

ان الحالات الثلاثة التى ذكرناها تبين أن القضايا الاخلاقية الهامة تثار قبل وبعد اجراء البحث . والقضايا التى أثارتها هذه الدراسات هى قضايا شائعة ومتكررة . فالبحث الذى يستخدم الخداع كجزء من التجربة قد أصبح من الاشياء المعتادة لانه يوفر مزايا منهجية وعملية . فالقياسات غير الدخيلة يتم جمعها بطريقة روتينية دون معرفة الافراد الخاضعين للمشاهدة ، كما أنه لا يمكن دائما الحفاظ على سرية البيانات الخاصة بعملية المسح .

وفى حالات كثيرة ، يواجه علماء الاجتماع صراعا بين حقين : حق القيام بالبحث واكتساب المعرفة ، وحق الافراد المشاركين فى البحث فى التقدير الذاتى ، والخصوصية والكرامة . ويعتبر القرار بعدم القيام بخطة مشروع البحث لانه يتعارض مع صالح الافراد المشاركين هو قيد على

الحق الاول . كما أن اتخاذ القرار باجراء البحث رغما عن الممارسة الاخلاقية التى تثير التساؤل (الخداع ، مثلا) يعتبر قيدا على الحق الثانى . وهذه هى المشكلة الاخلاقية التى تصاحب البحث فى مجال علم الاجتماع .

وبالنسبة لهذه المشكلة ، ليست هناك اجابات صواب ، أو اجابات خطأ . فالقيم التى يعلقها الناس على فوائد وتكاليف البحث فى علم الاجتماع تعتمد بشدة على خلفياتهم ، وقناعاتهم ، وتجربتهم . فمثلا ، طالما أن المحللين للسياسة يضعون ثقلا شديدا على الفوائد التى يمكن جنيها من التنبؤ بدقة بالآثار الناجمة عن السياسات العامة ، فان المدنيين المؤمنين بحرية الارادة يكونون دائما متيقظين للمخاطر الممكنة التى تتعرض لها حرية الفرد ، وخصوصيته ، وتقريره الذاتى . فهم ينحون الى الشك فى أن فوائد اى دراسة يمكن أن تبرر القيام حتى ولو بالمخاطر الصغيرة لانتهاك حقوق الفرد .

ورغما عن ذلك ، فان الباحثين ، فى تخطيطهم لمشروع البحث ، يكون عليهم التزام بأن يزنوا بعناية الفوائد المحتملة أو ما يمكن أن يسهم به المشروع المقترح مقابل الاعباء التى يتكلفها الافراد المشاركين . ومثل هذه الاعباء تشمل ما يتكلفه الفرد من اساءة للكرامة ، والقلق ، والضيق ، وفقدان الثقة فى العلاقات الاجتماعية ، وفقدان الاستقلال والتقرير الذاتى ، وقلة الاعتبار للنفس . اما الفوائد المحتملة لاى دراسة معينة فتتمثل فى عوامل التقدم التى قد تتحقق للمعرفة النظرية أو العملية ، المكاسب التى قد يحصل عليها المشارك فى البحث (بما فى ذلك التعويض المادى) ، الشعور بالرضاء فى تحقيق اسهام فى مجال العلم ، ثم الفهم المتزايد للظواهر التى يتم بحثها .

وتعتبر عملية الموازنة بين الفوائد المحتملة والتكاليف الممكنة هى مسألة ذاتية بالضرورة ويجب أن تظل من الامور التى يجب على الباحث الفرد أن يتخذ قرار بشأنها . فالعلماء يصدرون الاحكام الفردية على ممارسة الباحث على ضوء قيمهم الخاصة . كما أن الاختيارات التى نتخذها تتصل بالقيم الخاصة بنا ، لذلك فانه يتحتم علينا أن نزن هذه القيم بعناية عندما نتخذ قرارات أخلاقية . أكثر من ذلك ، أن اتخاذ القرارات الاخلاقية يجب أن يتم بشكل فردى فى كل حالة لان العملية التى يتم بها اتخاذ القرارات تعتبر بنفس الاهمية التى يتم بها اتخاذ الاختيار النهائى . فالباحث الاخلاقى « يكون على علم بالقواعد الاخلاقية الهادية ، ويتفحص البدائل الاخلاقية بعناية ، ويمارس الحكم فى كل موقف ، ويتقبل

مسئولية اختياره » . اذن ، ففى سياق الموازنة للتكاليف مقابل الفوائد ، فان المشكلتين المركزيتين اللتين تعنيان الباحثون معظم الاحيان ، هما المشكلتان الخاصتان بالرضا المعلوم والخصوصية .

الرضا المعلوم :

لقد أصبح هناك الآن قبول كبير للفكرة بأن عملية البحث التى يكون فيها مشاركون من البشر لابد وأن تتم بـ « الرضا المعلوم » للمشاركين . فالرضا المعلوم يعتبر لازما تماما حينما يتعرض المشاركون لمخاطر جسيمة أو تتم مصادرة حقوقهم الشخصية . وفى هذا الشأن ، نجد أن القواعد التى تسير عليها ادارة الصحة والخدمات البشرية بالولايات المتحدة والتى تحكم عملية البحث الذى يجرى بتصريح منها تتطلب أن يتم ملء استمارة موقعة تفيد موافقة المشاركين فى البحث اذا ما كانوا سيتعرضون « للمخاطر » . وهناك أكثر من ثمانمائة معهد رئيسى للبحث أبدوا موافقتهم الاختيارية للامتثال للقواعد الارشادية الفيدرالية فيما يتعلق بكافة الابحاث التى تجرى فى معاهدهم ، سواء مولتها الحكومة الفيدرالية أم لا . ومع أن سياسة الرضا المعلوم لا « تعوق » اجراء البحث فى علم الاجتماع الذى يتضمن مخاطر . ولكنها تتطلب استخدام مشاركين يكونون على علم بما سيتعرضون له . فعندما يتعرض المشاركون فى البحث الى ما يثير الالم ، أو الى اصابة بدنية أو عاطفية ، أو الى انتهاك لجانب الخصوصية ، أو الى الاكراه البدنى أو النفسى ، أو عندما يطلب منهم التخلى مؤقتا عن حرية الارادة (مثلما يحدث فى أبحاث الدواء) ، عندئذ لابد للرضا المعلوم أن يكون مضمونا تماما . فالمشاركون لابد أن يعرفوا أن اشتراكهم هو مسألة اختيارية وتطورية فى جميع الاوقات ، كما لابد أن يحصلوا مقدما على تفسير كامل على ما قد يكون هناك من فوائد ، وحقوق ، ومجازفة وأخطار كنتيجة لمشاركتهم فى مشروع البحث .

الاسباب الداعية الى وجود رضا معلوم :

ان فكرة الرضا المعلوم تنبع من قيم ثقافية ومن اعتبارات قانونية . فهى تعتمد على تلك الدرجة العالية من التفضيل التى نعطيها للحرية والتقرير الذاتى . فالاشخاص لابد أن يكونوا أحرارا فى تقرير سلوكهم الخاص لان الحرية فى حد ذاتها هى خير . بل وقد يدلل المعتنقون لهذا الرأى ، كما فعل جون لوك ، على أن كون الانسان حرا فهو حق طبيعى ، وأن القيود على الحرية لابد من تبريرها والاتفاق عليها بعناية . فعندما

يجازف الاشخاص المشاركين فى البحث بفرض قيد على حريتهم ، لابد أن تؤخذ موافقتهم على هذا القيد .

والاكثر من ذلك ، أن السماح لكل فرد بأن يقرر ما اذا كان سيشترك فى مشروع البحث أم لا يعكس احتراما لحق التقرير الذاتى وينقل جزءا من المسئولية على عاتق المشارك بالنسبة لما قد يحدث من اثار سلبية اثناء الدراسة . ومن الاسباب الاخرى الداعية للحصول على موافقة المشارك هو سبب قائم على الحجة بأن الافراد البالغين هم أقدر من يرتقون بصالحهم الخاص . ولان الناس سوف يعملون على حماية مصالحهم الخاصة ، فان السماح لهم بحرية الاختيار فى المشاركة فى البحث يدخل فى الموقف عنصر الحماية ضد مخاطر الاجراءات البحثية . وأخيرا ، فان الرضا المعلوم ، من منظور الباحث ، يقلل من تبعاتهم القانونية لان المشاركين سيكونون قد وافقوا اختياريا على المشاركة فى مشروع البحث .

معنى الرضا المعلوم :

على الرغم من أن هناك الآن قبول واسع لمبدأ الرضا المعلوم ، الا ان هناك أيضا اختلافات واسعة ، فى مجال التنفيذ . وهذا الامر يرجع أساسا الى عدم الاتفاق على ما يعنيه الرضا المعلوم بالنسبة للحالات الفردية ، فالتساؤلات مثل — « ما هو معنى المشارك الذى يعلم بالامر ؟ » ، « ما هو قدر المعلومات التى يجب أن يحاط بها ؟ » ، « ماذا يكون الامر فيما لو كان من الضرورى تماما أن لا يعرف المشاركون أنهم ضمن احدى جماعات التجربة أو الضبط ؟ » ، من الواضح أنها أسئلة صعبة ، والاجابة عليها ليست لها معايير معينة . ومع ذلك ، فقد يكون من الممكن بل ومن المفيد توضيح القصد من مبدأ الرضا المعلوم بعبارات عامة ، والاشارة الى عناصره الاساسية ، ومناقشة بعض القضايا المتضمنة اثناء تنفيذه .

لقد عرف ادوارد دينير وريك كراندال الرضا المعلوم بأنه « الاجراء الذى يختار فيه الافراد ما اذا كانوا سيشاركون فى أحد الابحاث بعد علمهم بالحقائق التى من الممكن أن تؤثر على قرارهم . ان هذا الاجراء يتضمن اربعة عناصر : الاهلية ، التطوعية ، المعلومات الكاملة ، الفهم .

الاهلية :

من الافتراضات الاساسية التى ترتبط بمبدأ الرضا المعلوم هى أن أى قرار يتخذه فرد بالغ ومسئول « يكون قد حصل على المعلومات المناسبة »

سـوف يكون قرارا سليما وصحيحـا . ومع ذلك ، ولان هنـاك أشـخاصا كثيرين ليسـوا بالغين ولا مسـئولين ، تصبح المشـكلة هى التعرف عليهم بطريقـة نسـقية .

وبصفة عامة ، من الممكن أن يقـال أن الاشخاص يكونون فى حالـة لا تمكنهم من امتلاك القـدرة على اعطـاء الموافقـة اذا ما توافر فيهم معياران رئيسيان ، أما أنهم لا يمتلكون القـدرة العقليـة الكافيـة ، وما أنهم يكونون فى حالات تثير بعض التساؤل حول قدرتهم على ممارسـة التقرير الذاتى . والذين يمكن اعتبارهم غير مستوفين لمبـدأ الاهليـة هم الاطفـال الصغار ، والمرضى بحالة الغيبوبة والمرضى الذهانيين . وعندما يحصل مثل هؤلاء المشاركين على منافـع مباشرة من اشتراكهم فى أحـد مشروعـات البحث (كالعـلاج الطبى مثلا) ، عندئـذ يكون من المناسب بالنسبة للذين يقومون بعملية الرعاية ، والآبـاء ، وغيرهم من المسـئولين عن هؤلاء المشـاركين أن يقوموا باتخـاذ القرارات نيابة عنهم . اما اذا كان من غير المنتظـر أن تكون هنـاك فوائـد مباشرة أو أن تكـون هنـاك بعض المخاطرة بحـدوث آثار سـلبية ، فقـد يـرى الكثير أن عمليـة البحث لابد أن تمتنـع هى أيضا .

التطوعيـة :

ان التمسـك بمبدأ الرضـا المعلوم سـوف يزيد من مـدى الحرية التى يتمتع بهـا المشـاركون فى اختيار ما اذا كانـوا سيشتركون فى عملية البحث من عدمه ، وسـوف يضمن أن التعرض لمخاطـر معروفـة سـيتم بطريقـة تطوعيـة . ومع ذلك ، فان الاقرار بالظـروف التى يعتبر أن الفـرد فى ظلهما يتخذ قراره على أسـاس من الارادة الحـرة ، يعتبر من المهـام الصعبة . وفى حالات البحث التى تدخل فى نطاقهـا أوضـاع نظامية ، كالسـجون ، المؤسسات العقليـة ، المستشفيات ، المدارس العامة ، يصبح من الوارد أن يكون هنـاك قـدر كبير من تأثير الاشخاص الذين فى موضـع السـلطة . فمثلا ، المريض الذى يكون تحت رعايـة طبيب ــ باحث ، قـد يوافق عـلى العـلاج لانـه يكون من الناحيـة البدنية ضعيف أو واقـع تحت تأثير الطبيب . وفى الواقـع ، فان أخلاقيـات التجارب الطبيـة تؤكـد على القبول بعمليـة التطـوع ، الا أنـه ، وحتى فتـرة اخيرة ، لم يلاحظ الباحثـون ما ينتحله هذا التطـوع من طبيعـة مراوغـة . لذلك ، فقـد نص قانـون نورمبرج على تفسـير دقيق لمـا يجب الحصول عليـه من موافقـة تطوعيـة صادقـة : « ان هذا يعنى أن الشخص المعنى يجب أن تكون لـه الاهليـة القانونية التى تجعله يعطى الموافقـة ، ويجب أن يكون وضـع يمكنه مـن ممارسـة قـدرته الحرة على الاختيار ، دون تدخل من أى عنصر من عنـاصر

القوة ، أو التدليس ، أو الخداع ، أو التطاول الزائد ، أو أى شكل آخر من أشكال الضغط والاكراه » .

ولكى يتم توفير الظروف الموصلة للموافقة التطوعية ، فقد اقترح البعض أن يقوم الباحث بخلق علاقة من المساواة مع المشاركين وأن ينظر الى مسعى البحث على انه مغامرة مشتركة للكشف عن المجهول . كما يرى بعض العلماء الآخرين أن وجود طرف ثالث محايد اثناء اجراء الرضا المعلوم سوف يقلل الى ادنى حد من امكانيات فرض القهر . أما البعض الثالث فينصح بأن يتم السماح للمشاركين بأن يجروا مشاوراتهم مع غيرهم بعد تقديم طلب للحصول على موافقتهم وقبل أن يتم الوصول الى أى قرار .

المعلومات الكاملة :

لكى تكون حالة الرضا كافية ،لابد أن تكون معلومة وتطوعية ، الا أن الرضا فى بعض الاحيان قد يكون غير معلوم وان كان تطوعيا أو معلوما بالكامل وغير تطوعى .

لكن من الناحية العملية والممارسة ، فمن المستحيل الحصول على حالة من الرضا المعلوم تماما . لان هذا الامر قد يتطلب ذكر تفاصيل فنية واحصائية لا نهاية لها . بل الاكثر من ذلك ، أن الباحثين أنفسهم فى حالات كثيرة لا يعلمون بالكامل ما هى النتائج المرتبطة بمشروعات البحث . وعلى حد تعبير بول رينولدز انه لو « كانت هناك معلومات كاملة ، لما كان هناك داع للقيام بالبحث ـ فالبحث يكتسب قيمته فقط عندما يتوافر الغموض حول الظواهر » . ولكن هذا لا يجب على أية حال ان يعنى أن فلسفة الرضا المعلوم كلها غير قابلة للتطبيق ، ولكن بدلا من ذلك ، تم الاخذ باستراتيجية للحصول على « قدر معقول من الرضا المعلوم » .

وفكرة القدر المعقول من الرضا المقبول ، هى الفكرة التى قامت عليها القواعد الارشادية الفيدرالية . وهذه القواعد تستدعى نقل ستة عناصر رئيسية من المعلومات حتى تكون حالة الرضا معلومة بقدر معقول :

١ ـ تفسير معقول للاجراءات التى سوف يتم اتباعها واغراضها .

٢ ـ وصف للمضايقات والمخاطر المتوقعة .

٣ ـ وصف للفوائد المنتظرة .

٤ – الكشف عن الاجراءات البديلة المناسبة التى قد تكون فى صالح المشارك .

٥ – اتاحة الرد على أية استفسارات تتعلق بالاجراءات .

٦ – احاطة الشخص بأن له الحرية فى أن يسحب موافقته ويتوقف عن المشاركة فى المشروع فى أى وقت دون أى تحامل على المشارك .

ولكن من الواضح أن بعض عناصر المعلومات المتضمنة فى هذه القواعد الارشادية تستدعى النقاش . فمثلا ، البند الخاص بالكشف عن الغرض من البحث قد يفسد النتائج ، ولقد كان هذا ما حدث فى التجارب التى قام بها ميلجرام والدراسة التى اجراها راسى . كذلك أيضا ، هناك خلاف على قدر المعلومات التى يجب الكشف عنها . ولقد بينت الدراسة التى قام بها ريزنيك وشوارتز موقف ظهر منه أن اعطاء بيانات كاملة عن البحث شىء غير مرغوب . فقد عزم المؤلفان على أن يطلعا المشاركين على كل شىء يتعلق باحدى التجارب الشفهية قبل اجرائها ، باعطائهم معلومات لا يتم ايضاحها عادة . وقبل القيام بالدراسة قام المؤلفان بالاتصال تليفونيا بالمشاركين وعرضا شرحا مطولا ومستفيضا لاجراءات البحث . وكانت النتيجة أن الكثير من المشاركين لم يحضرو للدراسة . وبعكس النتائج فى الدراسات ذات التهيئة الشفهية ، فان الذين حضروا لم يكونوا مهيئين بشكل ايجابى . وقد أظهرت الدراسة أن اعطاء المشاركين قدرا من المعلومات أكثر من اللازم يكون له نتائج مدمرة على نتائج البحث .

ومن هنا أصبحت المسائل المتعلقة بالمعايير الخاصة بما هى المعلومات التى يجب احاطة المشاركين بها ذات أهمية حاسمة . احد هذه المعايير هو الاطار القانونى لما قد يرغب « الشخص العاقل البصير » فى أن يعرفه . فلابد أن يكون هناك كشف كامل لكافة الجوانب التى تهم الشخص فيما يتعلق بما يتطلبه صالحه الخاص فى أن يعرف قبل أن يتخذ اى قرار . والمشاركون لهم حق غير مشروط فى أن يكونوا على علم بأى خطر محتمل يتعرضون له أو بأى حقوق قد يفتقدونها أثناء القيام بالدراسة .

أما المعيار الاكثر عملية من ناحية التطبيق فى تقرير ماهية المعلومات التى قد تتصل بالمشاركين هو أن تقوم لجنة ممثلة للمشاركين المحتملين باجراء عملية الاختيار أو بدلا من ذلك لجنة ممثلة لكل من الباحثين والمشاركين . ومن الاجراءات الاخرى هو عقد مقابلة مع بعض المشاركين المفوضين بطريقة نسقية والسماح لهم بتقرير ماهية المعلومات المناسبة .

الفهـــم :

العنصر الرابع للرضا المعلوم ، الفهم ، يدل على « الثقـــة فى أن المشارك قـــد أعطى رضـــاءا معلوما عندما يرتبط اجـــراء البحث بمخاطـــر معقـــدة أو مراوغة » . فمن الواضح أن الوصف المتقن للمشروع ، حتى لو جاء بلغـــة غير فنيـــة ، قـــد يكون من الصعب فهمه بشكل كامل .

وفى هذا الخصوص ، هناك عـــدد من الاقتراحات قـــد قدمت لاســـاليب يمكن التيقن بها من حـــالة الفهم قد حـــدثت . هـــذه الاقتراحات تشـــمل الاســـتعانة بمشاركين على درجـــة عاليـــة من التعليم يكونون أقـــدر من غيرهم على فهم المعلومات ، وتوفير أحـــد المستشارين لمناقشـــة الدراســـة مـــع المشـــارك ، ثم توفير فتـــرة زمنيـــة بين اســـتدعاء المشارك واتخاذ القـــرار بالاشتراك فى الدراســـة . ومن الاجراءات الشـــائعة فى هذا الشـــأن ، هـــو توفير وســـيلة مســـتقلة لقياس مدى الفهم عن طريق توجيه أســـئلة للمشاركين أو بسؤالهم الاستجابة لوســـائل الاستقراء لاختبار ما اذا كانـــوا قـــد عرفوا المعلومـــات .

مسئولية رجل العلم :

ان ممارســـة مبدأ الرضا المعلوم يعتبر اكثر الحلول شـــيوعا للمشـــكلة التى تتعلق بكيف يمكن الارتقـــاء بالبحث فى مجال علم الاجتماع دون التعدى على حقوق الافراد وعلى صالحهم . فمن ناحيـــة المبـــدأ ، أنـــه اذا ما توافرت جميع الظـــروف التى تتصل بعمليـــة الرضا المعلوم – الاهلية ، التطوعية ، المعلومات الكاملة ، الفهم – فان الباحثين ســـوف يكونون متأكدين نســـبيا من أن حقوق وصالح المشاركين فى البحث قـــد نالوا أهتماما مناسبا .

ومهما يكن ، فان مبـــدأ الرضا المعلوم لا يجب اتخـــاذه كأحد المتطلبات المطلقة لجميع الابحاث فى العلوم الاجتماعيـــة فمع أنـــه عـــادة يعتبر شـــيئا مرغوبا ، الا أنـــه ليس ضروريا على الأطلاق فى الدراســـات التى لا ترد فيها مخـــاطر أو مجازفات . اذ كلما ازدادت خطـــورة المجـــازفة بالنسبة للمشارك ، كلما عظم الالتزام بالحصول على رضا معلوم . وفى نفس الوقت ، فان من المفترض أن الباحثين يتحملون تبعـــة ما قد يحـــدث من آثار سلبية بالنسبة للمشاركين ، ولو كان هؤلاء قـــد وافقـــوا على الاشتراك فى البحث . اذ ان احاطـــة المشـــاركين علما بما قد يحدث ، لن يؤدى على الاطـــلاق الى تحويـــل عبء المسئولية من الباحثين ويلقيها على عاتق من يشاركون فى مشروع البحث .

الخصوصيـــة :

ان انتهاك خصوصيات الانســـان يشـــكل أهميـــة كبرى للجميع ، خاصة

عندما تحدث تهجمات من دوائر كثيرة وعندما تكون المعلومات متاحة بسهولة نسبية . ان الحق فى الخصوصية ، أى « حرية الفرد فى أن ينتقى ويختار الوقت والظروف التى تحت ظلها ، والاكثر اهمية ، التى يصل مداها ، الى أن يشاركه الآخرون أو يمتنعون عن مشاركته فى مواقفه ، ومعتقداته ، وسلوكه ، وآرائه » ، قد ينتهك بسهولة خلال عملية البحث أو بعد انتهائها .

ولقد رأينا فى الدراسة التى قام بها مجلس التعليم الامريكى على الصفات الخاصة بطلاب الجامعات ، كيف طلب من المستجيبين ان يعطوا معلومات خاصة وحساسة كان من الممكن أن تستخدمها ادارة الجامعة وسلطات الحكومة للتعرف على المحرضين فى الجامعة . فقد تم تخزين البيانات فى ذاكرة الحاسب الآلى وأصبح استخدامها متاحا لاى شخص لقاء مبالغ صغيرة . ولكى يتم حماية المشاركين ، قام الباحثون بفصل هوية المشاركين عن الاستجابات التى أبدوها ووضعوها فى بنك المعلومات . ولكن كان مازال هناك امكانية أن تقوم الحكومة بطلب المعلومات . وفى هذه الدراسة ، رغم أن الباحثين طلبوا من الطلبة الادلاء ببيانات خاصة ، الا انه لم يكن فى استطاعتهم ضمان سرية هذه البيانات فى المناخ السياسى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت . وكان من نتيجة ذلك ، أن المعلومات الحساسة وضعت تحت نظام « الطلب الحر » بتخزين الشفرة التى كانت تربط البيانات بالمستجيبين الافراد فى الخارج .

ابعاد الخصوصية :

ان التقدير لقيمة الخصوصية قد يتم وفقا لثلاثة منظورات مختلفة : حساسية المعلومات المعطاة ، الوضع الذى يتم مشاهدته ، ثم انتشار المعلومات . وقبل مناقشة مناهج تأمين جانب الخصوصية ، سوف يكون من المفيد لنا أن نناقش أولا الجوانب الخاصة بمسألة الخصوصية .

حساسية المعلومات : ان الحساسية التى تتسم بها المعلومات تدل على مدى خصوصية المعلومات أو ما يمكن أن تشكله من تهديد بالنسبة للباحث . بل ان هناك انواعا معينة من المعلومات تعتبر أكثر خصوصية من غيرها وقد تشكل تهديدا اكبر . وعلى حد تقرير الجمعية النفسية الامريكية أن « الخيارات الدينية ، والممارسات الجنسية ، والدخل ، والتحيزات العرقية ، وغيرها من الخواص الاخرى مثل الذكاء ، والامانة ، والشجاعة ، كلها تعتبر من الاشياء الاكثر خصوصية من الاسم ، والمنزلة ، والرقم المسلسلة » . وكلما ازدادت حساسية المعلومات ، كلما ازداد حجم الوقاية المطلوبة لحماية خصوصية المشاركين فى البحث .

الاوضاع التى يتم مشاهدتها : إن الوضع الذى يتخذه مشروع البحث قد يتفاوت من الخصوصية الشديدة الى العمومية التامة . فمثلا ، المنزل يعتبر واحدا من اكثر الاوضاع خصوصية فى ثقافتنا ، والانتهاك لمنازل الناس دون موافقتهم ممنوع بحكم القانون . ومع ذلك ، فان المدى الذى يمكن عنده اعتبار وضع معين له صفة العمومية أو الخصوصية لم يتبلور بوضوح بعد وبذلك فهو يؤدى الى اثارة مناقشات اخلاقية . وعلى سبيل المثال ، فلكى تتم دراسة طبيعة الانشطة التى يقوم بها الشواذ جنسيا من الذكور الذين يدخلون فى مواقعات جنسية بسيطة وغير شخصية فى مواقع عامة (حجرات الاستراحة) ، انتحل همفريز دور المشارك المستور ، وقام بدور « المراقب » (الذى يحذر المشاركين بمقدم البوليس ، أو المراهقين ، أو الرجال « المستقيمين ») ، وبذلك استطاع أن يحوز على ثقة المشاركين والاقتراب من سلوكهم . ولقد تم تسجيل أرقام ١٣٤ سيارة كان يستخدمها المشاركون ، كما تم عقد مقابلة مع خمسين شخصا بعد عام فى منازلهم كجزء من احدى عمليات المسح الاجتماعى — الصحى بشكل قانونى . ولكن ذلك أثار اتهامات النقاد بأنه على الرغم من أن من الدراسة قد تمت فى احدى الاستراحات العامة الا أن المشاركين لم يشرعوا فى ارتكاب انشطة جنسية (« افعال خاصة ») حتى تأكدوا من ان الوضع الموجودين فيه قد أصبح وضعا « خاصا » بصفة مؤقتة .

تناثر المعلومات : الجانب الثالث للخصوصية يعنى القدرة على مطابقة المعلومات الشخصية بهوية المشاركين فى البحث . فالمعلومات المتعلقة بالدخل تظل معلومات خاصة نسبيا لو كان الذى حصل على المعلومات هو باحث واحد فقط . ولكن ، عندما تعلن المعلومات بالبيانات والاسماء المتصلة بها من خلال وسائل الاعلام ، يكون جانب الخصوصية قد انتهك بدرجة خطيرة . وكلما ازداد عدد الذين يعرفون المعلومات ، كلما ازداد الاهتمام بوجوب توافر جانب الخصوصية .

ومن المعتاد بالنسبة لمدينة كاملة أو بالنسبة لوسط مجتمعى صغير أن يتم التعرف على المشاركين فى احد مشروعات البحث حتى لو استخدمت اسماء مستعارة . ومن أمثلة ذلك ، ما وصفه كل من أرثر فيديتش وجوزيف بنسمان فى دراستهما « مدينة صغيرة فى مجتمع جمعى » عن التفاصيل اللصيقة والمزعجة احيانا لحياة السكان فى احدى المدن الصغيرة بولاية نيويورك . ومع أنه قد تم اعطاء المدينة وسكانها اسماء مستعارة ، الا أن من يعنيهم الامر قد استطاعوا التعرف بسهولة على الاوصاف الذاتية التى وردت فى الكتاب . ولم يكن هذا الجانب من الدراسة فقط هو الذى انتقد بشدة ، ولكن سكان المدينة أقاموا استعراضا ارتدى

كل منهم فيه قناعا كتب عليه الاسم المستعار الذى أعطاه الباحث للشخص — وهو دليل واضح على أن المدينة بأكملها قد تعرفت من الكتاب على هوية المشاركين فى البحث .

اذن ، فان حساسية المعلومات ، والوضع الذى يجرى فيه مشروع البحث ، ومدى تناثر المعلومات المعطاة ، هى بمثابة جوانب هامة لابد أن توضع فى الاعتبار عند تقرير مدى خصوصية المعلومات وما هى سبل الوقاية التى يجب استخدامها لحماية المشاركين فى البحث .

وفى هذا الشأن ، هناك منهجان شائعان لحماية المشاركين ، الاول هو اخفاء الهوية والثانى هو السرية . ويعتبر الالتزام بحماية الهوية المجهولة للمشاركين فى البحث والحفاظ على سرية البيانات ، هو التزام ينسحب على كل شىء . كما أنه يجب أن يستوفى مهما كانت التكاليف ما لم تكن هناك تدابير بعكس ذلك قد اتخذت مع المشاركين سلفا .

اخفاء الهوية :

ان تطبيق حق اخفاء الهوية امر يتطلب الفصل بين شخصية الافراد وما يعطونه من معلومات . وبعبارة أخرى ، فان الباحث يعتبر مجهول الهوية عندما لا يستطيع الباحث أو اشخاص آخرون من تمييز معلومات معينة بمشارك معين . فاذا ما أعطيت المعلومات غفلا من الاسماء ، ولم يقدر الباحث على ربط اسم معين بالبيانات ، عندئذ تكون خصوصية المشارك مؤمنة حتى لو تكشفت أى معلومات حساسة .

وأحد الاجراءات التى تتخذ لضمان اخفاء الهوية ، هو ببساطة عدم طلب اسماء او أى وسائل اخرى يمكن التعرف بها على المشاركين فى أحد مشروعات البحث . ولكن من الممكن زيادة اخفاء الهوية اذا ما تم ربط الاسماء وغيرها من وسائل التعرف بالمعلومات عن طريق رقم شفرى . وبمجرد أن يتم اعداد المعلومات لتدخل فى عملية التحليل ، عندئذ يمكن الحفاظ على اخفاء الهوية بفصل المعلومات المميزة عن بيانات البحث . ومن عوامل الوقاية الاخرى ما يتضمن منع ازدواج التسجيل ، أو الكلمات الشفرية التى تتيح الوصول الى البيانات ، أو المراقبة الآلية لاستخدام الملفات .

السرية :

من الاجراءات الشائعة فى البحث فى مجال العلوم الاجتماعية أن يتم اخبار المشاركين بأن المعلومات التى سيدلون بها سوف تعامل بسرية ،

اى ؛ حتى لو أمكن للباحثين أن يتعرفـوا على المعلومات التى أعطاهـا مشارك معين ، فانهم لن يكشفوا عنها علانيـة . ومع أن الباحثين يلتزمون بشـدة بالقـواعد الاخـلاقية والمهنيـة للحفاظ على الوعـد الذى أعطـوه بسرية المعلومات ، الا أن هنـاك من الظـروف ما قـد يجعل الوفـاء بذلك عمليـة صعبة بـل ومستحيله . ومن أهم هذه المواقف هو عندما يتم استصدار أمـر من السلطات القضائيـة أو اللجـان التشريعيـة باحضاء هذه المعلومات .

وبدايـة ، ففى المرحلة الاولى لجمع المعلومات ، لابد من تزويد المشاركين بعبارات واضحـة ودقيقـة ما يتعلق بمعنى وحـدود السريـة . وكلما ازدادت المخاطر التى تفرضهـا المعلومات نفسـها وكلما ازدادت فرص طلب البيانات الذاتيـة بأمر قضائى ، كلما وجب المزيد من الوضـوح فى التفسـير الذى يتلقـاه المشـارك . وفى هـذا الشأن يقتـرح رونالد كامبل وبعض زمـلائه التفسـيرات الممكنة التاليـة : طالما أن المـادة المطلوبة لا تتضمن أيـة مخاطر بالنسبة للمستجيبين ، يكون الوعـد الغامض الذى يأخذ شـكلا عامـا بسرية المعلومات شيئا مقبـولا . فمثلا ، يمكن القول :

« ان هذه المقابلات سـوف يتم تلخيصها فى مجموعـة احصائيات بحيث لن يسـتطيع أحـد أن يعـرف ما هى اجاباتك الشخصية . فجميع المقابلات سـوف تبقى فى نطاق السرية . وستكون الفرصـة ضئيلة تماما فى أن يتصـل بك أحد فيما بعد للتحقق من أننى انا الذى قمت بعقـد هذه المقابلة واننى قمت بها كاملة وبأمانـة .

واذا كانت الاجابات الكاملة والامنية على أسـئلة الباحث يمكن أن تؤدى الى تعريض مصالح المستجيب للخطر ، اذا ما طلبت هـذه الاجابات بأمـر قضائى ، فيجب أن يقال للمستجيب ، مثلا ،

لقد انعقدت هذه المقابلات لوضع دليـل احصائى لن يمكن التعرف فيه على اجابات الفرد أو تمييزها . وسوف نفعل كل ما فى استطاعتنا لابقـاء اجابتـك فى نطـاق السرية . ولكن فقط فى حالة اذا ما صـدر أمـر من المحكمة فاننا سـنقوم بتحويل الاجابات التى يمكن التعرف عليهـا ذاتيـا الى أى مجموعة أخرى أو الى جهاز حكومى .

ولكن نضمن وصول الاشخاص الخارجيين الى البيانات دون انتهاك لمتطلبات السريـة ، فقد تم وضـع عدد من الاساليب الفنيـة لذلك . هذه الاسـاليب تشمل :

١ — ازالة الصفات المميزة ، كحذف الاسماء ، مثلا ، وأرقام الضمان الاجتماعى ، وعناوين الشوارع من البيانات الخاصة بالافراد .

٢ — التصنيف الاولى — كاسم المقاطعة وليس بيانات التعداد السكانى ، سنة الميلاد وليس التاريخ ، المهنة وليس التخصص فى المهنة ، وهكذا .

٣ — التجميع المصغر ، أى — حصر متوسط الاشخاص من بيانات الافراد ، بدلا من بيانات الافراد نفسهم .

٤ — التطعيم بالخطأ ، أى ادخال الخطأ بشكل متعمد فى سجلات الافراد بينما تترك البيانات المجمعة دون تغيير . واحد أساليب ذلك ، هو اضافة خطأ عشوائى يكون توزيعه وقياساته محددة سلفا .

الموضوعية والباحث الاجتماعى :

لقد اصبحت القواعد المنظمة للبحث فى مجال العلوم الاجتماعية موجودة الآن على مستويات عديدة . وتعتبر الدساتير القانونية ، ولجان مراجعة الاخلاقيات ، والاخلاقيات الشخصية للباحث الفرد ، واللوائح الاخلاقية للاتحادات المهنية ، كلها من الميكانيزمات التنظيمية الهامة . وفى هذا الجزء ، نعرض لفكرة الدساتير الاخلاقية المهنية ثم نقدم أحد هذه الدساتير الاخلاقية الخاص بعلماء الاجتماع .

ان معظم الجمعيات المهنية الرئيسية لعلماء الاجتماع قد وضعت لها لوائح أخلاقية لمساعدة أعضائها . وهذه اللوائح تضم الاتفاق الجماعى على القيم داخل المهنة . وهى تعين الباحث الفرد لانها تحدد الخطوط وتشرح ما هو مطلوب وما هو ممنوع . واللوائح الاخلاقية تكتب لكى تغطى مسائل وقضايا محددة كثيرا ما يتم مواجهتها فى انماط البحث التى يتم اجراؤها فى نطاق مهنة معنية . واللوائح تثير حساسية الباحث تجاه مناطق الالتزام والمشاكل حيث يكون هناك اتفاق على الممارسة الاخلاقية الملائمة .

لقد قام بول رينولدز بوضع مزيج من اللوائح الاخلاقية التى تعتمد على صياغات ظهرت فى أربع وعشرين لائحة تتصل بقيادة البحث فى مجال العلوم الاجتماعية ، ومعظمها يمثل لوائح أخذت بها الاتحادات الوطنية لعلماء الاجتماع . وفيما يلى هذه اللائحة . (الرقم الذى يجىء فى نهاية كل بند يمثل اللوائح الاخلاقية المختلفة التى جاءت بها العبارة) .

الدستور الاخلاقى لعلماء الاجتماع

المبـــادىء

قضايا عامة تتصل بلائحة الاخلاقيات :

١ ـ يعتبر عالم (علماء) الاجتماع المسئول عن أحد مشروعات البحث هو (هم) المسئول عن جميع القرارات التى تتعلق بالامور الاجرائية والقضايا الاخلاقية التى تتصل بالمشروع سواء هم الذين تولوا أمرها أم مساعديهم (٧) .

٢ ـ يتحمل المدرسون المسئولية بالنسبة لجميع القرارات التى يتخذها طلابهم فيما يتصل بالمسائل الاخلاقية الواردة فى البحث (١) .

٣ ـ جميع الافعال التى تتم كجزء من البحث لابد أن تتفق مع المعايير الاخلاقية لكل من المنزل والمجتمع المضيف (١) .

٤ ـ القضايا الاخلاقية يجب تقديرها وفقا لمنظور مجتمع المشارك (٢) .

٥ ـ اذا ما ثارت صعوبات أو مشاكل أخلاقية عسيرة الحل ، يجب السعى لطلب المعونة أو المشورة من الزملاء أو اللجان المناسبة التى يشرف عليها الاتحادات المهنية (٢) .

٦ ـ أى انحراف عن المبادىء الموضوعة يعتبر :

(أ) أن الباحث قد رضى بتحمل قدر أكبر من المسئولية .

(ب) التزام اكثر جدية بطلب المشورة أو النصيحة الخرجية .

(جـ) الحاجة الى ضمانات اضافية لحماية حقوق وصالح المشاركين فى البحث (٢) .

القرار بقيادة البحث :

٧ ـ قيادة البحث يجب أن تتم بطريقة تضمن الحفاظ على كمال ونزاهة مشروع البحث ولا تقلل من امكانية قيادة البحث فى المستقبل (٣) .

٨ ـ يجب على الباحثين أن يستخدموا أفضل احكامهم العلمية لاختيار القضايا التى يتم عليها البحث التجريبى (١) .

٩ — ان القرار بقيادة البحث مع ذوات بشرية يجب أن يشمل تقييم للفوائد المحتملة للمشارك والمجتمع وفيما يتصل بالمخاطر التى تتولد عن المشارك (المشاركين) — تحليل المخاطرة — النفع (٢) .

١٠ — ان أى دراسة تشمل ذوات بشرية — يجب أن تتصل باحدى المسائل الفكرية الهامة (٤) .

١١ — ان أى دراسة تشمل ذوات بشرية يجب أن تتصل باحدى المسائل الفكرية الهامة ذات المضمونات الانسانية ، ولا يجب أن تكون هناك اى وسيلة اخرى لحل المسألة الفكرية (٢) .

١٢ — ان أى دراسة تشمل مشاركين من البشر يجب ان تكون متصلة بمسألة فكرية ذات أهمية بالغة اذا ما كانت هناك مخاطر لحدوث آثار سلبية دائمة على المشاركين (٢) .

١٣ — ان اى دراسة تتضمن حدوث مخاطر وكذلك آثار علاجية محتملة يجب تبريرها من منطلق الفوائد التى تتحقق للعميل او المريض (٢) .

١٤ — لا يجب أن يكون هناك داع مسبق للاعتقاد بانه سوف تحدث آثار سلبية دائمة رئيسية للمشاركين (١) .

١٥ — اذا ما كان هناك احتمال بأن قيادة البحث سوف تؤدى الى تحقيق خسائر دائمة للمشاركين ، أو مجتمعهم ، أو الانظمة داخل مجتمعهم (كعلماء الاجتماع المحليين) ، فقد لا يمكن تبرير البحث ويمكن التخلى عنه (٢) .

قيادة البحث :

١٦ — ان البحث بأكمله يجب ان يتم بأسلوب ماهر ، كمشروع علمى موضوعى (٤) .

١٧ — على جميع الافراد العاملين بالبحث أن يكونوا مؤهلين لاستخدام اى وسائل تستعمل فى المشروع (٧) .

١٨ — يجب توفير الافراد ذوى الكفاية والتسهيلات الكافية اذا ما كان البحث يتضمن استخدام اى نوع من العقاقير (٤) .

١٩ — لا يجب أن يكون هناك اى نوع من التحيز فى تصميم أو قيادة أو تسجيل البحث — فلابد أن يكون موضوعيا بقدر الامكان (٤) .

الآثار الواقعة على العلاقات بين المشاركين :

الرضا المعلوم :

عـــــام :

٢٠ — يجب استخدام الرضا المعلوم فى استجلاب المشاركين فى البحث ، ويجب أن يتحمل الباحثون كافـــة الالتزامات المرتبطـــة بمثل هذه الاتفاقات (١٠) .

٢١ — يجب على المشاركين أن يكونوا فى وضـــع يتيح لهم اعطـــاء رضا معلوم ، والا فيجب أن يتم ذلك عن طريق الأشخاص المسئولين عـــن المشـــارك (٢) .

٢٢ — يجب استخدام الرضا المعلوم اذا كانت الآثار المحتملة على المشاركين يشوبها الغموض أو المخاطر (٧) .

٢٣ — يجب الحصول على رضا معلوم على شـــكل مكتوب ، اذا كـــان ذلك ممكنـــا (١) .

٢٤ — السعى للحصول على تصريح رسمى عند اســـتخدام البيـــانات الحكومية ، أيا كانت طريقة الحصول عليه (١) .

توفير المعلومات :

٢٥ — لابد من تفسير وشرح أغراض ، واجراءات ، ومخاطر البحـــث (بما فى ذلك الاخطـــار الممكنة للكيـــان البدنى أو النفسى وكذلك المخاطـــر التى يتعرض لـــه المركز الاجتماعى) للمشـــاركين بطريقة يمكن أن يفهموها (٧) .

٢٦ — يجب على المشاركين أن يكونوا على وعى وادراك بالعواقـــب المحتملة ، اذا كانت هنـــاك ، للجماعـــة أو المجتمع الذى تم اختيارهم منـــه ، وذلك قبل اتخاذ قرارهم بالمشاركة فى البحث (١) .

٢٧ — ان الاجـــراء المستخدم للحصول على اسم المشـــارك يجب أن يكون واضحا له أولها .

٢٨ — يجب أن تحدد خواص الاشراف ، والتمويـــل ، وغيرهما للمشـــاركين المحتملين (٢) .

٢٩ — ان هويــة الذين يقومون بالبحث يجب أن تكون معروفــة بالكامل للمشـــاركين المحتملين (٢) .

٣٠ — يجب على أن تترك للمشـــاركين اســماء وعناوين الافراد العاملين بالبحث حتى يمكن تعقبهم فيما بعــد (١) .

٣١ — يجب على المشـــاركين أن يكونوا على وعى وادراك كامل بجميــع السبل الفنيــة لجمع البيانات (مسجلات الشرائط والفيديو ، التصويــر ، الاجراءات الفسيولوجية . وغيرها) ، وقدرات هذه الســبل ، والى أى حــد ســيظل المشـــاركون مجهولين وتبقى البيانات فى نطاق السرية (٢) .

٣٢ — فى المشروعات التى تستغرق وقتــا طويلا ، يجب احاطـــة المشاركين علما بطريقة دورية بمدى تقدم البحث (١) .

٣٣ — عند تسجيل شرائط فيديو تيب أو أفلام ، يجب أن يكون للخاضعين للبحث الحق فى اقرار المـــادة التى ستملن (برؤيتها واعطـــاء موافقـــة محـــددة على كل جـــزء بهـــا) وكذلك الحق للموافقـــة على طبيعـــة المشاهدين (١) .

الموافقـــة التطوعية :

٣٤ — لابد ان يكون للافراد الخيار فى رفض المشـــاركة وان يكونوا على علم بهذا (١) .

٣٥ — يجب أن يكون للمشـــاركين القـــدرة على انهـــاء الاشـــتراك فى أى وقت يحلو لهم وأن يعرفوا أنهم يملكون حق هذا الخيار (٣) .

٣٦ — لا يجب استخدام أى نـــوع من أنـــوع القهر ، ضمنـــا أو صراحة ، لحث الافراد على المشـــاركة فى مشروع البحث (٦) .

حماية حقوق وصالح المشاركين :

قضايا عامـــة :

٣٧ — ان كرامة وخصوصية ، ومصالح المشـــاركين يجب احترامهـــا وحمايتهـــا (٨) .

٣٨ — لا يجب الحاق الاذى بالمشاركين ، فصالح المشـــاركين يجب أن يكون لـــه الاولوية على جميـــع الاعتبارات الاخرى (١٠) .

٣٩ ـ يجب تقليل الخسائر والمعاناة بالنسبة للمشاركين الى ادنى حد من خلال ميكانيزمات اجرائية وانهاء الدراسات الخطرة بأسرع ما يمكن ، ولا يمكن تبرير مثل هذه الآثار الا فقط عندما لا تتاح دراسة المشكلة بأى وسيلة أخرى (٨) .

٤٠ ـ يجب توقع المشاكل المحتمل حدوثها ، مهما تكن ضآلة هذا الاحتمال ، حتى يمكن التأكد من أن حدوث الاشياء غير المتوقعة لن تؤدى الى آثار سلبية رئيسية على المشاركين (١) .

٤١ ـ يجب ازالة أى آثار ضارة تحدث فيما بعد (٤) .

٤٢ ـ لا يجب اثارة أى آمال أو قلاقل عند المشاركين المحتملين (١) .

٤٣ ـ يجب انهاء البحث اذا ما نشأ أى خطر للمشاركين (٣) .

٤٤ ـ ان استخدام التابعين سعيا وراء مساعدة مهنية لاغراض البحث لا يسمح به الا فقط الى الحد الذى يجعلهم يحصلون على فوائد مباشرة باعتبارهم تابعين (١) .

الخداع :

٤٥ ـ استخدام الخداع مع المشاركين لا يجب أن يتم الا فقط فى حالة الضرورة القصوى ، وأن لا تكون هناك وسيلة أخرى لدراسة المشكلة (٣) .

٤٦ ـ يجب اسباغ النفع على صفة الخداع (١) .

٤٧ ـ اذا ما كان الخداع واردا فى اجراء البحث ، يجب اتخاذ عدة احتياطيات اضافية لحماية حقوق وصالح المشاركين (٢) .

٤٨ ـ بعد استجلاب المشاركين فى الدراسة باستخدام اسلوب الخداع ، يجب احاطتهم جميعا علما بوصف دقيق وكامل وأمين للدراسة والحاجة الى استخدام الخداع (٥) .

٤٩ ـ اذا لم يتم كشف عملية الخداع للمشاركين ، لاسباب انسانية أو علمية ، فان على الباحثين التزام خاص بحماية مصالح وخير المشاركين (١) .

السرية واخفاء الهوية :

٥٠ ـ ان البيانات الخاصة بالبحث يجب أن تحاط بالسرية كما أن جميع المشاركين يجب أن يظلوا مجهولين . ذلك ما لم يكونوا (أو الاوصياء الشرعيون) قد أعطوا الاذن بالافراج عن هويتهم (١٥) .

٥١ — اذا لم يكن فى الاستطاعة ضمان حالة السرية او اخفاء الهوية ، يجب على المشاركين أن يكونوا على علم بهذا وبما قد يترتب عليه من نتائج قبل الاشتراك فى البحث (٤) .

٥٢ — الاشخاص الذين يشغلون مراكز رسمية (وتتم دراستهم كجزء من مشروع البحث) يجب أن يعطوا وصفا مكتوبا لادوارهم الرسمية ، وواجباتهم وهكذا (والتى لا تحتاج الى تناولها باعتبارها معلومات سرية) ثم يتم اعطائهم نسخة من التقرير النهائى للبحث (١) .

٥٣ — ان الدراسات التى تستهدف وضع أوصاف لتجمعات أو متكاملات يجب أن تضمن بصفة دائمة اخفاء هوية المستجيبين الافراد (١) .

٥٤ — ان وضع « الخصوصية » يجب أن يؤخذ دائما فى الاعتبار من المنظور الخاص بالمشارك ومن منظور ثقافته (١) .

٥٥ — ان المادة التى يتم تخزينها فى بنك المعلومات لا يجب أن تستخدم دون اذن من الباحث الذى قام أصلا بجمع البيانات (١) .

٥٦ — اذا ما تم اعطاء وعود بالحفاظ على السرية ، وحديث سوء تصرف من المشاركين أو التنظيمات ، فليس للباحث أن يمنع المعلومات (١) .

٥٧ — يجب اتخاذ اجراء محدد لتنظيم البيانات لضمان اخفاء هوية المشاركين (تحذف التفاصيل) (١) .

الفوائد التى يحصل عليها المشاركون :

٥٨ — يجب منح عائد مجز مقابل جميع الخدمات التى يقدمها المشاركون (١)

٥٩ — ان ازدياد المعرفة الذاتية ، كفائدة تتحقق للمشاركين ، يجب أن تؤخذ كجزء رئيسى من تصميم أو اجراء البحث (١) .

٦٠ — يجب أن يحصل جميع المشاركين على نسخ أو تفسيرات للبحث (٢) .

٦١ — ان دراسة التكاملات أو المجموعات الثقافية الفرعية يجب أن تثمر عن معرفة تحقق فائدة لهم (١) .

جدول ١٣٠١ — تابع

الآثار الواقعة على التكاملات أو المجتمعات :

٦٢ — يجب على الباحثين أن يكونوا على معرفة ، ويكنون الاحترام ، للثقافات المضيفة التى يتم اجراء البحث فى نطاقها .

٦٣ — يجب على الباحثين أن يتعاونوا مع أعضاء المجتمع المضيف

٦٤ — يجب على الباحثين أن يضعوا فى تقديرهم ، مقدما ، الآثار المحتملة للبحث على البناء الاجتماعى للمجتمع المضيف وكذلك التغيرات المحتملة فى تأثير مختلف الجماعات أو الافراد بفضل قيادة البحث .

٦٥ — يجب على الباحثين أن يضعوا فى تقديرهم ، مقدما ، الآثار المحتملة للبحث والتقرير الموضوع على السكان أو الجماعات الفرعية التى جاء منها المشاركون (١) .

٦٦ — يجب على المشاركين أن يكونوا على علم ، سلفا ، بالآثار المحتملة التى ستقع على التكاملات أو الجماعات الفرعية التى يمثلونها .

٦٧ — يجب على الباحثين أن يضعوا فى اعتبارهم مصالح التجمعات والانساق السياسية بأنواعها جميعا .

التفاسير والتقارير الخاصة بنتائج البحث :

٦٨ — جميع التقارير الخاصة بالبحث يجب أن تكون وثائق عامة ، متاحة للجميع بحرية .

٦٩ — يجب أن تحتوى التقارير على وصف كامل ودقيق لاجراءات البحث ، بما فى ذلك كافة الادلة ، بغض النظر عما توفره من تأكيد لفرضيات البحث النظرية ، والنتائج المستخلصة يجب أن تكون موضوعية وغير متحيزة .

٧٠ — فى كتابة تقارير البحث يجب وضع شروح كاملة وتامة لجميع البيانات الواردة ولاى محاولات بذلك لتجنب سوء التفسير .

٧١ — فى جميع المطبوعات الخاصة بالبحث يجب أن يذكر بشكل واضح ما هى أنواع الاشراف ، والغرض ، والدعم المالى ، والباحثين المسئولين عن البحث (٣) .

٧٢ — اذا ما كانت المطبوعات ستلحق خطر او خسارة لمن تتم دراستها ويستحيل اخفاء الوهية بشكل كامل ، يجب تأخير هذه المطبوعات .

٧٣ — الدراسات الخاصة بالثقافات المتعارضة يجب أن تنشر بلغة وفى صحف المجتمع المضيف ، بجانب ما يطبع بلغات اخرى .

٧٤ — يجب منح الائتمان المناسب لجميع الاطراف المشاركة فى البحث .

٧٥ — يجب أن يكون من المتوقع الكشف الكامل والدقيق لجميع المصادر التى يتم نشرها والتى تعتمد على أو تسهم فى العمل .

٧٦ — المطبوعات الخاصة بنتائج البحث عن الجماعات الثقافية الفرعية ، يجب أن تحتوى على الوصف بعبارات يفهمها المشاركون .

٧٧ — ان البيانات الاولية أو غيرها من الوثائق الاصلية يجب أن تكون متاحة للباحثين المؤهلين ، حيثما طلبت .

٧٨ — ان البحث ذو الاستحقاق العلمى ، يجب دائما أن يكون خاضعا للنشر ، ولا يجب حجبه عن النشر العام ما لم تكن نوعية البحث أو التحليل غير مناسبة (١) .

ملخص :

ان الحقيقة بأن العلوم الاجتماعية هى علوم علمية وانسانية فى وقت واحد يثير المشكلة الاخلاقية الجوهرية : كيف يتأتى لنا أن نطور معرفة نسقية يمكن التيقن منها عندما يكون هناك احتمال بأن اجراءات البحث يمكن أن تتعدى على حقوق وصالح الافراد ؟

بالنسبة لهذه المشكلة ، لا توجد عليها اجابات بالصواب المطلق أو الخطأ المطلق . فالقيم التى نضيفها على الفوائد والتكاليف المحتملة للبحث فى علم الاجتماع تعتمد على خلفياتنا ، وقناعاتنا وتجربتنا . ومع ذلك ، فقد برز نوع من الاجماع العريض كما يتضح من اللوائح الاخلاقية للجمعيات المهنية . هذه اللوائح تحدد وتبين ما هو المطلوب وما هو محظور . وعلى الرغم من أنها تستحث الباحثين تجاه الالتزامات وتجاه مناطق المشكلة حيث يكون هناك اتفاق على الممارسة الاخلاقية ، الا أنه ليس هناك بديل عن الدستور الشخصى للاخلاق عند الباحث الفرد . فالباحث الاخلاقى يكون قد تعلم القواعد الارشادية الاخلاقية ، ويقوم بتفحص كامل للتكاليف والفوائد المحتملة الناجمة عن مشروع البحث ، ويمارس الحكم فى كل موقف ، ويتقبل تبعة المسئولية بالنسبة لاختياره .

فى حدود هذا الاطار الاخلاقى لصنع القرار ، تمت مناقشة قضيتين : الرضا المعلوم والخصوصية . الرضا المعلوم هو أكثر الحلول عمومية بالنسبة للمشكلة التى تتعلق بكيف يمكن الارتقاء بالبحث فى مجال علم الاجتماع دون التعدى على حقوق وصالح الافراد . والرضا المعلوم هو الاجراء الذى يختار فيه الافراد ما اذا كانوا سيشتركون فى البحث بعد معرفتهم بالحقائق التى من المحتمل أن

تؤثر على قرارهم . وهو يشتمل على أربعة عناصر أساسية : الاهليـــــة ، التطوعية ، المعلومات الكاملة ، والفهم . وكلما ازدادت مخاطر المجازفة بالنسبة للمشاركين في البحث ، كلما عظم الالتزام بالحصول على رضا معلوم .

أما الحق في الخصوصية فهو أمر يمكن انتهاكه بسهولة خلال عملية البحث أو بعد اكتماله . وعند تقرير مدى خصوصية المعلومات المعطاه ، على الانسان أن يضع في تقديره ثلاثة معايير : حساسية المعلومات ، الوضع الذى يتـــم مشاهدته ، ومدى تناثر المعلومات . ومن السبل الشائعة لحماية خصوصـــية المشتركين في البحث هو العمل على اخفاء هويتهم والابقاء على سرية البيانات .

مصطلحات رئيسية

خداع البحث	Research Deception	الرضا المعلوم	Informed Consent
المشكلة الاخلاقية	Ethical Dilemma	الاهليـــة	Competence
الباحث الاخلاقى	Ethical Researchr	التطوعية	Voluntarism
الرضا العاقل	Reasonably	اخفاء الهوية	Anonymity
المعـــلوم	Informed	السرية	Confidentiality
الفهـــــم	Comprehension	الدساتير الاخلاقية	Codes of Ethics
حساســـية المعلومات	Sensetivity of Information		

قراءات اضافية :

ــ بيرمانت ، جوردون ، هيربرت س . كيلمان ، دونالد بى . وارويك ، (اعداد) « أخلاقيات التدخل الاجتماعى » . نيويورك : Wiley ١٩٧٨ .

ــ بوروخ ، روبرت ف . « استراتيجيات اعلان وطمس البيانات السرية فى علم الاجتماع » ، Policy Sciences ٣ (١٩٧٢) : ٢٧٥ ــ ٢٩٧ .

ــ « ضمان سرية الاستجابات فى البحث الاجتمـــاعى : مـــــذكرة عـــن الاستراتيجيات » . American Sciences ٦ (١٩٧١) : ٣٠٨ ــ ٣١١ .

ــ كاسيل ، ج . « المخاطرة والنفع للذوات فى البحث الميدانى » Americon Sociologist ١٣ (١٩٧٨) : ١٣٤ ــ ١٤٣ .

— كارول ، د . ج . « سرية البحث والمعلومات فى علم الاجتماع : حالة بوبكين » . Policy Sciences ٦ : ٣ (١٩٧٣) : ٢٦٨ — ٢٨٠ .

— كاتز ، ج « عقد التجربة مع البشر » نيويورك : Russell Sage Foundation ١٩٧٢ .

— كيلمان ، هيوبرت سى . « وقت للحديث : عن القيم الانسانية والبحث الاجتماعى » . سان فرانسيسكو : Jossy - Bass ١٩٦٨ .

— لاب ، م . « الاعتبارية فى العلم » . Science ، ١٨٧ (١٩٧٥) : ٦٩٦ — ٦٩٨ .

— نيجيلسكى ، بى . « البحث الاجتماعى فى صراع مع القانون والاخلاقيات » كامبريدج ، ماساتشوستس : Ballinger ١٩٧٦ .

— وينووتر ، لى ، ودافيد ج . بيتمان ، « المشاكل الخلاقية فى دراسة مجتمع منحرف وحساس سياسيا » . Social Problems ١٩ (ربيع ١٩٦٧) : ٣٥٧ — ٣٦٦ .

— تولمين ، ستيفن . « العقل فى الاخلاقيات » . كامبريدج ، انجلاند : جامعة كامبريدج ، ١٩٧٠ .

مصادر الدراسة ومراجعها

اولا : مجموعة وكتب عربية ومترجمة

١ ــ اتحاد اذاعات الدول العربية ، وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الحاجة الى الابحاث ، سلسلة تقارير اذاعية رقم (٣) القاهرة ، اتحاد اذاعات الدولة العربية ١٩٧٢ .

٢ ــ ابراهيم امام ، الاعلام والاتصال بالجماهير ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

٣ ــ أحمد بدر ، الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ، الطبعة الاولى ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٤ .

٤ ــ ابن خلدون ، كتاب العبر ، المقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار .

٥ ــ أبو على أحمد بن محمد المعروف بمسكريه ، كتاب تجارب الامم وتعاقب الهمم ، اعداد هـ . ف . آمدروز ، القاهرة ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٤ جـ ٦ .

٦ ــ السيد ياسين ، جمال زكى ، أسس البحث الاجتماعى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٢ .

٧ ــ فراج ومروغوت ، تصميم البحوث ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ .

٨ ــ حسن الساعاتى ، تصميم البحوث الاجتماعية ، نسق منهجى جديد ، بيروت دار النهضة العربية ، ١٩٨٢ .

٩ ــ زيدان عبد الباقى ، وسائل اساليب الاتصال فى المجالات التربوية والاجتماعية والادارية ، ١٩٧٩ .

١٠ ــ سمير محمد حسين ، بحوث الاعلام ، الاسس والمبادىء ، عالم الكتب الطبعة الاولى ١٩٧٦ .

١١ ــ سمير حسين ، تحليل المضمون ، عالم الكتب ، الطبعة الاولى ١٩٨٣ .

١٢ ــ عبد الباسط محمد حسن ، اصول البحث الاجتماعى ، الطبعة السابعة ، مكتبة وهبى ، القاهرة ١٩٨٠ .

١٣ ــ عبد المجيد فراج ، الاسلوب الاحصائى ، الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧١ .

١٤ — عبد الرحمن بدوى ، مناهج البحث العلمى ، القاهرة ، دار النهضة العربية — ١٩٨٠ .

١٥ — محمد زيان عمر ، البحث العلمى ، مناهجه وتقنياته ، الطبعة الثانية جده ، دار الشروق ، ١٩٧٥ .

١٦ — محمد طلعت عيسى ، البحث الاجتماعى ، مبادئه ومناهجه ، الطبعة الثالثة القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٢ .

١٧ — محمد فتحى الشنيطى ، المنطقة ومناهج البحث ، الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الطلبة العرب ، ١٩٦٩ .

١٨ — مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٩ — محمد الجوهرى وآخرون ، دراسة علم الاجتماع ، دار المعارف ١٩٧٩ .

٢٠ — محمد مرتضى الزبيدى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المجلد الاول ، ماد ، جرب .

٢١ — محمد على الفاروقى الشهانوى ، كشاف مصطلحات الفنون ، تحقيق لطفى عبد البديع ، فصل الباء الموحدة : جرب .

٢٢ — محمد عماد الدين اسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوى ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ .

٢٣ — يوسف مراد حمدالله سلطان ، قاموس الالفاظ الفلسفية والعلمية ، فى كلود برنار ، مدخل الى الطب التجريبى ، ترجمة من الفرنسية يوسف مراد وحمدالله سلطان ، القاهرة ، ادارة الترجمة وزارة المعارف العمومية ، ١٩٤٤ .

٢٤ — ستيوارت ف — تشابين ، « العمل الميدانى والبحث الاجتماعى » ونيويورك ، ١٩٢٠ .

٢٥ — هافان ، ميشيل ف الاجمال والتقسيم فى علم الاجتماع ، ١٩٧١ .

٢٦ — ميرتون روبرت ك . « العثور على المشكلة — فى علم الاجتماع فى علم الاجتماع اليوم ، اعداد روبرت ل . برتون ، ليوناردبردم ، ليونارد كرتريل ، نيويورك ، ١٩٥٩ .

المراجع الاجنبية

1. Abell, peter, Model Building in Sociology, London : Weidenfeld Nicholson, 1971.
2. Brown, Robert Explanation in Social Science Chicago : Aldine, 1983.
3. Braithwaite, R.B. (Models in the Empirial Science) in Reading in the philosophy of Science, ed, by Baruch A. Brody. Englewood Cliffs, N.Y.I. prentice Hall, 1970.
4. Berelson, Bernard, Content Analysis in communication Research. Glencoe, 111, Free Press. 1958.
5. BACK STROM, C. Hoctlursh, G.D., (eds) Survey Research.
6. Binghame W.V.D. and Moore, B.V. :How to interview & New York i 1959.
7. ChAVANA CHMIAS, DAVID NACHMIAS, Research Methods in the Social Sciences, First published in the United King dom, Edward Arnold, 1982.
8. Dubin, Robert, Theary Building, New York, Free press, 1969.
9. Edwards Hilenl. Experimental Design in psychological. Research. Reevewed New York : HoltiRinehart and winston, 1960.
10. C.L. Fry : the technique of Social investigation, New York. 1934
11. Goode, William. J., and Hult Paul K. Methods in Social, Research New York : Mc. Graw. Mill, 1952.
12. Glazer, Myron, The Research Adventure, New York, Free press, 1969
13. George A. Lundberg, Foundations of Sociology, New York, David Mekay. Co., 1964.
14. Graham, George. J. Methologicla, Foundations for political Analisis waltham, Massi xeroxcollege publishing. 1071.
15. Hill way, Tyrus. Introduction to Research Houyhton Mifflin. Co. 1966.

16) Hannan Michael T. Aggregation and Disaggregation in Sociology Lexington. Mass : Lexington Books, 1971.

17) Isaak, Alan C. Scopeand Methods of political Science. Home wood, 111. ; Dorsey 1969.

18) Kemeny, john GH Philosopher looks at Science, Princeton N. Y. i D. Van Nos Kemeny, john G.A. Philosopher. Looks at Science. Princeton V. j. D. Van Nostrand, 1959.

19) Madge, john. The origins of Scientific Sociology. New York : Free Press, 1962.

20) Maclain, Carvin, and Erwin M. Segal. The game of Science. Belmont, Calif. Brooks cole 1969.

21) Mill, j. S., A. System of logic, London, Longmans Green, 1941.

22) Minneaptis, North western University press, 1971.

23) Mechan, Eugene, the Theory and Method of political Analysis. Home wood, 111., Dorsey, 1965

24) Polangi, Michael, personal tinowledge : Towards pot. Critical Home wood, 111, i Dorsey 1965.

25) Polangi, Michael, Personal wpedge : Towards a post-Critical philosophy, New York : Harper Torch Books, 1964.

26) Popper Karl. R. Conjectures and Refatat. ons : The Growth of Scientific Knowledge. New York : Harper & Row. 1963.

27) Kemeny, john G.A. Philosopher books at Science, Princeton, N. Y. : D. Vannos Kemeny, john, G.A. Philosopher Looks. at Science Princeton, N. Y. i D. Van Nostrand, 1959.
Princeton, Ni : D. Van Nostrand, 1959.

28) john. Madge. The Tools of Social Science, London Longmans and. Co., 1965.